

الشيخ محمد الحضري

اتمام الوفاء

المكتبة المصفاية
بيروت

۱۹۸۲ - ۱۴۰۲

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حق حمده . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أوضح السبل . وبلغ الرسالة كما حمل ؛ والرضاء عن أصحابه الكرام البررة الذين اتبعوا نهجه القويم فدانت لهم الملوك وذلك لهيبتهم الأمم .

(أما بعد) فيقول المرحوم محمد الخضرى بن المرحوم الشيخ عفيفى الباجورى سألتنى وفقى الله وإياك أن أردف لك كتابى فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم الذى سميت به نور اليقين ، بكتاب فى تاريخ خلفائه الراشدين . إذ هم الذين ظهر الدين الإسلامى بأسمى مظاهره فى أيامهم وتجلي فى أجمل حلته بأقوالهم وأفعالهم طالباً منى أن أنهج على سنن الكتاب الأول فى سهولة التعبير . والاجتهاد فى جمع ما تشتت من تاريخ هؤلاء السادة فى معاومات الكتب التى يمل القارىء منها ذكراً أن من أعظم ما يبت فى الأمة روح النشاط والاجتهاد فى أن تكف على دراسة تاريخ كبارها حتى تعرف كيف تغلبوا على المصاعب التى كادت تحول بينهم وبين أمانهم العظيمة وتعرف النتيجة التى تعود من اتباع الدين والسير على نظاماته ، فعلت حسن قصدك وصحة إيمانك وغيرتك على أمتك ورأيت أن أساعدك على مقصدك وأتغلب على المصاعب التى تحول بينى وبين هذا العمل الجسيم مستعيناً بالله سبحانه وتعالى وهو نعم العون ، وقد جعلت الكتاب قسمين : (القسم الأول) فى اتحاد الكلمة وفيه الفتوحات الإسلامية فى عهد الخليفين أبى بكر وعمر وزمن غير قليل من زمن عثمان ابن عفان رضى الله عنهم أجمعين . وأتبع هذا القسم بنبذة فى نظامات الأمة الإسلامية إذ ذاك وسير المسلمين مع بعضهم من حسن الإخاء والسعى وراء

تتميم ما أنبا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعميم الدين الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها . و (القسم الثاني) في عصر الاختلاف والفتن وهو من أواخر مدة عثمان إلى أن قتل على بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن الخلافة إلى معاوية رضى الله عنهم أجمعين وأتبعه بنبذة تظهر للمسلمين نتائج الاختلاف والفرقة ليكون الكتاب بعون الله درساً مفيداً لعامة المسلمين (وقدمت) أمام القسمين مقدمة صغيرة في الخلافة وما يتعلق بها ولعل كتابي هذا يحل عند إخوان المسلمين محل القبول فيقبلون عليه كما قبلوا على سابقه وإنى بحمد الله واثق بحسن مسعاى لأنى قصدت به وجه الله سبحانه أسأل به حسن النحر فى الأخرى وتوفيقاً للمسلمين حتى تقوى شوكتهم وينزل الله النصر عليهم .

وهذه هى الكتب التى استقيت منها فى جمع كتابى هذا (١) صحيح أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى الجمعى فى كثير من المواضع التى عنى فيها بأخبار الصحابة رضى الله عنهم (٢) صحيح أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشبرى كذلك (٣) تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى إلا ما كان من أمر صفين فإنى لم أعثر على الجزء الذى يحتوى عليها (٤) تاريخ أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد المعروف بابن الأثير الجزرى (٥) تاريخ عبد الرحمن بن خلدون المغربى (٦) تاريخ على ابن الحسين المسعودى من ولد عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) إحياء علوم الدين لأبى حامد محمد بن محمد الغزالى (٨) سراج الملوك لأبى بكر محمد بن محمد الفهرى الطرطوشى : وقد انزمت أن أنص لك على موضع النقل عندما أرى ذلك لازماً لما رأيت من حرصك على ذلك والله الموفق .

المقدمة في الخلافة

معنى الخلافة

أرسل الله سبحانه محمدأ صلى الله عليه وسلم بدين قويم وصرائط مستقيم : من اتبعه نجا ، ومن حاد عنه هلك وقد اشتمل هذا الدين على قوانين بها صلاح المجتمع الإنساني في الدنيا والآخرة فبلغ عليه الصلاة والسلام الرسالة كما حمل ثم لحق بربه راضياً مرضياً فكان لا بد للناس من إمام يخلفه في حمل الكفاة على اتباع هذا الدين ليقف كل إنسان عند حده فيتساوى القوى والضعيف والشريف والوضيع أمام الحق فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حراسة الدين وسياسة الدنيا .

وجوب إقامة الخليفة

وقد أجمعت الأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجوب إقامة هذا الخليفة وتابعهم على ذلك من بعدهم من المسلمين ولم يشذ عن هذا الإجماع أحد ، اللهم إلا بعضاً من الخوارج والأصم من المعتزلة قالوا بالاستغناء عنه إذا صلحت الأمة بأن اتبعت الدين القويم فعملت بالكتاب والسنة ، والذي حملهم على ذلك إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممثلة بدم ذلك والنبي على أهله ومرغبة في رفضه .

عدم تعدد الإمام

وكذلك أجمع المسلمون على أنه لا يصح أن يكون لهم في عصر واحد خليفتان لما يجره ذلك من التنافس والتباغض اللذين هما سبب الحصران

والوبال وكفى بما حصل للمسلمين منذ تفرقت كلمتهم وتعدد سلطانهم مانعاً من ذلك فإن عدوهم تمكن من أن يتصنع لأحدهم ليستعين به على الآخر فكان ملوك الروم يتقربون من ملوك الأندلس ليكونوا لهم ردة أمانعاً من تعدى العباسيين عليهم وصارت الحال تتقهقر من سيء إلى أسوأ حتى زمننا الذي نجتهد فيه للتقرب ممن يتمنون لنا الفناء والزوال ولو عرف ملوك الإسلام مصلحتهم وأزالوا الكبرياء من نفوسهم فتمسكوا بالدين ما وصلوا إلى هذا الدرك الأسفل (إن في ذلك لعبرة لأولى الأبواب).

صاحب الخلافة

منصب عظيم كمنصب الخلافة لا يستغرب تشعب الأفكار فيه واختلاف الأمة في الأحق به فقد مضت القرون والأحقاب وهذه المسألة شاغلة أفكار العلماء من أكابر المسلمين وأول خلاف ظهر فيها كان عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن الأصحاب كانوا في ذلك على ثلاثة مذاهب (قوم) قالوا إنها ترجع لرأى الأمة تختار من تشاء ليكون إماماً لها متى رأوا فيه القدرة على حراسة الدين وسياسة الدنيا لا فرق في ذلك بين القرشي وغيره وكان هذا رأى أغلب الأنصار من سكان المدينة رضوان الله عليهم ولذلك طلبوها لأنفسهم وأرادوا أن يبايعوا سعد ابن عبادة سيد الخوارج . وأخذ برأيهم من بعدهم عامة المعتزلة وأكثر الخوارج والحجة في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : إسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشي ذو زبيبة ، و (قوم) قالوا هي باختيار الأمة أيضاً ولكن لا تكون إلا في قريش وكان هذا رأى أغلب المهاجرين رضوان الله عليهم . وأخذ برأيهم من بعدهم عامة أهل السنة ، والحجة في ذلك ما رواه أبو بكر رضى الله عنه من قوله عليه الصلاة والسلام : الأئمة من قريش ، و (قوم) رأوا أن الأولى بها قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقدم

فيهم على بن أبي طالب رضی الله عنه لسابقته بالإسلام وحسن بلائه فيه وقوله عليه السلام له حينما خلفه على أهله في غزوة تبوك ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبوة بعدى ، وكان هذا رأى أغلب بني هاشم ومن شايهم . وأخذ برأيهم من بعدهم عامة الشيعة والدليل على أن ذلك كان رأياً لعلى قوله لأبي بكر في حديث مسلم الآتي ، وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن رضی الله عنه يرى لنفسه مرجحاً سوى هذه القرابة ولو كان هناك وصاية له أولعيه لما خفيت عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تغلب الرأى الأوسط على ما سواه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن ظهر لهذا الاختلاف في مستقبل الأمة آثار لا تحمد من الشقاق العظيم والمصائب التي توالى على الأمة حتى فرقت كلمتها وأضعفت أمرها ولو روي السر الذي من أجله خصت قريش بالخلافة لما كان هناك خلاف ولا فرقة .

السر في تخصيص قريش بالخلافة

وإما خص رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً بخلافته اعتباراً للعصبية التي تكون بها الحماية ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم جبل الألفة فيها ولا شك أن قريشاً كان لهم العز والشرف على سائر مضر ، يعترف لهم بذلك سائر العرب . فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم فنفرق الجماعة وتختلف الكلمة وهذا ما حذره الشرع أما إذا جعل فيهم فلا يحصل شيء من ذلك لأنهم قادرون على سوق الناس بعضا الغلب لما يراد منهم فلا يخشى من أحد اختلاف عليهم ولا فرقة لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه بعد كلام لا يخرج

عما ذكرناه ، فاذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصية والغلب وعلينا أن الشارع لا يخصص الأحكام بجبل ولا عصر ولا أمة علينا أن ذلك إنما هو من الكفاية فردناه إليها وطردها العلة المشتتة على المقصود من القرشية وهو وجود العصية فاشتراطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبية على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة ، وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصية الغالبة ، وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لأنه سبحانه وتعالى إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه ، اهـ .

أقول ولا نعلم الآن عصبية كافية لحماية الأمة أقوى من عصبية القائمين بأمور المسلمين الآن وهم بنو عثمان بالقسطنطينية وفقهم الله للعمل بدينه القويم والسير بسيره الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين .

شروط الخليفة

لا بد لمن يتولى هذا المنصب العظيم أن يكون جامعاً لشروط أربعة :

(١) العلم : لأنه منفذ لأحكام الله تعالى ومتى كان جاهلاً بها لا يمكنه تنفيذها .

(٢) العدالة : لأن الإمامة منصب ديني ينظر في سائر الأحكام التي تشتترط فيها العدالة فكانت أولى باشتراطها ،

(٣) الكفاية : بأن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب

بصيراً بها ، كفيلاً بجمل الناس عليها علماً بأحوال الدهاء قوياً على معاندة
السياسة ليصلح له بذلك ما أسند إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة
الأحكام وتدبير المصالح .

(٤) أن يكون سليم الحواس والأعضاء بما يؤثر فقداً في الرأى والعمل
ويلحق بذلك العجز عن التصرف اصفر أو أسر أو غيرهما .

انتخاب الخليفة

قال الله تعالى في سورة آل عمران مخاطباً لنبيه الكريم ﴿ وشاورهم
في الأمر ﴾ وهذا خطاب الأمة كلها فكانت الشورى بذلك أساساً للأعمال
العظيمة التي يعملها المسلمون وأجلها تنصيب الخليفة فلا تنعقد إلا بشورى
المسلمين ورضاهم والمعتبر في ذلك أهل الحل والعقد منهم وهم كبار الصحابة
رضوان الله عليهم الذين امتازوا بكثرة الصحبة فاستنارت بصائرهم وعرفوا
من يصلح للأمة وهذا في العصر الأول وينزل منزلتهم فيما بعده من العصور
من له خير في الإسلام ولا يلزم إجماع ذوى الحل والعقد على المنتخب بل
المعتبر الأغلبية وهي مازاد على نصف المجتمعين والحجة في ذلك عهد عمر
فتم الرضا على واحد بايعوه على السمع والطاعة وعلى العمل بكتاب الله
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وبهذه البيعة تجب على المسلمين طاعته
وتنفيذ أوامره لأوافق منها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
وايست الطاعة الإمام في حياته فقط بل وبعد وفاته فإذا عهد لأحد من
المؤمنين بالخلافة انعقدت له ووجبت مبايعته فصار واجب الطاعة وقد فعل
ذلك أبو بكر لعمر رضى الله عنهما فأجازاه المسلمون وإذا حصر الشورى
في عدد مخصوص من ذوى الحل والعقد أجزيت ذلك وصح انتخابهم كما فعل
عمر مع عثمان رضى الله عنهما ، وهذه الكيفيات الثلاث في انتخاب الإمام

وهي انتخابه بالشورى العامة أو الخاصة التي يختارها الإمام السابق أو ولاية المهدي السكيفية التي عمل بها في العصر الأول وبقيت كيفية رابعة أقر العلماء بعد العصر الأول على انعقاد الإمامة بها وهي كيفية التغلب وتكون حينها لا يكون للمسلمين إمام واختلفوا فيما بينهم فلم يرضوا واحداً فيجوز لمن يعرف من نفسه القدرة على سياسة الأمة بدرأيته وعصيته أن يطلب هذا الأمر فيدخل الناس في طاعته إما طوعاً وإما كرهاً ومتى هدأت الأحوال وأجيب نداؤه صارت خلافته معمولاً بها وصار واجب الطاعة .

طاعة الإمام

قال الله تعالى في سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة) وقال عليه السلام (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني) وقال عليه السلام لأبي هريرة (عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرك وأثره عليك) والأثره هي الاستشارة الحقوق وقال عليه السلام (لو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاستمعوا له وأطيعوا له) وقال أبو ذر رضي الله عنه (أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبد مجدع الأطراف) .

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا وأن لا تنازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كان لا تخاف في الله لومة لائم) وفي رواية (بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا

ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا ولا ننازع الأمر أهله إلا إن تروا
كفراً بواحا) والبواح الظاهر المكشوف الذي لا تأويل فيه .

مخالفة الامام

وهذه الطاعة محدودة بما حده الشرع فإذا أمر بما يطبق على قواعد
الدين ولا يخالف صريح القرآن ولا السنة الظاهرة المكشوفة فأمره مطاع
واجب التنفيذ وكذلك إذا كان باجتهاد من عنده استند فيه لكتاب أو سنة
أما إذا أمر بما خالف صريح القرآن أو السنة فلا طاعة له قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم (لا طاعة لمخلوف في معصية الخالق) وقال عليه السلام
(فإذا أمرت بمعصية فلا سمع ولا طاعة) كما إذا أمر بشرب خمر أو ترك
صلاة مثلاً فيجب على المرء المسلم أن لا ينفذ أمره بل ينفذ أمر الله ولا يخاف
فيه لومة لأنم

منازعة الامام

أما إذا خرج هو في أعماله عن حد الشرع بأن ظلم أو استأثر بالحقوق
أو فسق بشرب خمر أو ترك صلاة مثلاً فالواجب على المسلمين القيام بأمره
بالمعروف ونهيه عن المنكر لا تأخذهم في ذلك لومة لأنم عملاً بحديث عبادة
(وعلى أن نقول الحق أينما كان لا يخاف في الله لومة لأنم) بشرط ألا يؤثر
ذلك في طاعته شيئاً فلا يجوز الخروج عليه وإشهار السلاح في وجهه أبداً
مهما استأثر أو فعل إلا إذا ظهر منه كفر صريح لا تأويل فيه ، ففي حديث
عبادة (ولا ننازع الأمر أهله إلا أن يروا كفراً بواحاً) وهنا لإمامة له
ولا طاعة بل يجب على كل مسلم القيام ضده حتى ييؤء بالخزى والنكال وقد
كان أكثر الصحابة الذين في عهد يزيد على هذا المبدأ فلما شهر يزيد بما شهر

به لم يجرؤ أحد منهم الخروج عليه إلا الحسين بن علي رضي الله عنه فإنه رأى لنفسه ذلك لأهليته التي لا يمارى فيها وشوكته التي لم تكن بالحادثة فلم يتمكن مما أراد رحمه الله وقد عدله على خروجه أخوه محمد بن الحنفية وابن عمه عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير فلم يرض لنصحهم لأمر إرادة الله . وقد كان في ذلك العصر كثير من الصحابة بالحجاز والشام والبصرة والكوفة ومصر وكلهم لم يخرج على يزيد إلا وحده ولا مع الحسين ولم يقاتلوا مع يزيد أيضاً بل اعتزلوا هذه الفتنة . ولعل الحسين رضي الله عنه تأول قوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ وساعد على ذلك أن أرسل له امرأة أهل العراق يطلبونه لمبايعته فرأى ذلك له مع قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان ما كان .

جزاء المحاربين

الإمام خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فن عصاه فقد عصى الرسول ومن عصى الرسول فقد عصى الله ومن حارب الإمام فقد حاربهما وأجدر بمن حارب الله ورسوله أن يذوه بأثم عظيم ، وقد بين الله سبحانه وتعالى جزاء المحاربين في سورة المائدة قال تعالى ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ فجعل المحارب أربعة أنواع محارب قتل فجزاؤه القتل ومحارب قتل وسرق فجزاؤه الصلب ومحارب سرق فجزاؤه القتل ومحارب أخاف السبيل فجزاؤه النفي . والذي حدد هذه الأنواع

السنة المطهرة . وقال بعض الفقهاء إنه لا توزع في هذه العقوبات وللإمام الخيار في الحكم بأى واحدة منها حسبما يراه من المصلحة وإن كانت لهم فئة يرجعون إليها كانوا بغاة ولهم أحكام تذكر في كتب الفقه ، ثم ذكر في كتب الفقه ، ثم ذكر سبحانه أن من تاب من قبل القدرة عليه فقد عفا الله عنه ولذلك يلزم الإمام أن يدعوهم إلى طاعته قبل أن يبدأهم بالقتال ، وقد فعل ذلك على ابن أبي طالب مع من خرج عليه من الحروريين ؛ ورأى أن قليلاً ممن خرج على الأئمة في العصور السابقة لهم مقاصد دينية والغالب عليهم المقاصد الذاتية النفسانية ولذلك قلما رأينا منهم من نجح لأن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم هي النور الذي يستضيء به كل مسلم وهي قد حرمت الخروج تحريماً شديداً مخافة تفريق المسلمين وتشيت كلمتهم

واجبات الامام

قد علمنا أن وظيفة الإمام هي حراسة الدين وكفاية الأمة فالواجب عليه إذاً أن يكون الشرع قائده لا ينحرف يمناً ولا يسرة عما جاء في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم العادلة الصحيحة وإجماع أئمة المسلمين في العصر الأول ، فإن فعل ذلك واهتدى بهدى من هو خليفة عنه وهدى خلفائه الراشدين كانت مرتبته مرتبة الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وكان من الذين يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله وأما إن انحرف وحاد واتبع شهوته النفسية فهناك يكون الوعيد الشديد والعقاب الأليم ، قال عليه الصلاة والسلام (مامن أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة) وقال عليه السلام (مامن عبد يستر عيه الله رعية فلم يحطها بنصحه ؛ لا لم يجدر راحة الجنة) وقال عليه السلام (من ولى من أمر المسلمين شيئاً

ثم لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليقبوا مقعده من النار) إلى غير ذلك من الأحاديث التي كلها تحذير للأئمة كيلا تهوى بهم أعمالهم في الدرك الأسفل من النار نعوذ بالله من ذلك . اللهم ألهم ولاة أمورنا الرشدة وبين لهم السداد ليقتدوا بسيرة نبيك صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء وسيرة خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين .

القسم الأول من الكتاب

خلافة أبي بكر

لما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى اجتمع أصحابه من مهاجرين وأنصار في سقيفة بني ساعدة لإقامة خليفة له وكان الأنصار أهل المدينة يريدونها لأنفسهم لما هم من نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيوانه بطبيعتهم ولا يرون اختصاص قريش بالخلافة ، فلما حجهم أبو بكر رضى الله عنه بقوله عليه الصلاة والسلام والأئمة من قريش ، أصاخواله وتركوا ما ذهبوا إليه من أحقيتهم بالخلافة لأن المخالف ما دام حائداً عن الهوى سهل إرجاعه إلى الحق ، وهؤلاء كانوا أجلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يهمهم إلا ضم كلمة المسلمين ولم شعتمهم غير ناظرين إلى الدنيا وزخارفها (وكان) بنو هاشم يريدونها لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه لما يرون من أحقيته بالخلافة لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الرأى الغالب كان مع أبي بكر رضوان الله عليه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه في الصلاة وقت مرضه فقال المؤمنون قد رضيه صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لديننا ؟ فبويع بها ثلاث عشرة خلت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة وأول من بايعه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ولم يبايع على بن أبي طالب إلا بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها ، وفي مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك (قرية بخيبر) وما بقى من خمس خيبر فقال أبو بكر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا نورث ما تركناه صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال وإني والله لا أغير شيئاً

من صدقة رسول الله عليه وسلم عن حالها التي كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أعمل فيها إلا بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك قال فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر فلما توفيت دفنها زوجها علي بن أبي طالب ليلاً ولم يؤذن بها أباً بكر وصلى عليها وكانت لعل من الناس وجهة حياة فاطمة فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس فالتص مصالحة أبي بكر ومبايعته ولم يكن بايع تلك الأشهر فأرسل إلى أبي بكر أن اتننا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر ابن الخطاب فقال عمر لأبي بكر والله لا تدخل عليهم وحرك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بي والله لا يدينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد على ابن أبي طالب ثم قال إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا نفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولا تكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيننا أبي بكر فلما بكى أبو بكر قال لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن أصل من قرابتي وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال فإني لم آل فيها عن الحق ولم أترك أمراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه إلا صنعته فقال لأبي بكر موعذك العشيقة للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر إليه ثم استغفر وتشهد على بن أبي طالب فمظم شأن أبي بكر وأنه لم يحمه على الذي صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكار لذي فضله الله به ولكننا كنا نرى لنا في الأمر نصيباً فاستبد به فوجدنا في أنفسنا ، فمر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكان المسلمون إلى علي قريباً حين راجع الأمر بالمعروف . ولما قضى الأمر ببيعة أبي بكر صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنتم فأعينوني

وإن صدقت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى
عندي حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن
شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا بدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل
أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا
إلى صلاتكم برحمتك الله .

ترجمة أبي بكر

هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد
ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر التيمي القرشي يجتمع مع
النبي صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب وأمه أم الخير سلمى بنت صخر
ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ولد رضى الله عنه لسنتين من
ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة
الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان مصاحباً لرسول
الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر
أول رجل أجابه حتى قال عليه السلام : ما دعوت أحداً إلى الإسلام
إلا كانت له كبوة غير أبي بكر ، ثم قام بدعوة لإخوانه وأصدقائه من قريش
إلى هذا الدين فأجابه جمع منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة
ابن عبيد الله وغيرهم ولما آذى المشركون من أسلم من عبيدهم كان لأبي بكر
اليد الطولى في شرايهم وعقوبهم ابتغاء وجه ربه الأعلى منهم بلال بن رباح
وعامر بن فهيرة وغيرهما . وقد أراد الهجرة إلى الحبشة مع من هاجر فنعه
من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وقال مثل أبي بكر لا يخرج وجعله في حمايته
فأقام أبو بكر على ذلك زمناً ثم ترك هذه الحماية راضياً بحماية الله سبحانه
وتعالى إذ لا يلقى بالمسلم القوى الإيمان أن يرضى بحماية غير الله جل جلاله .

ولما أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في الهجرة إلى المدينة كان له شرف الصحبة بنص القرآن الشريف قال تعالى في سورة التوبة : إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنته عائشة وسنها إذ ذاك سبع سنوات وبنى بها وهو في المدينة وسنها تسع سنوات . وشهد أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها وكان يحمل رايته العظمى في آخر غزواته وهى عزوة تبوك وأمره عليه السلام أن يحج بالمسلمين في السنة التاسعة ولما مرض عليه الصلاة والسلام أمره أن يصلى بالناس وهذه أعظم إشارة لاستحقاقه بالخلافة من بعده وكان له من الولد عبد الله الذى جرح بالطائف وتوفى فى أول خلافة أبيه وأسماء زوج الزبير ابن العوام وأم عبد الله بن الزبير وله عبد الرحمن وأم المؤمنين عائشة ومحمد الذى ولى مصر فى مدة على بن أبى طالب وقتل بها وأم كلثوم التى ولدت بعد وفاته . وكان رضى الله عنه أبيض خفيف العارضين أحنى لا يتمسك إزاره معروق الوجه ، قليل لحمه ، نحيفاً أفتى غائر العينين يخضب بالحناء والكمم ولما تولى الخلافة كان منزله بالسبخ (وهو محلة خارج المدينة) فكان يأتها كل يوم ماشياً وربما ركب فرسه ثم انتقل إلى المدينة بعياله بعد ستة أشهر من خلافته وترك تجارته التى كان ينفق منها على عياله وقال ما تصلح الناس أمور التجارة وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر فى شأنهم وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وبياله يوماً بيوم وكان يحج ويعتمر ثم فرضت له الأمة شيئاً معلوماً يقوم بكفائته وقدره ستة آلاف درهم سنوياً . ومن ما أثره رضى الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حقه : إن من أمن الناس على فى صحبته أو ماله أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين فى المسجد باباً إلا سد إلا باب أبى بكر ، وجاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه قالت أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول الموت -

قال صلى الله عليه وسلم : إن لم تجدني فأتني أبا بكر ، وحدث أبو الدرداء . قال كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أتى عن ركبتيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما صاحبكم فقد غامر (ألقى بنفسه في الشدة) فسلم وقال يا رسول الله إنه كان بيني وبين ابن خطاب شيء فأمرعت في الحال إليه ثم فدمت فسألته أن يغفر لي فأبى علي فأقبلت إليك فقال يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثاً ثم إن عمر قدم فأتى منزل أبي بكر فسأل أتم أبو بكر ؟ فقالوا لا فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعر . يتغير غيظاً ، حتى أشفق أبو بكر فجنا على ركبتيه فقال يا رسول الله والله أنا كنت أظلم مرتين فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى إليكم فقلت كذبت وقال أبو بكر صدق وواساني بنفسه وماله فهل أتم تاركوك لي صاحبي ؟ مرتين ، فما أودى بعدها .

أعماله في خلافته

أول عمل بدأ به أبو بكر تسيير جيش أسامة بن زيد الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم جهزه إلى أبيه ولم يثنه عن ذلك ما حصل من الاضطرابات في بلاد العرب عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طلب بعض كبار الأنصار على لسان عمر بن الخطاب من أبي بكر أن يولى إمارة الجيش رجلاً أسن من أسامة فغضب أبو بكر حتى قام وقعد وقال يا عمر استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أعزله ؟ ثم خرج رضى الله عنه وشيع الجيش بنفسه ماشياً وأسامة راكب فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال والله ما نزلت ولا ركبت وما على أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله فان للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له وستمائة سيئة تمحى عنه ثم وصاه هو

وأصحابه فقال (لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً
ولا شيخاً كبيراً ولا تعزقوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة
ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعبراً إلا للأكل وإذا مررتم بقوم فرغوا
أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وإذا لقيتم قوماً خصوا
أوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما خصوا
عنه فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله . يا أسامة اصنع ما أمرك
نبي الله ببلاد قضاة ثم أنت قافل ولا تقصر من أمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ثم ودعه من الجرف ورجع (والجرف موضع قرب المدينة)
ورغب أسامة من عمر بن الخطاب التخليف عن هذا البعث والمقام مع
أبي بكر شفقة من أن يدهمه أمر فأذن أبو بكر لعمر في ذلك وسار أسامة
حتى انتهى لما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث الجنود إلى بلاد
قضاة (وكان لبني قضاة ملك ما بين الشام والحجاز إلى العراق في أيلة
وجبال الكرك إلى مشارف الشام واستعملهم الروم على بادية العرب
هنالك وكان أول الملك فيهم في تنوخ منهم ثم غلبهم عليه بنو سليح وكانت
رياستهم في ضجعهم بن معد منهم ثم غلبهم على هذا الملك بنو غسان الذين
الذين جاءوهم من اليمن فصار ملك العرب بالشام لبني جفنة الذين مدحهم
حسان بن ثابت) وأغار أسامة على أبي فسي وغنم ورجع إلى المدينة ظافراً
بعد أن غاب عنها بعد أربعين يوماً وكان إنفاذ هذا الجيش من أعظم الأمور
نفعاً للمسلمين فان العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش .
فكفوا عن كثير مما كانوا عزموا عليه .

أخبار الردة

منى الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصيبة عظيمة لو لم
تداركها حكمة أبي بكر رضى الله عنه لضعف الدين وتشقت شمل المسلمين

فإن العرب ما لبثت بعد أن علمت بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتدت ولم يبق أحد متمسكا بدينه منهم إلا قريشاً بمكة وثقيفاً بالطائف وقليلاً من غيرهم وكان الناس في ذلك على قسمين فمنهم التارك للدين بالمرءة وهم بنو طيء وأسد ومن تبعهم من غطفان الذين اتبعوا طليحة بن خويلد الأسدي وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلة وأهل اليمن الذين اتبعوا الأسود العنسي وكثير غيرهم ومنهم المعطل للزكاة وهم بعض بني تميم الذين يرأسهم مالك بن نويرة وبنو هوازن وغيرهم ، وكان من رأى أبي بكر رضى الله عنه قتال مانعي الزكاة كما يقاتل المرتدون لأن تعطيل الزكاة طعن على الصلاة بل على جميع منازل الدين فقال له عمر بن الخطاب يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ، قال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعليت أنه الحق (رواه البخارى) فشرم رضى الله عنه عن ساعد الجذ غير مبال بهذه الأحوال الجسماء مع قلة جيشه وكثرة عدوه وانقأ بوعده سبحانه وتعالى في قوله : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، وهانحن نسوق لك حروب الردة لتعرف كيف ينجح الإنسان إذا اعتمد على ربه واستسمل المصاعب وليعلم المسلمون كافة فعل خليفته الأول عندما كان المسلمون كالغنم في الليلة الممطرة اقلتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو بفقد نبيهم .

خبر عيس وذيان

أقام أبو بكر ينتظر جيش أسامة فعاجلته عيس وذيان وبنوهم بنجد ، ما بلى وادى القرى وجبل طيء . فنزل بعضهم بالبرق ونزل آخرون بذي

القصة (موضعان شمال المدينة الغربي جهة نجد) واجتمع معهم جماعة من بني أسد ومن انتسب إليهم من كنانة وقد بعثوا وفداً لأبي بكر يطلبون الاقتصار على الصلاة دون الزكاة فأبى أبو بكر وردهم خائبين وخشى على المدينة من البيات فحمل حتى أنقأها علياً وطلحة والزبير وعبد الله بن مسعود وأمر أهل المدينة بلزوم المسجد فلما رجع وفد مانعي الزكاة إلى قومهم أطمعهم في المدينة لقلته من فيها فأغاروا عليها فأرسل من الأنقاب إلى أبي بكر فخرج بالمسلمين على التواضع ، الأبل التي يسقى عليها ، فهرب العدو وتبعهم المسلمون إلى ذى خشب (وادى بقرب المدينة) فخرج عليهم رده للعدو بقرب فقد نفخوها وفيها الحبال ثم ددهوها (دحرجوها) على الأرض فنفرت إبل المسلمين ورجعت بهم إلى المدينة ولم يصرع أحد منهم بفضل الله ثم خرج أبو بكر ليلاً على بقية وبيت الأعداء فلم يشعروا إلا والمسلمون على رءوسهم ولم تطلع الشمس إلا وقد ولوا الأدبار فاتبعهم أبو بكر حتى وصل ذا القصة فترك بها النعمان بن مقرن ورجع إلى المدينة وحينذاك قدم أسامة بن زيد من غزوته فاستخلفه أبو بكر على المدينة وترك معه جنده ليستريحوا وخرج هو قاصداً ذا خشب وذا القصة ثم سار حتى نزل على أهل الربذة فقاتل من هناك من المرتدين وهزمهم ثم غلب على بلاد ذبيان وجعلها حى لدواب المسلمين ثم رجع إلى المدينة حتى إذا استراح جيش أسامة وثاب من حوالى المدينة خرج إلى ذى القصة فمسكرها وعقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً .

تسيير الجيوش إلى أهل الردة

(١) سيف الله خالد بن الوليد ووجهه إلى طليحة بن خويلد الأسدى فاذا فرغ منه فصد مالك بن نويرة بالبطاح (٢) عكرمة بن أبي جهل ووجهه إلى مسيلة باليامة (٣) شرحبيل بن حسنة ووجهه في أثر عكرمة (٤) المهاجر

ابن أبي أمية ووجهه إلى جنود العنسي ومعاونة الأبناء (قوم من الفرس سكنوا اليمن) ثم يمضى إلى كندة (٥) حذيفة بن محصن العطفاني ووجهه إلى أهل دبا (٦) عرجة بن هرثمة ووجهه إلى أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل واحد أمير على صاحبه في عمله (٧) سويد بن مقرن ووجهه إلى تهامة اليمن (٨) العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين (٩) طريفة ابن حاجز ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن (١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاة (١١) خالد بن سعيد بن العاص ووجهه إلى مشارف الشام .

كتاب أبي بكر للأمرء

وكتب للأمرء عهداً هذه صورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله سره وجهه وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمان الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه وأعانته عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسره به ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مرغمة لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانته ومن قاتله

فإن أظهره الله عليه عز وجل قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله إلا الخسر فإنه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم أثلا يكونوا عيوناً وثلاثاً يؤت المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بمعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول .

وكتب إلى المرتدين جميعهم كتاباً صورتها واحدة وهذا نصها :

كتب أبي بكر إلى المرتدين

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه . سلام على من أتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهوى فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله وأومن بما جاء به (أما بعد) فإن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين يهدي الله للحق من أجاب إليه وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه وكان الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (وما جعلنا ابشر من قبلك الخلد أفإن مات فهم الخالدون) وقال للمؤمنين (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن

يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله بالمرصاد حتى قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه بجزبه وإني أوصيكم بتقوى الله وحفظكم ونصيبيكم من الله وما جاء به نبيكم وأن تهتدوا بهديه وأن تعتصموا بدِين الله عز وجل فإن من لم يهده الله ضل وكل من لم يعرفه مبتلى وكل من لم ينصره مخذول فمن هداه الله كان مهدياً ومن أضله كان ضالاً (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقربه ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله عز وجل وجهالة لأمره وإجابة للشيطان وقال جل ثناؤه (وإذا قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً) وقال جل ذكره (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وإني قد أنفذت لكم خالد بن الوليد في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعاناه عليه ومن أبي أن يقاتله على ذلك ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ويسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فن آمن فهو خير له ومن تركه فإن يعجز الله وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان فإن أذن المسلمون فأذنوا كفروا عنهم وإن لم يؤذوا فسألوهم بما عليهم فإن أبوا عاجلوهم وإن أقرؤا قبل منهم وحملهم على ما ينبئهم لهم . وسير هذه الكتب قبل مسير الأمراء ثم خرجت الأمراء معهم العهود كل إلى وجهته والله ناصره .

خبر طليحة

كان طليحة بن خويلد الأسدي رجلاً كاهناً ادعى النبوة في حياة رسول الله عليه وسلم فتبعه أفريق من بني إسرائيل ونزل سميراً من بلاد بني أسد شرقي نجد مما يلي العراق فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرار بن الأزور الأسدي لمقاتلته فسار إليه ولما هم لمناجزته جاءت الأخبار بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستطار أمر طليحة واجتمعت إليه غطفان وهوازن وطيء فرجع ضرار إلى المدينة وحينئذ سير أبو بكر خالد بن الوليد لقتال طليحة ومن معه وكان في جيش خالد عدى بن حاتم الطائي فاستأذن خالداً في أن يتمجل حتى يدعو قومه بني طيء إلى الرجوع لدين الله فسار إليهم ودعاهم فأجابوه لذلك وتركوا طليحة وانضموا إلى جيش المسلمين ودعا عدى أيضاً من مع طليحة من بني جديلة فأجابوه ثم سار خالد حتى التقي بالمرتدين بين أخته فقَاتلهم قتالاً شديداً ولما رأى طليحة أن لا قبل له بالحرب هرب هو وزوجته على فرسين كان قد أعدهما لذلك ولحق بالشام فانهزم جيشه . وقد اسلم طليحة بعد ذلك حينما علم بإسلام بني أسد وغطفان وله ذكر جميل في فتح العراق ثم اجتمعت قبائل غطفان إلى سلمي بنت مالك بن حذيفة بالحواب وكانت سلمي هذه قد سميت في مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقتها أم المؤمنين عائشة وقال لها عليه السلام يوماً وقد دخل عليها وهي في نسوة في بيت عائشة إن إحداكن تستنجح كلاب الحوَاب فكان فعلها هذا مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام (عن ابن خلدون) ولما علم بذلك خالد سار إليها وقَاتل جيشها وهي راكبة على جمل قتل دونه نحو مائة رجل ثم قتلت هي أيضاً فانهزم جيشها .

أما بنو عامر فانهم لما رأوا ما حل بأسد وغطفان أتوا خالداً وقالوا

ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله فقبل منهم وبايعهم على أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويبايعوا على ذلك أبناءهم ونساءهم . ثم طلب من أحدثوا حدثنا في الإسلام فأتى بهم وجزاهم بمثل ما فعلوا . (أما بنو سليم) فقد كان الفجاءة بن عبديا ليل سار إلى أبي بكر وطلب منه المعونة ليقاتل أهل الردة فأعطاه أبو بكر وأمره فلما رجع إلى قومه ارتد وأرسل نجبة بن المثنى ليشن الغارة على المسلمين فسار إليه طريفة بن حجاز أحد أمراء جيوش الردة وقاتله فقتل نجبة وهرب الفجاءة فأدرك وأرسل إلى أبي بكر فقتله ورجعت بنو سليم للإسلام .

خبرة مالك بن نويرة

كان رسول صلى الله عليه وسلم قد أمر على بنى تميم ستة أمراء وهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفى عليه السلام سير الزكاة إلى أبي بكر صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر ومنعها قيس بن عاصم ومالك بن نويرة فقام من بقى على إسلامه في وجه من ارتد ومنع الزكاة وبينما هم على اختلافهم إذ جاتهم امرأة اسمها سبحاح من أرض الجزيرة ثم من بنى تغلب وكانت نصرانية فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ادعت النيوية فتبعها كثير من أوباش العرب فقصدت بهم غزو أبي بكر فلما وصلت بلاد تميم (وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة) أرسلت إلى مالك بن نويرة تطلب موادعته فوادعها وردها عن غزو المدينة وأغراها على المسلمين من تميم ففروا أمامها أما هي فسارت تريد المدينة حتى بلغت النباج (قرية بالبادية) فاعترضها قوم من تميم فخاربوها وأسروا بعض رجالها ثم تجاوزوا على أن تطلق أسراهم ويطلقوا أسراها وترجع فلا تجتاز عليهم فيتمت بذلك من الذهاب إلى المدينة وانقلبت تريد اليمامة . أما بنو

تميم فانهم راجعوا الإسلام وندموا على ما فعلوا إلا مالك بن نويرة فانه ظل متحيراً واجتمع إليه قومه بالبطح فسار إليه خالد بعد أن انتهى من أمر طليحة فلما علم مالك بمسيرة أمر قومه فتفرقوا في المياه فبعث خالد السرايا في أثرهم فأتى بكثير منهم أسرى وبينهم مالك بن نويرة فأمر بقتلهم وتزوج امرأة مالك وقد نقم عليه عمر بن الخطاب قتل مالك وزوج امرأته لأن جماعة شهدوا عنده أن مالكا كان قد راجع الإسلام فطلب من أبي بكر أن يقتصر منه فقال أبو بكر تأول فأخطأ فأرفع لسانك عن خالد فإنه لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين .

خبر مسيلة

كان بنو حنيفة من وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وفيهم مسيلة بن ثمامة أحد بني عدى بن حنيفة فلما ورد المدينة جعل يقول إن جعل لي الأمر من بعده تبعته فأقبل إليه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد النبي صلى الله عليه وسلم قطعة جريد حتى وقف على مسيلة في أصحابه وقال لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها وإن أتعدى أمر الله فيك وإن أبرت ليعقرنك الله وإني لأراك الذي أريت فيك ما أريت وهذا ثابت يجيبك عنى ثم انصرف فسأل ابن عباس أبا هريرة عما رآه النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال بيئنا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحى إلي في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذا بين يخرجان من بعدى فكان أحدهما العنسى صاحب صنعاء والآخر مسيلة صاحب اليمامة (رواه مسلم) فلما رجع مسيلة ومن معه إلى منازلهم (وهي اليمامة بين نجد والبحرين كالحجاز بين نجد وتهامة) ادعى مسيلة النبوة وأنه أشرك مع محمد في الأمر فاتبعه قومه وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله

سلام عليك فإني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض وقريش
نصف الأرض ولكن قریش قوم لا يعدلون . فكتب إليه رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب سلام على من اتبع
الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ،
قال الطبري وذلك بعد منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة
الوداع فلما توفي عليه السلام عقد أبو بكر لواء لعكرمة بن أبي جهل وسيره
لقتال مسيلة وسير على أثره شرحبيل بن حسنة مدداً لة فلم ينتظر عكرمة
مدده حتى يكون اجتماعهما أشد على عدوهما بل تعجل ليكون له الفضل
خاصة فتقدم ولاقى جيش مسيلة فنكب ولما علم بذلك أبو بكر غضب عليه
ونهاه عن العودة إلى المدينة وأمره باللحاق إلى اليمن ليكون مع حذيفة
وعرجة على قتال أهل مهرة فإذا انتهوا ساروا إلى المهاجر بن أبي أمية لقتال
جنود الأسود العنسي . وبعث أبو بكر لخالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى
مسيلة وأمره بجيش كثيف من المهاجرين والأنصار وأرسل إلى شرحبيل
يأمره بانتظار خالد حتى يجتمعا على جنود مسيلة التي تبلغ عدتها أربعين ألفاً
فلما علم مسيلة وبنو حنيفة بدنو خالد خرجوا فعمسكروا في منتهى ريف
اليمامة واستنصروا الناس فنفر إليهم عدد كثير فتقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل
ولما كان على ليلة من معسكر بني حنيفة التقى بسرية منهم راجعة من بلاد
بني تميم وعامر لإدراك نار لهم وعليهم جماعة بن مرارة من سادات بني حنيفة
فأمر بهم خالد فقتلوا إلا جماعة فانه استبقاه لشرفه ثم سار خالد حتى التقى
بجيش المرتدين فتقاتل الفريقان قتالاً شديداً ولم يحى القتال انكشف
المسلمون بأدىء الأمر حتى وصل المريدون إلى فسطاط خالد وأرادوا
أخذ زوجته فتممهم من ذلك جماعة وقال نعم الحرة هي . ثم تداعى
المسلمون وأنزل عليهم سكينته فحمل خالد في الناس حتى رد المشركين
إلى أبعده ما كانوا وتذامر بنو حنيفة وقاتلوا قتالاً شديداً فعلم خالد

أن رحى الحرب تدور على مسيلة فطلبه للبراز فبرز إليه فلما اشتد عليه الأمر أدبر وزال أصحابه فنادى خالد في المسلمين فحملوا حتى هزموا المرتدين شر هزيمة فتحصنوا في بستان لمسيلة كان يسمى حديقة الرحمن فقال البراء بن مالك أحد شجعان الأنصار ألقوني عليهم في الحديقة فألقوه عليهم فقاتل عن الباب حتى فتحه فدخله المسلمون وأكثروا القتل في بني حنيفة حتى قتل مسيلة واشترك في قتله وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب ورجل من الأنصار فانهزم بنو حنيفة وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقال بجاعة لخالد والله ما جاءك إلا سرعان الناس وإن جماهيرهم لفي الحصون فهلم أصالحك على قومي وقد كان خالد التتقط من دون الحصون من نساء وصبيان ومال فقال بجاعة أصالحك على ما دون النفوس وانطلق كأنه يشاورهم فأفرغ السلاح على النساء ووقفهن بالأسوار ثم رجع إليه وقال أبوا أن يجيزوا ذلك فنظر خالد إلى الحصون فوجدتها ممتلئة بالجيوش والمسلمون قد نهكتهم الحرب وقتل من الأنصار ما يزيد على ثلاثمائة وستين من المهاجرين ومن التابعين لهم مثلهم أو يزيدون وقد فتشت الجراحات فيمن بقي فجنح للسلم فصالحه على الصفراء والبيضاء ونصف السبي والسلاح وحائط ومزرعة من كل قرية فأبوا فصالحهم على الربع فصالحوه وفتحت الحصون فلم يجد بها خالد إلا النساء والمستضعفين فقال لبجاعة خدعتني فقال قومي ولم أستطع إلا ما صنعت وبعد هذا الصلح جاءه كتاب من أبي بكر يأمره فيه بقتل كل محتلم فوفى لهم بصلحه ولم يغير ثم أرسل وقدأ منهم لأبى بكر بإسلامهم فلقبهم وسألهم عن أسباع مسيلة فقصوها عليه فقال سبحان الله هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر فأين يذهب بكم عن أحلامكم وردهم إلى قومهم .

خبر البحرين

كانت أرض البحرين مقراً لكثير من قبائل ربيعة منهم عبد القيس ابن أفضى بن دعوى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ومنهم بنو بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى وكان أهل البحرين قد وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وأسلموا فأمر عليهم المنذر بن ساوى فلما توفى عليه السلام توفى عقبه المنذر بن ساوى فارتد أهل البحرين فأما بكر فتمت على ردتها وأما عبد القيس فرأجت الإسلام بهمة الجارود بن المعلى العبدى فإنه جمعهم حينئذ قالوا لو كان محمد نبيا لم يميت فقال لهم أتعلون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فإن محمداً قد مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأسلموا وثبتوا على إسلامهم فاجتمعت ربيعة بالبحرين على الردة إلا الجارود ومن تبعه وخرج الحطيم بن ضبيعة من بكر بن وائل فاجتمع إليه كثير من المشركين والمرتبدين حتى نزل القطيف وهجر وحصر أصحاب الجارود فأرسل أبو بكر العلاء بن الحضرم لأهل البحرين فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفي في مسلة بنى حنيقة وقيس بن عاصم المنقري في قومه وأتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى إذا كانوا في مجبوحتها « وسطها » نزل وأمرهم بالنزول فنفرت إبلهم بأصحابها فغموا لذلك غمأ شديداً فقال لهم العلاء ماذا حل بكم فقالوا كيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحمى الشمس حتى نهلك فقال لن تراعوا أتم المسلمون وفي سبيل الله وأنصار الله فابشروا فوالله لن نخذلوا فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا فلبع الماء فشوا إليه فشربوا واغتسلوا فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تجمع من كل وجه فأناخوها وسقوها ثم أرسل العلاء إلى الجارود يأمره أن ينزل بالحطيم مما يليه وسار وهو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هجر فاجتمع المشركون إلى الحطيم واجتمع المسلمون

إلى العلاء وخندق كل على نفسه وكانوا يتراوحن القتال فإذا أمسوا رجع كل إلى خندقه حتى إذا كانت ليلة سمع المسلمون فيها ضوضاء في عسكر المشركين فأرسل العلاء من يستعلم الخبر فجاء بأنهم سكارى لبيئهم المسلمون شريبات حتى هربوا فمن بين مقتول ومأسور وقتل الحطم ثم قصد فلهم دارين ، جزيرة في الخليج الفارسي قريبة من سواحل البحرين ، فعبر خلفهم المسلمون خوفاً وقتلواهم هناك فظفروا بهم وأكثروا فيهم القتل ثم أرسل العلاء إلى أبي بكر بهذا الفتح المبين .

خبر عمان

لما أسلم أهل عمان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولّى عليهم الأخوين جيفر وعبد ابني الجلندي ، وكان يسامى الجلندي في الجاهلية : ذو الناج لقيط ابن مالك الأزدي من رؤساء عمان فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ادعى لقيط النبوة فتبعه كثير من أهل عمان فخافه ابنا الجلندي فالتجأ إلى الجبال وكاتب جيفر أبا بكر فبعث إليه حذيفة بن عاصم وعرفجة بن هرثمة الأول إلى عمان والثاني إلى مهرة وكل منهما أمير على صاحبه في عمله فإذا قاربا عمان كاتبها جيفرا وأرسل في أثرهما عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته في البيامة فلحقهما قبل أن يوصلا عمان فلما قاربوها كاتبوا جيفراً فأتاهم وعسكروا بصحار (عاصمة عمان) أما لقيط فإنه جمع جموعه وعسكر بدبا فالتقى الفريقان واقتتلا قتالاً شديداً كاد المسلمون يتهزمون فيه لولا أن من الله عليهم بمدد عظيم من بني ناجية فاستظهروا بهم وهزموا المشركين بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم سبوا الذرية وقسموا الغنيمة وبعثوا إلى أبي بكر بالخمس مع عرفجة وأقام حذيفة بعمان يسكن الناس أما عكرمة فسار ومعه جمع من بني ناجية إلى مهرة ولما وصلها وجد أهلها قسمين مختلفين كل قسم رئيس فكتب

رئيس أحد القسمين فأجابه وراجع الإسلام ولم يجب الآخر فقاتله حتى هزمه .

أخبار الأسود

لما فتحت اليمن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى عليها باذان الفارسي الذي كان عاملا للأكامرة على اليمن ثم دان بالإسلام وكان مركزه صنعاء فلما مات قسم عليه السلام عمله فولى على صنعاء ابنه شهر بن باذان وعلى مأرب أبا موسى الأشعري . وعلى همدان - وكانوا يقيمون شرقي اليمن - عامر بن شهر الهمداني وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبي هالة و بنو عك كانوا يقيمون بين زيد ورمع ، وعك هو ابن عدنان والأشعريون كانوا يقيمون شمالي زيبه وينسبون إلى أشعر بن أدد بن زيد ابن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، وعلى ما بين نجران ورمع وزيد خالد بن سعيد بن العاص وعلى نجران عمرو بن حزم وعلى حضرموت زياد ابن لييد البياضي وعلى السكاسك والسكون وهما قبيلتان من كندة كانا شمالي حضرموت ، عكاشة بن ثور وعلى بن معاوية من كندة المهاجر بن أبي أمية أخا أم المؤمنين أم سلمة ولم يذهب إلى عمله حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لمرض كان به وكان زياد بن لييد يقوم بعمله وعلى الجند يعلى ابن أمية وكان معاذ بن جبل معلما ينتقل في كل بلد فقبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ناز باليمن رجل من عنس اسمه عهله ولقبه ذو الخزار وشهرته الأسود فادعى للنبوة فأجابته مذحج ووثبوا على نجران فأخرجوا منها عاملها عمرو بن حزم وأخرجوا عمرو بن سعيد بن العاص فلاحقا بالمدينة ثم توجه الأسود في سبعمائة من قومه إلى صنعاء فقتل شهر بن باذان واستولى على المدينة وتزوج امرأة شهر ثم استولى على ما بين صنعاء وحضرموت من الجنوب إلى أعمال الطائف من الشمال إلى البحرين من الشرق واستفحل

أمره نخرج معاذ بن جبل هارباً ومر بأبي موسى وهو بمأرب نخرج معه ولحقا
بمضرموت فنزل معاذ في قبيلة السكاسك ونزل أبو موسى في قبيلة السكون
وأقام الطاهر بن أبي هالة ببلاد عك فلما بلغ خبر ذلك إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم أرسل إلى من باليمن من الأنبياء وأبي موسى ومعاذ والطاهر
أن يقوموا بقتال الأسود وقتله إما غيلة أو مصادمة فقام بذلك من الأبناء
فيروز وداذويه واهتموا بقتله وساعدتهم زوجته التي كانت تحت شهر ابن
بازان فقتلوه ليلاً ، قتله فيروز فلما أصبح الصبح نادوا بشعائر المسلمين وهو
الأذان فاج الناس بعضهم في بعض واختطف بعض أصحاب الأسود صبياناً
من أبناء المسلمين وخرجوا من المدينة تاركين فيها كثيراً من صبيانهم ثم
تراسل الفريقان في أن يرد كل ما بيده وأقام أصحاب الأسود يترددون بين
صنعاء وعدن لا يأتون إلى حد وتراجع عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى أعمالهم واتفقوا على أن يصلى معاذ بالناس في صنعاء لقتل عاملها شهر
حتى يأتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثوا إلى المدينة بالخبر فوصل
البريد وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت هذه أول بشارة أتت
أبا بكر فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس بن عبد يغوث وكاتب المنزمين من
جنود الأسود فاجتمعوا إليه وأراد أن يتحيل في قتل كبار الأبناء وهم
فيروز وداذويه وخشنش فهبأ لهم طعاماً وجمعهم ليغدر بهم فظفر بداذويه
ونجا الآخرون نخرج في أثرهما فامتنعا بقبيلة خولان فرجع قيس إلى صنعاء
فاستأثر بها وعمد إلى عيالات الأبناء فغربهم وأخرجهم من اليمن في البر
والبحر وعرضهم للنهي فلما علم بذلك فيروز هم بحربه واستعد بنو عقيل ابن
زبيعة وعك فساروا إليه واستخلصوا عيالات الأبناء التي سيرها قيس
وقتلوا من معها من الرجال ثم توجهوا إلى فيروز فقاتل بهم قيساً ورجاله
حتى هزموهم وحينئذ أتاهم المهاجر بن أبي أمية الذي عقد له أبو بكر لواء
رسيره لقتال جنود الأسود ومعاوية الأبناء وجاء على أثره عكرمة بن أبي جهل

بعد أن انتهى من عمان ومهرة فساعدوا الأبناء على قتال جنود قيس بن عبد
يفوثة حتى انهزموا وأسروا قيساً وعمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي كان
ارتد وتبع الأسود فسيراها إلى أبي بكر فقال أبو بكر يا قيس قتلت عباد الله
واتخذت المرتدين وليجة من دون المؤمنين فأناكر قيس أن يكون قارف من
أمر داؤبه شيئاً ولم يكن هناك دليل ظاهر على قتله لأن القتل كان خلسة
فنجاني عن دمه وقال لعمر بن معد يكرب أما تستحي أنك كل مهزوم
أو مأسور لو نصرت هذا الدين لرفعك الله فقال لا جرم لأقبلن ولا أعود
ورجعا إلى عشائرها مؤمنين ثم تتبع المهاجر بن أبي أمية بقية جنود الأسود
بكل مكان وقتلهم بكل سبيل حتى لم تعد لهم قائمة وكانت مدة الأسود إلى أن
هلك قريباً من أربعة أشهر .

أخبار كندة

كانت كندة قد ارتدت في عهد الأسود بسبب ما وقع بينهم وبين ريادة
في أمر فريضة من فرائض الصدقة أطلقها بعض بني عمرو بن معاوية من
كندة بعد أن وقع عليهم ميسم الصدقة غلطاً فقاتلهم زياد وهزمهم فاتفق
بنو معاوية من كندة على منع الصدقة إلا شرحبيل بن السمط وابنه فانهما
قالا لبني معاوية إنه لقبيح بالأحرار التنقل إن الكرام ليلزمون الشبهة
فيتكرمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار فكيف الانتقال من الأمر
الحسن الجليل والحق إلى الباطل القبيح اللهم إنا لانمالي قومنا على ذلك
وانتقلا ونزلا مع زياد وقالوا له بيت القوم فإن لم تفعل خشينا أن يتفرق
القوم عنا فطرقهم في محاجرهم فأصاب ملوكهم فقتلهم وهرب من قومهم من
أطالق الحرب وعاد المسلمون بالغنائم والسبي فمروا على بني الحارث بن معاوية
في محاجرهم وفيهم الأشعث بن قيس فزله واستخلص السبي منهم فكتب
زياد إن المهاجر يستحثه فاستخلف على جنده عكرمة وتعجل هو في سرعان

الناس وقدم على زياد فالتقوا بالأعداء فانهزم بنو الحارث وتحصنوا بالنجير وهو حصن لهم ، فحصرهم المسلمون ولما اشتد عليهم الحصار خرجوا فقاتلوا قتالاً لم يفتنهم شيئاً فعادوا إلى الحصن ثم أرسل الأشعث في طلب الصلح على تسليم الحصن بمن فيه مشروطاً بالأمان لتسعة نفر من الرؤساء وكتب بذلك كتاباً ولكنه نسي نفسه فدخل المسلمون الحصن وقتلوا المقاتلة وسبوا وغنموا ثم عرضوا من أمنوا فإذا الأشعث ليس فيهم فأراد المهاجر قتله ولكن أشار عليه أصحابه أن يرسله إلى أبي بكر ليرى فيه رأيه فأرسله إليه فمعا عنه أبو بكر رضى الله عنه وهو من أبلى بلاء حسناً في فتح العراق .

وإلى هنا انتهت أخبار أهل الردة ومنها يفهم المسلمون الذين يريدون الاقتداء بسلفهم الصالح أن المؤمن لا ينبغي أن يهن مهما كثرت أهداؤه لأن المسلمين لا يغلبون من قلة ولا يخذلون إلا من اتباعهم الهوى وحيادهم عن الصراط السوى . هذا أبو بكر أول خليفة للمسلمين كان العرب كلهم أهداه فصار هو ومن معه كالشعرة البيضاء في الثور الأدهم فلم يعقه ذلك عن إعزاز دين الله وقاتله من كفر بالله بمن معه من المسلمين بل وثق بوعد الله حيث قال ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ فجأزه الله على ذلك بالنصر العظيم والفتح المبين ودانت له أمم العرب ، فمكثوا يكون الإسلام والإيمان .

تلك المكارم لاقعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبو الال

أمر العراق

لما انتهى أبو بكر رضى الله عنه من حروب أهل الردة جمع العرب كلها للإسلام وألف الله الكلمة وجه همته لتعميم عدل الإسلام ومساواته بين الأمم الأخرى التي كان ملوكها يعقتدون في أنفسهم أنهم أرقى درجة

من رعيتهم فتصورهم عبيدا لهم ليس لهم في أنفسهم شيء فيسومونهم الخسف
ويعاملونهم بالجور والظلم وكانت الممالك العظمى المجاورة للإسلام إذ ذاك
مملكة الفرس في الشرق ومملكة الروم في الشمال فابتدأ بأمر الفرس وأول
ما حصل بين المسلمين وبين هذه الدولة العظمى كتاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم إلى كسرى ابرويز يدعو فيه إلى الإسلام فزقه كسرى استكباراً
وهذا يدل على مقدار الجبروت والكبرياء الذين كانوا شعاراً للبلوك إذ ذاك
وجاء الدين الحنيفي يهدمها وبلغ من استعظام ابرويز لهذا الكتاب أن أرسل
لعامله باذان على اليمن أن يبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين
جلدين يأتيان به فتوجها كما أمر فلما وصل الرجلان إلى المدينة كلمهما رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقال لهما في هذا اليوم قتل ابرويز قتله إبنه وكان
الأمر كما أخبر عليه السلام فإن ابنه شيرويه ثار به بمساعدة كبار الفرس
فقتله واستولى على ملك فارس فلما علم الرجلان صدق رسول الله صلى الله
عليه وسلم أسلما وبعث شيرويه إلى باذان أن لا يتعرض للنبي عليه الصلاة
والسلام وفي عهده عليه السلام فتحت اليمن وأسلم باذان فولاه عليه السلام
عليها فكانت أول بلاد تحت حماية الفرس انضمت للإسلام ثم انضم إليه
أيضاً البحرين وعمان وكاتتا تحت حماية الفرس أيضاً فلما توفي رسول الله
صلى الله عليه وسلم وانتهى أبو بكر من حروب أهل الردة انتدب سيف الله
خالد بن الوليد ليكون أول من يضع أساس الدين القويم بالبلاد الفارسية
وذلك في بدء المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة وأمره أن يبدأ
بالأبلة ، ثغر من ثغور الفرس على الخليج الفارسي عند مصب دجلة ، وأمه
بالقعقاع بن عمرو وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من شمال العراق
وأمره أن يبدأ بالمضيح ، قرية على الفرات شمال العراق ، وأمه بعبد يغوث
الخيبري وأمرهما أن يستنزها من قاتل أهل الردة وأن لا يغزون معهما مرتد
لأن رأيه رضى الله عنه كان لا يستعان بمن ارتد على غزو أبدا .

وقعة الأبله

فسار خالد بن الوليد حتى قارب الأبله فقسم جيشه ثلاث فرق على الأولى المثني بن حارثة الشيباني وعلى الثانية عدى بن حاتم الطائي وجعل والثالثة تحت إمرته وسير الفريقيين قبله وواعدهما الحفير ، موضع على طريق السائر من مكة إلى البصرة وهو قريب من الأبله ، وكان صاحب هذا الثغر عظيماً من عظماء الفرس اسمه هرمز وكان مبعوضاً عند العرب لكثرة فزوه لهم فكلهم ناقم عليه ولما سمع بخبر خالد وأنه وعد طلائمه الحفير سبقه إليه فقال خالد بالناس إلى كاظمة فسبقه هرمز إليهما فنزل جيش المسلمين غير ماء فقال خالد جالدهم على الماء فإن أبقه جاعله لأصبر الفريقيين وتقدم هو وسط الصف يطلب البراز راجلاً فبرز إليه هرمز ونزل عن فرسه فأحتضنه خالد فلما رأى ذلك الفرس أرادوا الغدر بخالد وهجموا عليه فلم يمنع ذلك عن قتله ولما رأى ذلك القمعاق حمل بجيش المسلمين فأزال الفرس عن خالد وحى القتال فانهزم المشركون وهذه أولى موقعة بين المسلمين والفرس ثم أرسل خالد البشارة وخمس الغنيمة إلى أبي بكر بعد أن قسم أربعة أخماسها على المقاتلين للرجال ثلث الفارس وأرسل المثني بن حارثة في أثر المنهزمين ولم يتعرضوا للفلاحين بأذى كما أوصاهم بذلك أبو بكر ولما وصل خبر هذه الهزيمة إلى ملك الفرس واسمه أزدشير ومقامه بالمداين ، وهي مدائن كانت للأكاسرة على نهر الدجلة جنوبي بغداد وهي شرقية وغربية وكان في الشرقية إيوان كسرى الشهير ، أرسل إلى المسلمين جيشاً آخر يقوده عظيم من عظماء الفرس اسمه قارن فجمع المنهزمين ورجع بهم حتى وصل إلى منعطف النهر قرب البصرة ،

وقعة النقي

فنزله فسار إليه خالد ولما التقى الجيشان خرج قارن يطلب البراز ليدرك ثأر هرمرز فبرز إليه فارس مسلم فقتله وعندئذ حمل جمع المسلمين على جمع المشركين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة سوى من غرق منهم في النهر ثم أخذ خالد الجزية من الفلاحين وصيرهم ذمة وأرسل بالفتح والخمس إلى أبي بكر (أما) ملك الفرس فإنه سير إلى المسلمين جيشاً آخر يقوده الأندر زعز وفي أثره آخر يقوده جاذويه فمسكر الجيشان كلاهما في الوجلة .

وقعة الوجلة

فسار خالد إليهما وقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً حتى هزم عسكر المشركين ومات القائد الأندر زعز في هزيمته وأصاب خالد أبناء من بكر ابن وائل فقتلهم فغضب لهم قومهم من نصارى بكر فاجتمعوا بالليس وكتبوا ملك الفرس ليدعم بجيش يساعدهم على قتال المسلمين فكتب أزدشير إلى بهمن جاذويه المنهزم من الوجلة يأمره بأن يسير إلى نصارى بكر ليكون معهم على قتال المسلمين فلما جاءت الرسالة سير أمامه جابان وذهب هو إلى أزدشير ليعلم الأخبار ويستشير به فوجده مريضاً فتوقف هناك .

وقعة الليس

وأما جابان فإنه وصل إلى جيش البكرين وعسكر معهم بالليس . موضع على الفرات من قرى الأنبار ، فأقبل إليهم خالد بكتيبة وتوسط الميدان طالباً البراز فبرز إليه رئيس من رؤساء بكر فقتله ثم حمل المسلمون على الإعاجم فثبت هؤلاء كثيراً لترقهم قدوم بهمن وثبت المسلمون لتكون

كلمة الله هي العليا فما كان إلا ضحوة نهار حتى ولى الفرس الأدبار بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة فقسم خالد الغنائم وأرسل بالفتح والخمس إلى أبي بكر وكانت هذه الموقعة في صفر من السنة الثامنة عشرة .

فتح الحيرة

(ثم) سار قاصداً الحيرة ، هي عاصمة ملوك العرب من قبل الفرس وهي غربي الفرات على قرب من الكوفة ، وكان خالد يسير بحراً في الفرات فخرج إليه مرزبان الحيرة وهو الأزازبة وعسكر بظاهرها وأرسل ابنه فقطع الماء عن سفن المسلمين فبقيت على الأرض (وكانوا يقطعون الماء عن الفرات بإرساله في الترغ المنفرعة منه) فسار خالد على خيل نحو بن الأزازبة فقتله على فرات بادقلى ثم سار نحو الحيرة فهرب مرزبانها الأزازبة فحاصر خالد قصورها وهي القصر الأبيض وقصر الغريين وقصر بن مازن وقصر بن ببيعة ودعا أمراءها إلى الإسلام وأجلهم يوماً وليلة فابوا وافتتح المسلمون الديور فصاح القسيسون والرهبان بأهل القصور يطلبون منهم مصالحة المسلمين فتأدى أمراء القصور قد قبلنا واحدة من ثلاث الإسلام أو الجزية أو المحاربة فكف عنهم المسلمون ثم جاء الأمراء إلى خالد يتقدمهم ويتكلم عنهم عمر بن عبد المسيح فقال له خالد أسلم أنت أم حرب قال بل سلم فقال خالد ما هذه القصور قال بنيناها للسفيه نحسه فيها حتى ينهأ الحليم فصالحهم خالد على الجزية وقدرت بمائة ألف وتسعين ألفاً وأهدوا له هدايا على عاداتهم مع ملوك الفرس فأرسل خالد بالفتح والهدايا إلى أبي بكر فقبل الهدايا وعدها من الجزية وأمر خالد أن يعدها منها ، فمكثا الدين دين الإسلام لم يرض خليفتنا الأول أن يأخذ شيئاً كانت الرعية تدفعه بالوكها دلاطفة بل لا يؤخذ منهم إلا ما فرض عليهم .

ما بعد الحيرة

(فلما) رأى دهاقين ما بعد الحيرة فعل خالد صالحوه على ما يلي :
الحيرة من الفيلاييج إلى هر مزجرد على ألف ألف سوى جباية كسرى ثم
أرسل خالد أمراه ففخروا ما وراء ذلك إلى شاطيء دجلة ثم كتب إلى
ملوك الفرس كتاباً هذه صورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد (فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن
كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم تفعل ذلك كان شرأ لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم
وأرضكم ونجزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأتم كارهون على أيدي قوم
يحبون الموت كما تحبون الحياة) وكتب إلى المرابذة كتاباً هذه صورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد (فالحمد لله الذي فض حدتكم
وفرق كلمتكم وجفل حرمكم وكسر شوكتكم فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا
في الزمة وأدوا الجزية وإلا فقد جنتكم قوم يحبون الموت كما تحبون شرب
الخنز) وفي ذلك الوقت دهم الفرس أمر عظيم لا يزيدهم إلا وهناً ولا يزيد
المسلمين إلا قوة وهو اختلافاتهم الداخلية بعد موت ملكهم ازدشير
وعدم وجود من يولى من بيت كسرى فلما وصلتهم كتب خالد اتفق نساء
كسرى على تولية أحد أمراء فارس وهو الفرخزاد بن البنذوان حتى
يعثروا على صالح للملك من بيت كسرى .

فتح الأنبار

أما خالد فإنه سار من الحيرة قاصداً الأنبار (مدينة على شاطيء الفرات
شمال الكوفة) وكان على جيشها شير زاد صاحب سبابط فأنشب معهم

المسلمون القتال ولما رأى شيرزاد ما لا قبل له به طلب الصلح على أمر لم يرضه خالد فرد رسوله ونحر الضعاف من إبل الجيش ورماها في خندق المشركين وعدى إليهم فلما رأى ذلك شيرزاد صالح خالد أ على ما أراد فقبل منه خالد وسيره إلى مأمته فلاحق بهممن .

فتح عين التمر

ثم سافر خالد قاصدا عين التمر (بلد في بركة العراق على ثلاثة مراحل من الأنبار) بعد أن استخلف عن الأنبار الزبرقان بن بدر فوصل إلى عين التمر وبها جمع عظيم من الفرس عليهم بهرام بن بهرام جوبين ومعهم عدد عظيم من العرب من التمر وتغلب الذين يقيمون بتملك الجمعات تحت حكم الأ كاسرة فجعل الفرس في المقدمة العرب لأنهم أدرى بقتال العرب فحمل خالد على رئيسهم وهو يسوى صفوفه فأسره فانهزم قومه من غير قتال ولما رأى ذلك بهرام هرب هو وجيشه أيضاً وترك الحصن فتحصن به المنهزمون واستأنموا لخالد فلم يؤمنهم ثم بعث بالخنس والبشارة إلى أبي بكر .

فتح دومة الجندل

ثم سار من عين التمر قاصدا دومة الجندل^(١) ليعين عياض ابن غنم على فتحها وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد أرسل خالد بن الوليد إلى دومة الجندل في حياته وكان بها أكيدر بن عبد الملك فأصابه خالد في ليلة مقمرة فأسره وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فختم دمه وصالحه على الجزية وردّه إلى قريته فلما كان في عهد أبي بكر أرسل عياض

(١) يرى ياقوت أن دومة الجندل هذه ليست هي التي فتحت زمن النبي صلى

الله عليه وسلم وإنما هي دومة أخرى أسماها أكيدر هاشما .

ابن غنم لفتح العراق من أعلاه فاجتمع عليه وهو بناحية دومة الجندل كثير من نصارى العرب فأرسل إليه خالد بن الوليد كتاباً يستحثه فيه لمساعدته فصادفه الكتاب وهو بعين التمر فأقبل حتى جعل دومة بينه وبين عياض نخرج الجودي الذي كان يشارك أ كيدرا في إمارة دومة إلى حرب خالد وأرسل فرقة تقاتل عياضاً فهزم كل من القائدين من يليه وفتح الحصن عنوة وأقام به خالد . أما أ كيدر فإنه قد فارق الجودي لأنه لم يتبع ما أشار عليه به من عدم قتال خالد فأرسل خالد وراه من قبض عليه وقتله لأنه كان نقض ما عاهد عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من إعطاء الجزية .

وقعة الحصيد والخنافس

أما عرب الجزيرة فإنهم ثارت حميتهم لمن قتل من العرب بعين التمر فكاتبوا الفرس يطلبون منهم لإرسال الجيوش لتسكون لهم عونا نخرج من الفرس عظيمان يريدان الأنبار وانتهيا إلى الحصيد والخنافس (موضعان قرب الأنبار) فسمع بالخبر القعقاع خليفة خالد على الحيرة فأرسل إليهما سريتين حالتا بينهما وبين الريف ثم قدم خالد راجعاً إلى الحيرة عند ما بلغه الخبر فسير القعقاع وأبا ليلى بن فدك إلى لقاء جمع الفرس فساروا حتى التقيا بهم فقتل من الفرس مقتلة عظيمة وقتل القائدان وغنم المسلمون ما في الحصيد وانهزمت الأعاجم إلى الخنافس وبها المهبودان من الأساورة فسار أبو ليلى مقتنياً آثارهم حتى هزم المهبودان إلى المضيق وكان به بعض عرب الجزيرة فكتب خالد إلى القعقاع وأبي ليلى أن يوافياه على المضيق في ساعة عينها لهما لقتال من به من عرب الجزيرة ووافاهما هو في جيشه فلقاتها وقاتلوا العرب وهزمهم شر هزيمة ثم توجه خالد إلى بحير التغلبي وهو مجتمع في جيشه بالثني فبيتهم خالد بغارة شمواء حتى لم يفلت منهم أحداً (ثم) أرسل بالفتح والأخماس إلى أبي بكر .

وقعة الفراض

وسار إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة وكان الحر شديداً والشهر رمضان من السنة الثانية عشرة فافطر بها هو والمسلمون وكان بها جمع عظيم من الفرس والروم والعرب اتفقوا جميعاً على حرب المسلمين وعبروا نهر الفرات فقاتلهم خالد وقاتل المشركون قتالاً شديداً لكنهم لم يلبثوا أن انهزموا ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ ثم أمر خالد بالرجوع إلى الحيرة وتخلف هو مظهراً أنه في الساقطة ويقال إنه توجه إلى مكة فحج ولحق ساقطة الجيش قبل أن تدخل الحيرة وهذا غريب جداً لبعد المسافة .

صرف خالد إلى الشام

وفي ذلك الوقت صرف أبو بكر خالد بن الوليد عن حرب العراق وسيره إلى الشام مدداً لجيوش المسلمين هناك فاستخلف على جيش العراق المثنى بن حارثة الشيباني فأقام بالحيرة وأذكى العيون ووضع المساحة وكان ملك فارس بعد رحيل خالد شهريران بن أزدشير فوجه إلى المثنى جيشاً عظيماً يقوده هرمز .

وقعة بابل

نفرج إليه المثنى من الحيرة حتى أتى بابل (بلدة قديمة شرقي الفرات أمامها مدينة الحلة الآن) فأقام بها وهناك لاقاه هرمز في جيش الفرس فقاتله جيش المسلمين قتالاً شديداً حتى هزم وبعده هذه الهزيمة مات شهريران وكثرت الاختلافات الداخلية في مملكة الفرس فشغلوا عن المسلمين وأبطأ خبر أبي بكر على المثنى فاستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية وتوجه

إلى المدينة ليستأذن أبا بكر في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين فوجده مريضاً فاستحضر أبو بكر عمر بن الخطاب وقال له إني لأرجو أن أموت يومى هذا فإذا مت فلا تمسني حتى تندب الناس مع المشي ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم فقد رأيتني وقت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعتها وما أصيب الخلق بمثله وإذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى عراقهم فإنهم أهل وولادة أمره وأهل الجرأة عليهم ، هذا ما انتهى إليه أمر فارس في عهد الصديق رضى الله عنه تقلص ظل ملك الفرس عن كل الأراضى الخصبة التى فى غربى الفرات وهو ما يعبر عنه بريف العراق فصار حد مملكة فارس هو نهر الفرات .

بده أمر الروم

مملكة الروم هى المملكة الثانية العظمى التى كانت تحده البلاد العربية من الشمال وأول ما كان بينها وبين المسلمين كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم يدعو فيه إلى الإسلام (والكتاب وحديث أب سفيان عنه مذكوران فى كتابى نور اليقين صفحة ٢١١ وما بعدها من الطبعة الثانية) ثم كتب صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام وعامل قيصر على العرب يدعو إلى الإسلام فأدرسته العزة بالإثم فأراد أن يغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتاه أمر من قيصر ينهيه عن ذلك . وفى السنة الثامنة من الهجرة جهز عليه السلام جيشاً إلى الشام تحت إمرة زيد بن حارثة وهى غزوة مؤتة فجمع لهم الروم جمعاً كثيراً مائة ألف أو يزيدون فاستشهد زيد وجعفر ابن أبى طالب وعبد الله بن رواحة واستلم سيف الله خالد إمرة الجيش نخلصه من الهلاك . والكتاب فى هذه الغزوة مستوفى فى نور اليقين ؛ وفى

السنة التاسعة تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزو الروم فبلغ تبوك وأتاه صاحب أيلة يوحنا بن روبة وصاحب جرباء وأذرح وأعطوا الجزية فلما بلغ هرقل ما فعله يوحنا أمر بقتله وصلبه عند قريته . وفي السنة التي توفي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم جهز سرية تحت إمرة أسامة ابن زيد بن حارثة لتوجه إلى أبي وقضاعة للقصاص من قتلة أبيه فتوفي عليه السلام ولم يخرج أسامة فلما استخلف أبو بكر جهز السرية فسار أسامة حتى وصل أبي وأوقع بقبائل من قضاعة ثم رجع فائزاً : فلما عقد أبو بكر الألوية في ذي القعدة عقد منها لواء خالد بن سعيد بن العاص ووجهه إلى مشارف الشام ثم أمره أن يكون ردها للمسلمين بقيام لا يفارقها إلا بأمره ولا يقاتل إلا من قاتله فبلغ خبره هرقل ملك الروم فجهز إليه جيشاً من العرب التابعين للروم من بهراء وسليح وكتب ولخم وجذام وغسان فسار إليهم خالد بن سعيد فلقبهم على منازلهم فافترقوا وأرسل هو لأبي بكر بالخبر فكتب إليه يأمره بالإقدام فتقدم ولقيه بطريق روى اسمه ماهان فمزمه خالد وكتب إلى أبي بكر يستمه فعند ذلك اهتم رضى الله عنه بأمر الشام وكان قد ورد إليه أوائل مستنفرى الين وقدم عكرمة بن أبي جهل فيمن معه من تهامة والبحرين وأرسل إلى عمرو بن العاص وكان والياً على صدقات سعد وهذيم من قضاعة كان أبو بكر سيره إليها يوم عقد الألوية في ذي القعدة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعده ولايتها فكتب إليه أبو بكر (إني كنت رددتك إلى العمل الذى ولاك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ووعدتك به أخرى إنجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وليته وقد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك) فكتب إليه عمرو (إني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد رسول الله الزامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاه وأفضلها فارم به) فأمره فقدم عليه فجهز أبو بكر أربعة جيوش

على أحدها عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين (كورة بالشام في جنوبه)
وعلى ثانيهما شريحيل بن حسنة وكان قدم عليه من العراق ووجهه إلى
الأردن (كورة بالشام سميت باسم نهر هناك يبتدى من بحيرة طبرية
ويتهى بالبحيرة الميتة) وعلى الثالث يزيد بن أبي سفيان ووجهه إلى البلقاء
(بلد بالشام وأتبعه بأخيه معاوية وعلى الرابع أمين هذه الأمة أبو عبيدة
عامر بن الجراح ووجهه إلى حمص فسارت الأمراء على بركة الله وكان
أبو بكر يودعهم ماشياً ويوصيهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم . وما يؤثر
عنه رضى الله عنه وصيته العظيمة ليزيد وقد أحببت إيرادها برمتها لما فيها من
النصائح التي يلزم كل أمير جيش اتباعها وهاهي : إني قد وليتك لأبلوك وأجربك
وأخرجك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك فعليك
بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل ما يرى من ظاهره وإن أولى الناس بالله
أشدهم تواباً له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله وقد وليتك عمل خالد
(هو ابن سعيد بن العاص الذي كان أبو بكر سيره إلى الشام أولاً) فإياك
وعيبة الجاهلية فإن الله يبعثها ويبغض أهلها وإذا قدمت على جندك فأحسن
صحبتهم وابدأهم بالخير وعدم إياه وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام
ينسى بعضه بعضاً وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلاة لأوقاتها
بانمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم
وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون ولا تريمهم فبروا خلك
ويعلموا علمك وأنزلهم في ثروة عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم وكن
أنت المتولى للكلامهم ولا تجعل شرك كعلائنتك فيختلط أمرك وإذا
استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ولا تخزن عن المشير تنبرك
فتؤنى من قلبك وأسر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك
الاستار وأكثر حرسك وبدد هم في عسكرك وأكثر مفاجأتهم في محاربتهم
بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير

إفراط وأعقب يذنبهم بالليل والنهار واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فانها أيسرهما لقربها من النهار ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلحن فيها ولا تسرع إليها ولا تخذلها مدفعاً ولا تغفل عن أهل عسكريك فتفسده ولا تجسس عليهم فتفضحهم ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلايتهم ولا تجالس العبائين وجالس أهل الصدق والوفاء وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصرامع فدعروهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولم تزل الجيوش سائرة حتى وصلت الشام فنزل عمرو بن العاص العربية من فلسطين ونزل شرحبيل الأردن ونزل يزيد البلقاء ونزل أبو عبيدة الجابية فلما بلغ ذلك هرقل ملك الروم قال لقومه أرى أن تصالحوا المسلمين فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يقلبوكم على بلاد الشام ونصف بلاد الروم فرفضوا رايه حتى نزل حمص مدينة شامية في الشرق من نهر العاصي وعلى بعد قليل منه ، وأمر بجميع الجيوش فاجتمع من الروم عدد عظيم فوجه لكل أمير جيشاً يفوق عدة من معه فأشار عمرو بن العاص على الأمراء بالاجتماع فأرسلوا إلى أبي بكر في ذلك فأشار عليهم بمثل رأى عمرو وقال : إن مثلكم لا يؤتى من قله وإنما يؤتون من الذنوب فاحترسوا منها .

وقعة اليرموك

فاجتمعوا باليرموك (وهو واد في الجنوب الشرقي من الشام) وكل واحد من الأمراء أمير على جيشه والروم أمامهم وبين الفريقين خندق فكان الروم يقاوتون باختيارهم وإن شاموا احتجزوا بخنادقهم وأقام الفريقان على ذلك صفرأ والربيعين من السنة الثالثة عشرة من الهجرة فأرسل الأمراء إلى أبي بكر يستمدونه فكتب إلى خالد بن الوليد أمير جند

العراق يأمره أن يستخلف على جنده بعد أن يأخذ معه نصفه ويتوجه إلى الشام مدداً لأمرائه فسار خالد ينسف الأرض نسفاً حتى وصل إلى المسلمين في ربيع الآخر وصادف وصوله ووصول ماهان بجيش مددا للروم فتولى خالد قتاله وقاتل كل أمير من يازائه متساندين فرأى خالد أن هذا القتال لا يجدى نفعاً ما دامت كل فرقة من الجيش لها أمير فجمع الأمراء وخطبهم وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه البغي ولا الفخر اخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون فان هذا لا يحل ولا ينبغي وإن من ورائكم من لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا بما لم تؤمروا فيه بما ترون أنه رأى من وإليكم ومحبتة) قالوا هات فما رأى فإشار بأن يؤمر على الجيش كله أمير واحد ويتناوبوا الإمارة حتى يؤمر هو في اليوم الأول فقبلوا مشورته وأمره فخرج رضى الله عنه في تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك وليس تعبئة أكثر في رأى العين من الكراديس (الفرق) فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وأقام فيها عمراو شر حبيلا وجعل الميسرة كراديس وأقام فيها يزيد وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان وكان عدد الكراديس ستة وثلاثين كل كردوس ألف رجل ثم أمر القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل أن ينشبا القتال فأنشبا والنعم الناس وتطارد الفرسان وأظهر خالد عجائب الشجاعة والحمية الإسلامية ثم إن الروم حملوا حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم فنهض خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين ورجلهم فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة فأفرج لهم المسلمون واشتدوا على الرجالة فهزمهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا لا سيما أناسا منهم قد أقتروا في السلاسل لثلا يفروا وقاتل نساء المسلمين في ذلك اليوم قتالا شديدا وأبلين بلاه حسنا وعن أبي في ذلك اليوم بلاه حسنا أبو سفيان بن حرب بسعيه ونجريضة

وانتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم شر هزيمة وفي أثناءها جاء بريد المدينة بموت الصديق وخلافة عمر بن الخطاب وتولية أبي عبيدة رئاسة الجيوش فلم يبلغ هذا الخبر الجيش إلا بعد أن انقضت الموقعة .

وفاة الصديق

اسبغ خلون من جهادى الآخرة سنة ثلاث عشرة حم أبو بكر فلما اشتد عليه المرض جمع كبار الصحابة فاستشارهم في العهد لعمر بن الخطاب فكلهم قال خيرا فدعا عثمان بن عفان وأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويوقن فيها الفاجر إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا فإن صبر وعدل فذلك على به ورأي فيه وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت لكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ثم أمر بالعهد فقرأه على المسلمين وقد أطل عليهم فقال لهم أترضون من استخلفت عليكم فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإني قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فإني والله ما ألوت من جهد الرأى فقالوا سمعنا وأطعنا ثم نادى عمر فقال له (إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عمر إن الله حقا بالليل ولا يقبله في النهار وحقا في النهار ولا يقبله في الليل وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ألم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا حق أن يكون ثقيلاً ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا باطل أن يكون خفيفاً ألم تر يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليسكون المؤمن راغبا راغبا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله

ماليس له ولا يرهب رهبة يلتقي فيها بيديه . ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم فإذا ذكرتها قلت إنى لأرجو أن لا أكون منهم وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سيء فإذا ذكرتها قلت أين عملي من أعمالهم فإن حفظت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه) ثم توفي رضى الله عنه ثمان بقين من جمادى الآخرة فكانت خلافته رضى الله عنه سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال توجهها بأعماله الجليلة وسيرته الحميدة ، فبه كان لم شعث المسلمين بعد فرقتهم برده الكثير من العرب وهو الذى ابتدأ تجريد الجيوش على الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد الإسلام لدعوتها إلى الدين القويم أو الدحول تحت حكمه حتى يكون عدله ومساواته عامين لجميع الأمم الذين رزقوا بملك يعدون أنفسهم آلهة ويعدون رعيتهم عبيدا ويسرون وراء لذاتهم وشهواتهم مهما عاد من ضررها على الرعية ففازت جيوشه بالنصر فى جميع مواقعها وكان يقضى له عمر بن الخطاب وأمينه أبو عبيدة ويكتب له عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت . وكانت ولايات الإسلام فى عهده (مكة) وواليها هتاب بن أسيد الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها عقب الفتح (والطائف) وعليها عثمان بن أبى العتقى (وصنعاء) وعليها المهاجر ابن أبى أمية (وحضرموت) وعليها زياد ابن لبيد (وخولان) وهى قبيلة عظيمة باليمن كانت تسكن فى جباله الشرقية وكان عليهم يعلى بن أمية (وزيد) وعليها أبو موسى الأشعري (ونجران) وهو موضع شمالى اليمن يقيم به قبائل من بنى الحارث بن كعب ابن علة من مدحج وبنى ذهل بن مزيقيا من الأزد وكانت رياسة نجران حين النبوة فى بنى الحارث بن كعب اينيد بن عبيد المدان بن الديان ووفد أخوه حجر ابن عبد المدان على النبي صلى الله عليه وسلم على يد خالد بن الوليد . وإلى نجران فى عهد أبى بكر جرير بن عبد الله البجلي (والبحرين) وهى شواطئ

بلاد العرب المطلة على الخليج الفارسي وواليها العلاء بن الحضرمي (وجرش) وهو مخلاف باليمن . والمخلاف الكورة وواليها عبد الله بن ثور (ودومة الجندل) وعليها عياض بن غنم وأمير جند العراق المثنى ابن حارثة الشيباني وقاعدة أعماله الحيرة وأمير جند الشام خالد بن الوليد القرشي المخزومي ، وكان آخر ما تكلم به أبو بكر (توفي مسلماً وأحقتني بالصالحين) وغسلته زوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن وكفن في ثوبه كما أوصى وصلى عليه خليفته من بعده عمر بن الخطاب ودفن ليلاً في حجرة عائشة وجعل رأسه عند كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل قبره إبنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ابن عبد الله .

ترجمة عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر العدوى القرشى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كعب بن لؤى وكنيته أبو حفص ولقبه الفاروق وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد : ولد رضى الله عنه فى السنة الثالثة عشرة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتربى على الشمامة والنجدة والحية الجاهلية ولما جاء الإسلام كان من أكثر المعارضين له فلما هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة خوف الفتنة من الله عليه بالإسلام بركة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أعز الإسلام بعمر ، فأتى دار الأرقم ابن أبي أرقم عبد مناف بن أبي جند أسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً فيها ودان بالإسلام وأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك الاختفاء وإظهار الدين فخرج عليه السلام ومعه المسلمون صفين يقدم أحدهما عمر بن الخطاب ويقدم الآخر حمزة بن عبد المطلب ولا تسل عما نال مشركى قريش من الكآبة إذ ذاك حتى تعصبوا على عمر وأرادوا قتله فخاه العاصى بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم والد عمرو بن العاص وصار بعد ذلك عمر ينصر هذا الدين بما آتاه الله من قوة البطش حتى قال عبد الله بن مسعود (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) رواه البخارى فلما أذن الله بالهجرة إلى المدينة كان المسلمون يتسللون إلى المحرة خفية إلا عمر رضى الله عنه فإنه لما عزم عليها جاء قريشاً فى ناديمهم وأخبرهم بهزمه وقال من أراد أن تشكله (تفقده) أمه فليلقى وراء هذا الوادى فلم يجسر أحد على اتباعه وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها من بدر إلى تبوك وزوجه ابنته

أم المؤمنين حفصة بعد أن توفي عنها زوجها خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى ابن سهم من جراحة أصابته بأحد ومن مآثره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بيننا أنا نائم شربت - يعني اللبن - حتى أنظر إلى الرى يجرى فى ظفري أو أظفارى - ثم ناولته عمر قالوا فما أولته يا رسول الله قال العلم ، وقوله عليه السلام « رأيت فى المنام كأنى أنزع بدلوك بكرة على قلب (بر) فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً (دلوا) أو ذنوبين نزاها ضعيفاً والله يفر له ثم جاء عمر فاستحالت غرباً (دلوا عظيمة) فلم أر عبقرياً (سيداً) يفرى فريه (يأتى بالعجب فى عمله مثله) حتى روى الثامس بعطن ، (أى أناخوا حول الماء بعد السقي) وفى هذا الحديث إشارة إلى مدة خلافة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وقال عليه السلام مخاطباً لعمر ، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فإقبط إلا سلك غير جحك ، وقال عليه السلام « لقد كان فيما قبلكم محدثون ملهمون فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر ، وقال عليه السلام « بيننا أنا نائم رأيت الناس عرضوا على وعليهم قص فنهما ما يبلغ الثدى ومنها ما يبلغ دون ذلك وعرض على عمر وعليه قميص اجتره قالوا فما أولته يا رسول الله قال الدين ، وكان عمر كثيراً ما يشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشياء ينزل بها القرآن كسألة أسرى بدر ومسألة الحجاب ولما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم جزع عمر جزاً شديداً على صلابته وشدته حتى قال والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت أم المؤمنين عائشة قال عمر والله ما كان يقع فى نفسى إلا ذلك وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم فلما جاء الصديق وذكرهم خشع ورجع إلى الصواب وكان الله سبحانه وتعالى أراد ألا يكون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء ليس فيه فائدة فلقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقاً فردم الله بذلك ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى وعرفهم الحق الذى عليهم هكذا قالت أم المؤمنين من

رواية البخارى وكان لعمر فضل عظيم يوم السقيفة حيث سارخ إلى بيعة الصديق قبل أن تحدث فرقة ولما ولى الصديق كان له عمر أعظم مشير حتى أن أبا بكر لم ير غيره أهلاً للخلافة بعده فعمد له بها ونما فعل . وكان رضى الله عنه طويلاً أصلع أعسر أيسر يعمل بيديه كليتهما وكان لطوله كأنه راكب شديد البياض تعلوه حمرة وكان أشيب يضفر لحيته ويرجل رأسه وكان له من الأولاد عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وأم المؤمنين حفصة وعبيد الله وقتل بصفين مع معاوية ومن ولده فاطمة وعاصم ورقية وزيد وعبد الرحمن الأوسط وكان عمر رضى الله عنه يلقب بالفارق : ببيع بالخلافة صبيحة وفاة أبي بكر رضى الله عنه ولما بويع سعد المنبر وقال إنما مثل السرب مثل جمل أنف اتبع قائده فليُنظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق .

أمر العراق في عهد عمر

توفي الصديق رضى الله عنه والمثنى بن حارثة أمير جيش العراق مقيم بالمدينة يطلب المدد فلما ولى عمر ندب الناس مع المثنى فسكان أول منتدب لذلك أبو عبيد بن مسعود الثقفي وسعد بن عبيد الأنصارى وسليط بن قيس فأمر عليهم أسبقهم اقتدأباً أبا عبيد ابن مسعود وقال له (اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ولا تتجهد مسرعاً بل انتد فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة ولا يمتنعى أن أوامر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب والسرعة إلى الحرب إلا عن بيان ضياع والله لولا سرعته لأمرته) ثم قال (إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية تقدم على قوم تجرؤا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون وأحرز لسانك ولا تفشين سرك فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكره وإذا لم يضبطه

كان بمضيعة) ثم أمر المثنى أن يتقدم إلى أن يلحقه الجيش وأمره أن يستنفر من حسنت توبته من المرتدين فسار مسرعا حتى وصل الحيرة في عشر وكان الفرس قد شغلوا عن المسلمين باختلافاتهم الداخلية على يلى ملكهم ثم اتفقوا أخيرا على ولاية بوران بنت كسرى وأن يقوم بأمرها رستم حتى يجدوا رجلا من بيت كسرى يصلح للملك فاستعد رستم لقتال المسلمين وجهد لذلك الجيوش فأرسل جيشاً إلى فرات بادقلى وقائده جابان وجيشاً آخر إلى كسكر (بلد على الشاطئ الغربى لدجلة بين بغداد والبصرة على آثارها الآن مدينة واسط) وقائده ترسى وجيشاً آخر لمصادمة المثنى وأرسل إلى الفلاحين أن ينتقضوا على المسلمين ففعلوا ولما بلغت هذه الأخبار المثنى خرج من الحيرة حتى نزل خفان (مأسدة قرب الكوفة) وانتظر أبا عبيد حتى وصل بعد شهر من مقدم المثنى وكان قد اجتمع من الفرس جمع عظيم وعسكروا بالتمارق (بلد شمالى واسط) والزاب (نهر بين سورا وواسط ونهر آخر بقربه وعلى كل منهما كورة وهما الزابان وجمع بما حواليه من الأنهار فيقال الزوابى ونهر جور كذلك من الأنهر المتشعبة فى جنوبى الجزيرة) فهزمت السرايا من تجمع فى هذه الجهات من الفرس وطلب أمراؤها الصلح فأجيبوا ودفعوا الجزاء معجلاً ثم جاءوا إلى أبى عبيد بأنواع الأطعمة المحبوبة عند الفرس فقال لهم هل أكرمتم الجند بمثلها فقالوا لم يتيسرو نحن فاعلون فقال أبو عبيد (لا حاجة لنا فيه بثس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم استأثر عليهم بثىء ولا والله لا آكل ما أتيتم به ولا بما أفاء الله إلا مثل ما يأكل أوساطهم) فليتأمل المسلمون كيف كان سلفهم رضى الله عنهم ثم سار حتى لقي الجالينوس بياقشيانا من باروسما فقاتله حتى هرب وانهزم جيشه فأرسل أبو عبيد إلى عمر بالبشارة والأخماس وفيها تمر كان لترسى لا يأكله إلا ملوك الأعاجم أو من أكرموه بثىء منه أو لا يفرسه غيرهم وكتب إلى عمر (إن الله أطعمنا مطاعم كانت

الأكاسرة تحميمها وأحسينا أن تروها لتشكروا إنعام الله وإفضاله) ولما رجع
الجالينوس إلى رستم منمهما جهز جيشاً عظيماً تحت قيادة بهمن جاذويه
المعروف بذي الحاجب ومعه الراية العظمى لفارس واسمها (درفش كايان)
عرضها ثمانية أذرع في طول لإثني عشر من جلود النمر فلما بلغ ذلك أبو عبيد
رجع إلى الحيرة وأقبل الجالينوس حتى نزل قس الناطف على الفرات
وأقبل أبو عبيد فنزل عدوته مقابلاً لجيش الفرس وبين الفريقين نهر
الفرات فنصب الفرس جسراً عليه .

وقعة الجسر

وخير بهمن المسلمين في أن يعبروا هم أو يعبر الفرس إليهم فاختر
أبو عبيد العبور فنهأه ذوو الرأي منهم فلم يقبل وقال لا يكون الفرس أجراً
على الموت منا فعبروا واشتد القتال وكانت الفيلة كثيرة في جيش الفرس
فهابتها خيل المسلمين واشتد الأمر عليهم فقال أبو عبيد احتوشوا الفيلة
واقطعوا بطانها واقبلوا عنها أهلها ووثب هو على الفيل الأبيض ففعل به
ذلك ولكن الفيل خبطه بيده فوقع فوطئه الفيل حتى مات فأخذ الراية
بعده ثنية فقاتل عن جسثه حتى تمكن من أخذها ثم قتل فتابع الراية سبعة
نفر من ثقيف كلهم يأخذ الراية ويقتل ثم أخذ الراية المثنى فرأى أن الأمر
اشتد على المسلمين وابتدأ بهضمهم بالهزيمة فرأوا الجسر مقطوعاً قطعه أحد
المسلمين لثلاثين يوماً فلم يعقبهم ذلك بل نزلوا في الفرات ففرق بعضهم ونجا
آخرون فنأدى المثنى من عبر وأمرهم بعقد الجسر ففقدوه وأمر المسلمين
بالعبور وقال اعبروا على هيبنتكم فإننا دونكم ولا تدهشوا ولا تفرقوا
نفوسكم وبقى هو حتى عبر من عبر ثم عبر آخرهم وكان آخر من قتل على
الجسر سليط بن قيس ومات من المسلمين في هذه الواقعة ما ينيف على أربعة
آلاف بين قتيل وغريق وقد ذهب كثير ممن عبر عن المثنى استحياء بما فعلوه

من الهزيمة فبقى المثنى جريماً في قلة من جيشه ومنع الله بهمن عن العبور خلف المسلمين بما بلغه من اختلاف الفرس وانقسامهم قسمين قسم يريد رستم وقسم يريد الفيرزان فرجع عن قصده ولما بلغ عمر خبر هذه الهزيمة وأن كثيراً من الناس ذهبوا في البلاد استحياء قال (اللهم إن كل مسلم في حل مني أنا فثمة كل مسلم يرحم الله أبو عبيد لو كان انحاز إلى لكنت له فثة) ثم أمد المثنى بجيوش كثيرة فيهم جرير بن عبد الله البجلي وقومه وعصمة ابن عبد الله الضبي وقومه واستنفر من حسنت توبته من المرتدين فكلما أتاه أحد منهم وجهه إلى المثنى (أما) رستم والفيرزان اللذان يتنازعا ن إمرأة الفرس فإنهما لما علما بذلك وجها جيشاً بقيادة مهران الفارسي إلى الحيرة فكتب المثنى إلى جرير وعصمة ومن معهما أن يوافوه بالعذيب (مما يلي الكوفة الآن) وسار المثنى حتى التقى بهم هناك فلقوا جيش مهران وبينهما نهر الفرات فاختر المثنى أن يعبر إليه الفرس لأن المسلم لا يلدغ من جحر مرتين فأبلغ الفرس ذلك فعبروا أما المثنى فسوى صفوفه وصار يحرض المسلمين ويعظهم ويقول إنى لأرجو ألا تؤتى الناس من قبلكم اليوم والله ما يسرنى اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرنى إمامتكم وأنصف الناس من نفسه في قوله وفعله وخلطهم في المحبوب والمكروه وقال إنى مكبر ثلاثاً فإذا كبرت الرابعة فاحملوا فلما كبر الأولى أعجلتهم الفرس فرأى خللاً في صفوف بني عجل فأرسل إليهم الأمير يقرنكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم فاعتدلوا فضحك فرحاشم اشتد القتال وحمل المثنى على قلب المشركين وفيه مهران والمجنبتان تقتتلان لا يستطيع إحداهما أن تفرغ النصر لأميرها لا المسلمون ولا المشركون فتغلب قلب الإسلام على قلب الشرك وأرجع فيه حتى قتل مهران فلما رأى ذلك مجنبتا المسلمين مالوا على من أمامهم ميلة واحدة فردوهم على أعقابهم مدحورين قدسابقوا إلى الجسر يريدون العبور فسبقهم إليه المثنى وحال بينهم وبين ما يشتهون فافترقوا

مصعبين ومنحدرين وكان المثنى رضى الله عنه يذكر هذا العمل من زلاته
ويقول (لا ينبغي إحراج من لا يقوى على امتناع) ثم سير سرية لتعقب
الفرس فبلغت ساباط (موضع بالمداين) واقتتحها وصار بعد ذلك طريق
المسلمين من الحيرة إلى شواطئ دجلة آمننا ثم سار قاصداً سوق الخنافس
(موضع قرب الأنبار) وسوق بغداد بعد أن خلف على الحيرة بشير
ابن الخصاصية فأغار عليهما وسار حتى نزل نهر السالحين بالأنبار ثم سرح
سرية لقتال جمع من العرب بصفين (موضع غربي الفرات من جهة الشمال
وهي الآن ولاية حلب الشهباء) فسارت إليهم وهزمتهم وبذلك صار سواد
العراق للمسلمين يأخذون الجزية من أهل الذمة ويستغلون ما فتحوه عنوة
و لم تبق للفرس سلطة ما غرب الفرات وضعفت في بلاد الجزيرة فتأثر من
ذلك عامة الفرس ورأوا ملكهم أخذ في الاضمحلال فالزوال إن لم يتلافوا
الأمر فيسعدوا أولاً في إزالة هذه الاختلافات التي كادت تقضى على حياتهم
فاجتمع كبارهم عند رسستم والفيرزان وقالوا لها إنه لم يساعد العرب
ويكسبهم الظفر علينا إلا تفرقكم وتخاذلكم فان لم تحسموا هذا النزاع وتلتفوا
اعدوكم بدأنا بكم فاشتفتينا قبل أن يضيع ملك فارس فانتهى الأمران إلى قول
العطاء وبحنا عن رجل من آل كسرى يصلح لولاية الملك وبعد الجهد
وجدوا إبنه له اسمه يزدجرد فتوجه بتاج الملك وفرح به الأمراء وجميع
الرعية وأطاعه الكل فسمى جيوشاً لحماية ثغور البلاد واسترداد ما فقد منها
فسير جيشاً للأبله وجيشاً للحيرة وجيشاً للأنبار وكانت هذه أعظم ثغورهم
من الجهة الغربية فبلغت المثنى هذه الأخبار فأرسل امر بها فقال عمر والله
لأضربن ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رئيساً ولا ذارياً أو شرف
وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رامهم به وكتب إلى المثنى يأمره بالإنسحاب
من أرض العجم والتفرق في المياه حتى تجتمع الجيوش وأمره ألا يدع في
ريعة ومضر أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أحضره طوعاً أو كرهاً

فأنزل المثنى جيشه على حدود بلاد الفرس أولهم بالحلة وآخرهم بفضى (وهو جبل البصرة) متناظرين يفيث بعضهم بعضاً وكتب عمر إلى عماله أن يبعثوا من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأى وخرج إلى الحج سنة ثلاث عشرة فحج ورجع فجاءته أفواجهم إلى المدينة ومن كان أقرب إلى العراق انضم إلى المثنى فلما اجتمع عند عمر جيش عظيم خرج بهم من المدينة بعد أن استخلف عليها علي بن أبي طالب ونزل بضرار (موضع قرب المدينة) فمسكروا به والمسلمون لا يعلمون قصده أيسافر إلى العراق أم يقيم فسأله عثمان بن عفان عن حركته فأعلمهم واستشارهم أيقم ويولى قيادة الجيش غيره أم يقود الجيش بنفسه فقال العامة سر وسر بنا معك وأشار خاتمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمقام وتولية رجل من أهل الشهامة والنجدة أميراً على الجيش فتبع رأيهم وانتخب لقيادة هذا الجيش العظيم سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي خال رسول الله صلى الله عليه وسلم فولاه ووصاه وكان فيما قال له (يا سعد بن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله لا يحو السوء بالسوء ولكنه يحو السوء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالتاس في دين الله سواء وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر إلى الأمر الذي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه) ثم سرحه بأربعة آلاف وأتبعه بمثلها وأرسل إليه عهداً هذه صورته .

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فإني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيذة في الحرب وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون

بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عدونا ليس كهدهم وعدتنا ليست كهدهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وإلا نصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بما صامى الله وأتم في سبيل الله ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا قرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بالمعاصي كقار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم وأسأل الله ذلك لنا ولكم . وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص من قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها الأنفس ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من ثقت بدينه ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا فنولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذب لا ينفعك خبره وإن صدقتك في بعض والغاش عين عليك وليس عيناً لك وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتبسع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس والرأى من أصحابك وتخبر لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلال لا تخص بها أحد بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حايت به أهل خاصتك ولا تبع طليعة ولا سرية في وجه

تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكايه فإذا عاينت العدو فاضم إليك أفاضيك
وطلائمك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لاتعاجلهم بالمناجزة
مالم يستكركم قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها
كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم أذك حراسك على عسكريك
وتيقظ من البيات جهدك ولانات بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه
لترهب به عدو الله وعدوك والله ولي أمرك ومن معك وولى النصر لكم على
عدوكم والله المستعان) ولما وصل سعد زرود بلغه أن المشي توفى من أثر
جراحة أصابته وأنه ولي على جيشه بشير بن الخصاصية فجمع سعد إليه
جيش المشي وكان ثمانية آلاف وعسكر بشراف وعبي الجيش وأمر الأمراء
وعرف على كل عشرة عريفاً وجعل على الرايات رجالات من أهل السابقة
أيضاً ورتب المقدمة والساقة والمجنبات والطلائع فجعل على المقدمة زهرة
ابن الحوية فاتمى إلى العذيب وعلى الميمنة عبد الله بن المعتم وعلى الميسرة
شريحيل بن السمط الكندي وخليفته خالد بن عرفطه وعلى الساقة عاصم
بن عمرو وعلى الطلائع سواد بن مالك وعلى المجردة سلمان بن ربيعة الباهلي
وعلى الرجالة جمال بن مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذى اليقين
الحنفي وعلى القضاء بينهم عبد الرحمن ابن ربيعة الباهلي وكاتب الجيش زياد
ابن أبي سفيان ورائده وداعيه سلمان الفارسي وكل ذلك بأمر من عمر ثم
سار حتى نزل القادسية (قرية قرب الكوفة ينزل بها حاج الكوفة الآن)
بين العتيق والخندق (هو حفير لسابور ملك الفرس بيرية الكوفة) والعتيق
من فروع الفرات بحمال القنطرة (وهي قرية بها قنطرة على فرع من فروع
الفرات فعرفت القرية بها) وكتب عمر إلى سعد (إنى ألقى فى روعى أنكم
إذا لقيتم العدو غلبتموهم فتى لآعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو إشارة
أو لسان كان عندهم أماناً فأجروا لهم ذلك مجرى الأمان والوفاء فإن الخطأ
بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر هلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم) وأقام سعد

بالقادسية شهراً لا يأتيه من الفرس خبر فبث سراياه بين كسكر والأنبار فأغارت على من ليس لهم ذمة ومن غدر من أهلها فأرسل أهل السواد إلى يزيد جرد ملك الفرس يخبرونه بما صنع المسلمون وأعلموه إن تأخر ألقوا بأيديهم فأرسل يزيد جرد إلى رستم وأمره بالاستعداد والتأهب ليكون قائداً لجيش عظيم يحارب المسلمين فامثل كرهاً لأنه كان من رأيه مطاولة المسلمين حتى يهنوا وخرج فعسكر بساباط وبلغ خبره سعداً فبلغه عمر فأرسل إليه عمر (لا يكره بك ما يأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث رجلاً من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعونه فإن الله جاعل دعاتهم توهيناً لهم) فأرسل سعد جماعة من الأشراف دعاة إلى يزيد جرد منهم النعمان بن مقرن وقيس بن زرارة والأشعث بن قيس وفرات بن حيان وعاصم بن عمر وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة فلما وصلوا المدائن أدخلوا على يزيد جرد فسألهم بواسطة ترجمانه ما جاء بكم ودعاهم إلى غزونا والولوج ببلادنا أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فتمكلم عنهم النعمان بن مقرن فقال (إن الله رحمننا فأرسل إلينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة فلم يدع قبيلة إلا قاربه منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة ثم أمر أن نبتدىء بمن خالفه من العرب فبدأنا فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغبط وطامع فازداد فرقتنا جميعاً ففضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمر أن نبتدىء بمن جاؤرنا من الأهم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فإن أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه الجزية فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتكم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقننا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن بدلتهم الجزاء قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قاتلناكم) فقال يزيد جرد إنى لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم فقد كنا نوكل بكم قرى

الضواحي فيكمفونا أمركم ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس فإن كان غرور
لحقكم فلا يفرنكم منا وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتنا إلى خصبكم
وأكرمنا وجوهكم وكسوننا كم وما كننا عليكم ملكا يرفق بكم فقام قيس
ابن زرارة فقال أما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت وأشد ثم ذكر
من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي صلى الله عليه وسلم مثل مقالة
النعمان ثم قال (اختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر أو السيف وإلا فنج
نفسك بالإسلام) فقال يزيد جرد لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء
لكم عندي ثم استدعى بوقر من تراب وقال لقومه احمولوه على أشرف هؤلاء
ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن فقام عاصم بن عمر وقال أنا أشرفهم
وأخذ التراب فحمله وخرج إلى راحته فركبها ولما وصل إلى سعد قال له
أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم ثم إن رستم خرج بجيشه الهائل
مائة ألف أو يزيدون من ساباط فلما مر على كوثنى (قرية بين المدائن وبابل)
لقىه رجل من العرب فقال له رستم ما جاء بكم وماذا تطلبون منا قال جئنا
نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا قال رستم فإن
قتلتهم قبل ذلك قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقى أنجزه الله وعده فنحن
على يقين قال رستم قد وضعنا إذا في أيديكم قال العربي أعمالكم وضعتكم
فأسلمكم الله بها فلا يفرنك ما ترى حولك فإنك لست تجادل الإنس وإنما
تجادل القدر فغضب منه رستم وقتله فلما مر بجيشه على البرس (قرية بين
الكوفة والحلة) غضبوا أبناء أهله وأموالهم وشربوا الخور ووقعوا على
النساء فشكى أهل البرس إلى رستم فقال لقومه والله لقد صدق العربي والله
ما أسلمنا إلا أعمالنا والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة
منكم ثم سار حتى نزل الحيرة فعنف عظماءها على الاستسلام للمسلمين فقال
له ابن ببيعة لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن
أنفسنا (ولما) علم سعد أمير جيش المسلمين خبر رستم أرسل عمرو ابن معد

يكره الزبيدي وطليحة بن خويلد الأسدي يستكشفان خبر الجيش مع عشرة رجال فلم يسيروا إلا قليلا حتى رأوا سرح العدو منتشرا على الطفوف فرجعوا إلا طليحة فإنه ظل سائرا حتى دخل جيش العدو وعلم ما عليه فرجع إلى سعد وأخبره خبره .

وقعة القادسية

ثم إن رسم سار بجيشه من الحيرة حتى نزل القادسية على العتيق (جسر القادسية) أمام عسكر المسلمين يحول بينهم وبينهم النهر ومع الفرس ثلاثة وثلاثون فيلا ولما نزل أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلا نكله فأرسل إليه ربعي بن عامر فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب وبسط النمارق والوسائد منسوجة بالذهب فأقبل ربعي على فرسه وسيفه في خرقة ورمحه مشدود بعصب فلما انتهى إلى البساط وطئه بفرسه ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما ثم أخذ عباءة بعيره فاشتعلها فأشاروا عليه بوضع سلاحه فقال لو أتيتكم فعلت ذلك بأمركم وإنما دعوتوني ثم أقبل يتوكأ على رمح و يقارب خطوه حتى أفسد ماهر عليه من البسط ثم دنا من رسم وجلس على الأرض وركز رمح على البساط وقال إنا لانقعد على زينتك فقال له رسم ماجاء بك قال (الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر . فقال رسم قد سمعنا قولكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه فقال نعم) (وإن ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث فتحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل : الإسلام وندعك وأرضك أو الجزاء فتقبل ونكف عنك

وإن احتجت إلينا نصرناك أو المنابذة في اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا وأنا كفيل بذلك عن أصحابي) فقال رستم أسيدم أنت قال (ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أديانهم على أعلام) ثم انصرف غفلاً رستم بأصحابه وقال رأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل (فأروه الاستخفاف بشأناه فقال رستم ويلكم إنما أنظر إلى الرأى والكلام والسيرة والعرب تستخف اللباس وتصون الأحساب فلما كان اليوم الثاني من فزوله أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا هذا الرجل فأرسل إليه حذيفه بن محصن الغطفاني فلم يختلف عن ربهى في العمل والإجابة ولا غرابة فهما مستقيمان من إناه واحد وهو دين الإسلام فقال له رستم ما قعد بالأول عنا قال (أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه توبتى) فقال رستم والمواعدة إلى متى قال إلى ثلاث من أمس وفي اليوم الثالث أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلاً فأرسل إليه المغيرة بن شعبة فتوجه إليه ولما كان بحضرته جلس معه على سريره فأقبلت إليه الأعوان يجذبونه فقال لهم (قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما توامى وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم وإنى لم آتيتكم وليكنتم دعوتهم وفي اليوم علمت أنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول) فقالت السوقة صدق والله العربى وقالت الدهاقين (زعماء الفلاحين) لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه قاتل الله سابقينا حيث كانوا يصغرون أمر هذه الأمة ثم تكلم رستم بكلام عظيم فيه شأن الفرس وصغر فيه شأن العرب وذكر ما كانوا عليه من سوء الحال والضيق العيش فقال المغيرة (أما الذى وصفتنا به من سوء الحال والضيق والاختلاف فنعرفه ولا ننكره والدنيا دول والشدة بعدها الرخاء ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم

قليلا على ما أوتيتم وقد أسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال وإن الله بعث
فينا رسولا ثم ذكره مثل ما تقدم وختم كلامه بالتخيير بين الإسلام أو الجزية
أو المنازعة ثم رجع بخلا رستم بأهل فارس وقال أين هؤلاء منكم ألم يأتكم
الأولان في سراكم واستخرجاكم ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا وسلكوا طريقاً
واحداً ولزموا أمراً واحداً هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين
والله لئن بلغ من أدبهم وصونهم لسرمهم أن لا يحتفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا
منهم لئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء ألمجوا ولم تنفع الفرس بهذه
الدعوة بل تمادوا في غيهم لبقضى الله أمراً كان مفعولاً فأجمع القائدان على
المناجزة وأقرا على أن يعبر الفرس نهر العتيق فعبروا وعبأ رستم جيشه
المرمرم وجعل بينه وبين يزدجرد بريداً يخبره بالحوادث في أوقاتها وعبأ
أمير المسلمين جيوشه وكانت صفوفهم مع حائط قديس والخندق فكان
الجيشان بين العتيق والخندق وأرسل سعد رجالا من ذوى المنطق الفصيح
يحرضون على الجهاد وأمر القراء بقراءة سورة الانفال فقرئت ولما أتوا
قراءتها شئت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة بقراءتها ثم قال لهم
سعد الزموا مصافكم فإذا صليت الظهر فإني مكبر فإذا كبرت الأولى فكبروا
واستعدوا وإذا كبرت الثانية فكبروا والبسوا هدتك وإذا كبرت الثالثة
فكبروا ونشطوا الناس فإذا كبرت الرابعة فازحفوا حتى تحالطوا عدوكم
وقولوا (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) وكان ذلك في المحرم من
السنة الرابعة عشرة فلما كبر سعد تكبيرته الأخيرة خرج أهل النجدات
فأنشبوا القتال ثم حمل الجيشان ولم يكن أشد على المسلمين من الفيلة وكادت
بجيلة أن تهلك لنفار خيلها فأرسل سعد إلى بن أسد أن دافعوا عن بجيله
فقام رئيسهم طليحة بن خويلد بما عهد إليه خير قيام فلما رأى الأشعث
ابن قيس ما يفعله بنو أسد قال لقومه يا بني كندة لله در بنى أسد أى فرى
يفرون وأى هذ يهدون أغنى كل قوم ما يليهم وأتم تنظرون من يكفيكم

أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم من العرب ثم نهدهم فدوا معه وأزالوا من يازاتهم ووجه الفرس قوتهم إلى بني أسد لما رأوا من شدتهم على القبيلة فدارت رحى الحرب على بني أسد والقبيلة تضربهم كثيراً فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو زعيم بني تميم أن ينظر حيلة للقبيلة فنأدى رماة قومه وقال لهم ذبوا ركبان القبيلة عنهم بالنبل وقال لآخرين استدبروا القبيلة فقطعوا وضنها (الوضين بطان عريض منسوج من سيور أو شعر والبطان حزام القتب) ففعلوا فعوت القبيلة وقتل أصحابها فنفس هن أسد بعد أن قتل منهم خاصة في هذه الموقعة نحو خمسمائة ولم يزل القتال ناراً تلهظ إلى أن غربت الشمس فانفصل الجيشان وهذا هو اليوم الأول من أيام القادسية ويسمى يوم أرماة وتسمى ليلته ليلة الهدأة لأنه لم يحصل فيها قتال فلما أصبحوا وكل سعد بالجرحى من يداويهم وبالقتلى من يدفنهم وعبى الجيش كما كان بالأمس وبينما هم مصطفون إذ قدم على المسلمين مدد من الشام بعثه بأمر عمر أبو عبيدة عامر بن الجراح وعليه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الملقب بالمرقال (لقبه بذلك على بن أبي طالب يوم صفين لأنه أعطاه الراية فصار يرقل بها أى يسرح) وكان على مقدمته القعقاع بن عمرو فوصل أولاً لأنه تعجل فقدم صبيحة اليوم الثاني من أيام القادسية فقويت به قلوب المسلمين ولم يلبث حتى خرج يطلب البراز فبرز إليه ذو الحاجب صاحب وقعة الجسر فعرفه القعقاع ونادى يالثارأت أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر ثم تضاربا فقتل ذا الحاجب وأفرح قتله المسلمون بقدر ما أحزن المشركين ثم حمى القتال وفي هذا اليوم شعر المسلمون بالظفر لأن القبيلة كانت تكسرت توأبيتها فاشتغل الفرس بإصلاحها وحمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على لابل قد ألبسوها وهي مجللة مبرقعة وأطافت بها خيولهم تحميمهم وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالقبيلة فلقيت منها خيل الفرس أعظم مالات خيل المسلمين بالأمس وأظهر القعقاع في هذا اليوم شجاعة عظيمة

واستمر القتال إلى نصف الليل فانفصل الجيشان ويسمى هذا اليوم يوم
أغواث وهو اليوم الثاني من أيام القادسية ونسب ليلته ليلة السواد ثم
أصبحوا هم اليوم الثالث وهو يوم عماس على مصافهم وبين الصنفين من
جرحى المسلمين وقتلهم ألفان فنقلهم إخوانهم الجريح للمداواة والقتيل
للدفن وكان النساء هي اللاتي يداوين الجرحى أما قتلى المشركين الذين يزيدون
على عشرة آلاف فلم يعن قومهم بنقلهم وفي هذا اليوم أقبل هاشم المرقال
في بقية جيشه وقد احترس الفرس في هذا اليوم على الفيلة فجعلوا وراءها
رجالا يجمعونها لئلا تقطع وضنها ولكن خيل المسلمين لم تنفر منها لأن الفيل
إذا كان وحده كان أوحش وإذا أحاط به الرجال كان آنس ولأن الخيل
أيضا تعودت رؤيتها ثم ابتداء القتال وحى وطيسه فانتدب سعد القعقاع ومعه
آخر لقتل الفيل الأبيض وهو كبير الفيلة وانتدب آخرين لقتل الفيل
الأجرب فذهب القعقاع ورفيقه وأشرع كل منهما رمحه فوضعه في عين الفيل
فوقع لجنبه ثم قتلا ساسته وذهب الآخران فظعن أحدهما الفيل في عينه
فألقى (تساند إلى ماوراءه) ثم استوى فضربه الثاني فأبان مشفره فولى الفيل
لايلوى على شيء حتى رمى نفسه في العتيق وتبعه الفيلة فخرجت صفوف
الأعاجم وعبرت العتيق وظل القتال مستمرا حتى جاء المساء فانفصل الجيشان
قليلًا ثم أمر سعد بمعاودة القتال متى أعلن بشعار القتال وهو (الله أكبر)
فأعجبتهم الفرس عن انتظار تكبير سعد فحمل القعقاع ولم ينتظر فقال سعد
اللهم اغفر له وانصره فقد أذنت له وإن لم يستأذن لأن المسلمين قد جروا
نتائج العصيان في وقعة أحد في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
بخفاف سعد أن يعاقبوا فأذن في القتال وإن لم يستأذنه ثم حمل بنو أسد
فقال سعد اللهم اغفر لهم وانصرهم فقد أذنت لهم وهكذا كان يقول رضى الله
عنه كلما حمل قوم قبل لإعلانه التكبير فلما صلى العشاء كبر فحمل المسلمون
كلهم وكانت ليلة ليلاء صوت الحديد فيها وكان كصوت القيون وترك

المسلمون الكلام وإنما كانوا يهرون هرباً ولذلك سميت هذه الليلة ليلة الهرب
رأى فيها العرب والفرس ما لم يروا مثله قبلها فالمسلمون يحامون عن دينهم
والفرس يحامون عن دولتهم ولكن أين من يحارب عن الدنيا بمن يحارب
لتكون كلمة الله هي العليا ؟ واستمر القتال إلى الصباح فقال القعقاع إن
الدائرة تكون لمن صبر ساعة فاصبروا ساعة فإن النصر مع الصبر فانضم
إليه جماعة من الرؤساء واستمروا يقاتلون حتى قام قائم الظهيرة فابتدأ الفرس
بالتقهقر وكان أول من زال الفيرزان والهمزان فتأخرا عن موافقهما ثم
حمل هلال بن علفة أحد فرسان المسلمين فقتل رستم فلما رأى ذلك الفرس
ابتدأوا بالإنهزام فقام الجالينوس على الردم وأمر الجيش بالعبور فعبر من
نجا منهم فتبعهم زهرة بن الحويبة وأدرك الجالينوس وهو يجمع المنهزمين
فقتله وأخذ ضرار بن الخطاب النهري الراية العظمى لفارس وهي (درفش
كايان) ويسمى هذا اليوم يوم القادسية وبعد تمام الهزيمة أمر سعد بجمع
الأسلاب والغنائم وكانت شيئاً كثيراً فقسمها كما أمر الله سبحانه وتعالى
وهنا جنوده بهذا النصر المبين وبعث بالخمس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر
ابن الخطاب وكان رضى الله عنه يخرج كل يوم من المدينة يتشم الأخبار
حتى يرد حرم الظهيرة فلما جاء البشير لاقاه عمر وهو يسير سيراً حثيثاً فسأله
عمر من أين فأخبره الرجل أنه أت من قبل سعد فقال يا عبد الله حدثني قال
هزم الله المشركين وعمر يخطب وراه والرجل لا يعرفه حتى دخل المدينة
فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال البشير هلا أخبرتني رحمك الله
فقال عمر لا بأس عليك يا أخى .

وهذه الموقعة كانت أعظم وقعات المسلمين مع فارس قتل فيها مشاهير
الفرس وكبار قوادهم وقتل من الجيش كثير عرقاً وقتلاً وقاتل فيها أغاب
رؤساء العرب لأن عمر لم يترك أحداً من ذوى النجدات يتأخر عنها وكان

المسلمون لا يذكرون ما بعدها من الوقائع وأقام سعد بالقادسية شهرين يفتقر
أمر عمر حتى جاءه بالتوجه لفتح المدائن وتخفيف النساء والاميال بالعتيق مع
جند كثيف يحوطهم وعهد إليه أن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلصون
المسلمين في عيالاتهم ففعل وسار بالجيش لأيام بقين من شوال وكان فل
المنهزمين لحق ببابل وفيهم بقايا الرؤساء مصممين على المدافعة .

فتح البرس

فلما وصلت مقدمة المسلمين برس قابلهم فيها بعض عساكر الفرس
فقاتلوا ثم انهزموا ولما أدركهم سعد أخبروه الخبر فسر واستمر سائرا
حتى وصل بابل .

فتح بابل

وهناك عبر الفرات وقاتل من تجمع ببابل فلم يلبث الفرس إلا ساعة
من نهار وانهزموا مدحورين في أسرع من لفت الرداء وناهيك بقتال من
ملئ قلبه رعباً وهذا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (نصرت
بالرعب) وهرب الفيرزان إلى نهاوند وهرب الهرمزان إلى الأهواز (إقليم
بالجنوب الغربي من بلاد فارس بين البصرة وإقليم فارس وهي تسع كور
وقاعدتها السوس ومن مدنها تستر) وقصد بقية المنهزمين المدائن (مدينة
كسرى جنوبي بغداد على الدجلة وسميت المدائن لكبرها وهي غربية وشرقية
وفي هذه إيوان كسرى وهي قاعدة الملك) وتبع زهرة المنهزمين فلحقهم بين
الدير وكوثي فطردهم وقتل منهم جمعا عظيما .

فتح كوثي

ثم سار حتى وصل كوثي فخرج إليه أميرها مقاتلا فقتل وانهزم جيشه
وانتظر زهرة هناك سعدا .

فتح سابات

وبعد أن وصل سعد سار زهرة حتى ورد سابات فصالحه أهلها على الجزية وانتظر سعداً فلما جاء سار الجيش كله قاصداً بهر سير وهي المدينة الغربية فرأى المسلمون إيو أن كسرى أماتهم ونذكروا وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ روى مسلم عن جابر بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (عصبية من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض بيت كسرى أو آل كسرى) فقويت قلوبهم وعظمت همهم وهؤلاء جديرون بنصر الله لهم لأنهم على يقين من دينهم فكلمنا سنحت لهم فرصة تقربهم إلى الله بادرُوا إليها (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) ونادى ضرار بن الخطاب : الله أكبر هذا أبيض كسرى هذا وما وعد الله وصدق رسوله وكبر وكبر معه المسلمون وحاصر سعد المدينة في ذي الحجة من السنة الرابعة عشرة وأرسل الخيل لفتح القرى المجاورة واستشار سعد عمر في أسرى الفلاحين فجمع عمر أصحاب شوره وخطبهم فقال (إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه ومن يتبع السنة وينته إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة أصاب أمره وظفر بحظه وذلك بأن الله عز وجل يقول (ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) وقد ظفر أهل الأيام والقوادس بما يلهيهم وجلا أهله وأتامهم من أقام على عهدهم فما رأيكم فيمن زعم أنه استكره وحشر ، وفيمن لم يدع ذلك ولم يقم وجلا ، وفيمن أقام ولم يدع شيئاً ولم يجمل ، وفيمن استسلم) فأجمعوا على الوفاء لمن أقام وكف لم يزد غلبه إلا خيراً وأن من ادعى فصدق أو وفي فبمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم أو أعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإذا شأوا دعوم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعمهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم بين الخزاء

والجلاء فكتب عمر إلى سعد بما أقر عليه علماء المسلمين ورجال شوراهم
نقل سعد عن الفلاحين وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية
ولهم الذمة فتراجعوا ولم يبق غربى دجلة سوادى إلا دخل في ذمة المسلمين
واغتبط بملكهم ؛ كيف لا وقد رأوا قوما أساس دينهم المساواة فأمرهم
كأصغر الرعية أمام الحق . لا كبر . لا ظلم ، لا فساد فى الأرض ، خفت
عنهم وطأة الكبرياء والعبودية التى كانوا يسامونها فصاروا عباد الله وحده
(ولما) اشتد الحصار على المدائن الغربية ترك يزدجرد المدينة وعبر إلى
المدينة الشرقية فعزم سعد على العبور ولكن الفرس كانوا أجمعوا المعابر
فدله فارسى على مخاضة أصحاب للعبور فقال سعد لرؤساء الجيش إنى قد عزمتم
على قطع هذا البحر فقالوا جميعاً عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل فانتدب
منهم من يعدى أولاً ويحمى الفراض حتى يعبر المسلمون فأجابته لذلك
ذو البأس والنجدة عاصم بن عمرو سيد بنى تميم فعبر فى ستين فارساً من قومه
فلما رأى الأعاجم تصدوهم فشرعوا نحوهم الرماح فلم يهبر الفرس ولما رأى
سعد أن الفراض محمية أمر المسلمين بالعبور فهبوا وهم يقولون نستعين
بالله ونتموكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى
العظيم وكان يسار سعداً سلمان الفارسى فعامت بهم خيولهم وسعد يقول
حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهن دينه وليهزم من
عدوه إن لم يكن فى الجيش بنى أو ذنوب تغلب الحسنات فقال له سلمان :
الإسلام جديد ذلك لهم البحور كما ذال لهم البر أما والذى نفس سلمان بيده
ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا فأبر الله قسمه وخرجوا ولم يفقد أحد منهم
شيئاً ، ولم يغرق منهم أحد غير أن رجلاً زال عن ظهر فرسه فتنى القمعاق
عنان فرسه إليه فأخذه بيده وأخرجه سالماً فانظر رعاك الله كيف لم تشغل
القمعاق نفسه وهو فى أخرج المواقف بل آثر رفيقه على نفسه وبذلك تتجلى
ملك مظاهر الإسلام والإخوة الإسلامية فى أعلى درجاتها وكان هذا اليوم

يسمى يوم الجرائم لا يعي أحد إلا تبينت له جرثومة يريج عليها (ولما) رأى الفرس عبور المسلمين سقط في أيديهم ورأوا أن لا قبل لهم بالمدافعة فترك يزدجرد المدينة وهرب قاصداً حلوان (بلدة، بينها وبين بغداد أربعة مراحل وهي منتهى العراق من جهة الشرق وتعد من كور الجبل وهي مبنية على شاطئ نهر متفرع من دجلة وتقابل طبرستان) وكان قد قدم إليها أهله وولده فدخل المسلمون المدينة من غير معارض ونزل سعد القصر الأبيض واتخذ مصلى وقرأ قوله تعالى ﴿ كم زكرا من جنات يعيون وكنوز ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾ وابتدأ يجمع الغنائم والأسلاب وكانت شيئاً عظيماً وأرسل وراء الهاربيين بالأموال والذخائر فأتى بهم ولم يفلت منهم أحد وكان أول من دخل المدائن من جيوش المسلمين كتيبة القعقاع بن عمرو وتسمى الخرساء وبعدها كتيبة عاصم بن عمرو وتسمى كتيبة الأهوال ثم قسم سعد الغنيمة فأصاب الفارس اثنا عشر ألفاً وقسم المنازل بين الناس وأحضر العمالات من العتيق فأنزلهم الدور وصارت المدائن قاعدة لأعمال العراق يقيم بها أميره وكانت أول جمعة جمعت بالمدائن في صفر من السنة السادسة عشرة وأرسل سعد الأخماس إلى عمر ومعهما كل شيء أراد أن يعجب منه العرب وكان فتح المدائن في أواخر السنة الخامسة عشر ولما قدم البشير على عمر بذخاير كسرى قال إن قوماً أدوا هذا لنزوة أمانة فقال له علي (إنك عفت الرعية) وما بعث به إليه بساط لكسرى يسمى القطف وكان ستين ذراعاً في ستين فاستشار عمر أصحابه فيما يفعل به فكلهم أشار عليه بأخذه لنفسه إلا علياً فإنه قال له يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروبة إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له قال صدقتني ونصحتني فقسه بينهم وولى عمر سعد بن أبي وقاص صلاة ماغلب عليه وحر به وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ماسقت دجلة ، وسويدا أخاه على ماسقي

الفرات ثم استعفيا فولى عملهما حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو المزني ثم ولى عملهما بعد حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف .

فتح جلولا

ولما انهزم الفرس ورحلوا عن المدائن اتجهوا شمالا حتى وصلوا جلولا . شرقي دجلة (بلدة على شاطئ دجلة شمال المدائن وهي من أعمال بغداد فافترت بهم الطرق ، أهل أذربيجان يريدون الشمال وأهل أقليم فارس يريدون الجنوب فقالوا إن افرقنا لم نجتمع فهل فلتحتشد لحرب العرب هنا فإن كانت لنا كان ما أردنا وإن كانت علينا كنا شفينا أنفسنا وولوا أمرهم مهرازي وحرثوا حولهم خندقا أحاطوه بحسك الحديد إلا طرفهم فبلغ ذلك سعدا فسرح إليهم ابن أخيه هاشم بن عتبة في اثني عشرة ألفا وجعل على مقدمته القعقاع حسبا أمر عمر فساروا في صفر من السنة السادسة عشرة حتى أتوا جلولا فانحصر الفرس في خنادقهم ثمانين يوما ولا يقدر عليهم المسلمون وبعد هذه المدة انكشف لهم طريق من الخندق كان المشركون أعدوه لسير خيلهم فجمعوا منه وقاتلوه قتالا شديدا شيئا بقتال ليلة الهزير إلا أنه كان أسرع فقتل من المشركين مقتلة عظيمة وانتهى القتال بهزيمتهم إلى خانقين فتبعهم إليها القعقاع والمسلمين وهزمهم منها . أما بزجر دقائه لما بلغه امتلاك جلولا ترك حلوان وتوجه إلى الرى فسار القعقاع إلى حلوان وامتلكها ثم أرسل سعد إلى عمر يخبره بهزيمة الفرس ويستأذنه في اتباعهم إلى داخل بلادهم فلم يرض عمر وقال وددت أن بين السواد والجلب سدا حصينا من ريف السواد فقد آثرت سلامة المسلمين على الفناء والأخماس ولما قدمت عليه الأخماس قال والله لا يجنحها سقف حتى أقسمها فبات عبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانها في المسجد فلما أصبح الصبح جاء عمر فنظر إلى ما في الأخماس من جوهر ودر فبكي

فقال عبد الرحمن ما يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا لموطن شكر
فقال عمر والله ما ذلك يبكيني والله ما أعطى الله هذا قوما إلا تحاسدوا
وتباغضوا ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم ومنع عمر من قسمة السواد
وهو ما بين حلوان شرقاً إلى القادسية غرباً وكان فتح جلولاء في ذى القعدة
من السنة السادسة عشرة وفي جمادى الأولى من السنة السادسة عشرة بلغ
سعداً أن الإنطاق ملك الموصل سار منها إلى تكريت (بلد على شاطئ
دجلة الشرقي شمال بغداد) ومعه جمع كثير من الروم والعرب فسير إليه
عبد الله بن المعتم حسبا أمر عمر فسار عبد الله إلى تكريت وحصرها
أربعين يوماً وفي نهايتها أرسل إلى العرب الذين مع الإنطاق يستميلهم إليه
ويدعوهم لنصرته وخذلان الفرس والأروام الذين ليسوا من جنسهم
فأجابوه لذلك وانهم معه فأرسل إليهم إن كنتم صادقين فأسلوا فهداهم الله
للدين القويم وأسلوا فأرسل إليهم إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أننا قد أخذنا
أبواب الخندق فحذوا الأبواب التي تلي دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم
عليه ثم حمل عبد الله وكبر فكبر العرب فظن المشركون أن المسلمين جاؤهم
من خلفهم مما يلي دجلة فقصدوا أبواب الخندق فأخذتهم سيوف المسلمين فلم
يستطيعوا مدافعة وهرب منهم من أطاق الهرب ودخل المسلمون المدينة .

فتح نينوى والموصل

ثم أرسل عبد الله سرية لفتح نينوى والموصل (بلدان على دجلة بعد
الدرجة السادسة والثلاثين من خط العرض الشمالي الأولى على الشاطئ
الشرقي والآخرى على الغربي) وأرسل في هذه السرية جمعا من العرب
الذين كانوا مع الفرس فسبقوا إلى البلدين أخبروا بفتح وظفر على الفرس
ففتحت لهم الأبواب ولم يلبث المسلمون أن جاؤا من غير معارض فطلب
أهلها الأمان على الجزية فأمنوا وصاروا ذمة ثم قسم عبد الله الغنائم وأرسل
الخنس إلى عمر .

فتح ماسبذان

ثم بلغ سعداً أن جمعاً عظيماً من الفرس تجمعوا بسهل ماسبذان فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب الفهري فشمت شملهم وقام بماسبذان مرابطاً لأنها كانت تُقرأ تؤق المدائن من قبلها .

فتح هيت

ثم أرسل سعد عمر بن مالك بجيش إلى هيت (ناحية من نواحي بغداد) لفتحها فجاء وقد خندق حولها المشركون فحاصرها وفي أثناء الحصار فتح قرقيسياء (بلد على شاطئ الفرات شمالي الأنبار بينها وبين الرقة وهذه واسطة ديار ربيعة التي مركزها نصيبين) ولما رأى أهل هيت أن لا قبل لهم بالحرب أجابوا إلى دفع الجزية وصاروا ذمة .

تخطيط الكوفة

مكثت المدائن قاعدة أعمال العراق منذ فتحت إلى السنة السابعة عشرة فرأى عمر بن الخطاب في وجوه العرب الذين نزلوا بها تغيراً في ألوانهم وضمناً في أبدانهم فكتب إلى سعد أن أبعث سلمان الفارسي وحذيفة ابن اليمان رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر فارسلهما سعد كل واحد من جهة فاجتمعا بالكوفة - ومعناها الرملة الحمراء المستديرة أو كل رملة تخالطها حصباء - فاستحسنها وصليا بها ودعوا الله أن يجعلها منزل الثبات ثم رجعا إلى سعد وأخبراه فأرسل إلى القعقاع وعبد الله بن المعتم أن يستخلفا على جيوشهما ويحضرا ثم سار من المدائن حتى وصل أرض الكوفة فعسكر بها في الحرم من السنة السابعة عشرة ثم استشاروا عمر في البناء بالقصب فأذن لهم ولما حصل فيها الحريق

عقب تخطيطها أستأذنه في البناء باللبن فقال افعلوا ولا يزيدن أحدكم عن ثلاثة آيات ولا تطاولوا في البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة . وكان مخطط الكوفة أبو هياج ابن مالك فجعل النهج (الشارع الأعظم) أربعين ذراعاً وما يليه ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبعة أذرع ليس دون ذلك شيء وجعل القطائع ستين ذراعاً وأول شيء أسس فيها المسجد وبني بحياته داراً لسعد وهي قصر الكوفة والمدينة مبنية على الشاطئ الغربي لنهر الفرات بينها وبينه نحو نصف فرسخ كله حدائق نخل ملتفة يمتد سوادها امتداد البصر والمسافة بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً أي عرض الجزيرة من هناك ، وبعد أن تم تخطيطها نقل إليها العرب الذين بالمدائن بعد أن خيرهم فمن شاء الإقامة بالمدائن تركه ومن شاء الرجوع إلى الكوفة رجع وصارت قاعدة أعمال العراق من ذلك الحين . وفي هذه السنة على ما عليه أكثر المؤرخين أسست مدينة البصرة وهي قريبة من خليج فارس على مجتمع الدجلة والفرات أسسها عتبة بن غزوان بأمر عمر وصارت قاعدة ثانية للعراق لأن عمر قسمه قسمين أعلى وقاعدته الكوفة ووالها سعد وأسفل وقاعدته البصرة ووالها هنتبة رقد كان يتبع الكوفة من ولايات الفرس بعد افتتاحها الباب وأذربيجان وهمدان والرى وأصبهان وماء والموصل وقرقيسياً وكلها في الجهة الشمالية وكان يتبع البصرة خراسان وسجستان ومكران وكرمان وفارس والأهواز .

غزو الفرس من البحرين

كان المسلمون في العصر الأول يتنافسون فيما يقربهم إلى الله فلما رأى العلاء بن الحضرمي أمير البحرين نكاية سعد في الفرس أراد أن يؤثر فيهم أثراً مثله فانتدب أصحابه لذلك فأجابوه فقسمهم ثلاث فرق على إحداها الجارود بن المعلب العبدى وعلى الثانية سوار بن همام وعلى الثالثة خليل

ابن المنذر بن ساوى وهو الرئيس العام وأجازهم الخليج الفارسى لفتح تلك الجملات ولكن مما يؤسف له أن هذا العمل كان بغير استشارة أمير المؤمنين وخصوصاً أن الغزوة من البحر كان مما لا يراه عمر بن الخطاب وكثيراً ما كان ينهى عنه خوف الغرق فغير جيش العلاء البحر وسار حتى أتى اصطخر (وسط إقليم فارس وهى المدينة العظمى فيه) فخرج إليهم جمع عظيم من الفرس وحالوا بينهم وبين مراكبهم فلما علم بذلك خلد خطب أصحابه فقال (أما بعد فإن القوم لم يدهوكم إلى حربهم وإنما جئتم لهم السفن والأرض لمن غلب فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) ثم عبأ جيشه وحمل فقتل من المسلمين الجارود وسوار وقتل من الفرس كثير . ولما رأى المسلمون أن مكثهم قليلون وسط بلاد الفرس تغير بهم أرادوا الرجوع إلى البصرة من طريق البر لأنه لا سبيل لهم إلى السفن فأخذ الفرس عليهم الطريق فمسكروا وامتنعوا لما بلغ عمر فعلة العلاء وحصر المسلمين أرسل لعتبة بن غزوان أمير البصرة أن يجهز جيشاً كثيراً لتخليص المحصورين قبل أن يهلكوا فجهز لهم جيشاً فيه اثنا عشر ألف مقاتل فساروا حتى التقتوا بالمسلمين لإخوانهم من ثم عمل لم يستشر فيه أمير المؤمنين وهذه أول غزوة شرفت بها نابتة البصرة وكان عقاب عمر للعلاء أن صرفه عن إمارة البحرين وسيره إلى الكوفة ليكون تحت إمرة سعد .

فتح الأهواز

قدمنا أن الهرمزان لما انهزم من القادسية قصد الأهواز وملك خوزستان (من كور الأهواز وهى الآن اسم لأقليم فى بلاد الفرس قاعدته آستر وكان يغير على أهل ميسان) كورة بين البصرة وواسط) يأتى إليها من مازندر وهر تيرى (من ثغور الأهواز فأرسل عتبة بن غزوان إلى عمر يخبره بخبر الهرمزان فأرسل عمر إلى سعد أمير الكوفة أن يمد عتبة فأمده

بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان حتى يكونا بين البصرة وثور الأهواز وأرسل عتبة بن سلمى بن القين وحرملة بن مريط فنزلا على ثور البصرة بميسان ودعوا من يقيم هنالك من العرب ليكوفوا مع المسلمين على قتال الفرس فأجابهم بنو العم وكانوا ينزلون قبل الإسلام بخوزستان فأتعد الأميران مع رئيسين من هؤلاء العرب على أن يثور أحدهما بمناذر والآخري بنهر تيرى في يوم عيناه لهما فلما كان هذا اليوم أنشب جيشا البصرة والكوفة القتال مع الهرمزان وبينهما هو يقاتل إذ جاءه الخبر بأخذ مناذر ونهر تيرى فانكسرت نفسه وانهم جيشه فاتبعهم المسلمون إلى شاطيء دجيل (شعب من دجلة بالأهواز) وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وطلب الصلح فصرح على مادون مناذر ونهر تيرى المأخوذين عنوة وأقيمت فيها حامية وكان فتح الأهواز في السنة السابعة عشرة ورجع باقى المسلمين إلى البصرة ومعهم بنو العم الذين هدوا للإسلام فأرسل عتبة وفدأ منهم إلى عمر وفيهم الأحنف بن قيس فلما وصلوا إليه طلب من كل منهم أن يرفع إليه حاجة فطلب كل واحد منهم خاصة نفسه إلا الأحنف بن قيس فإنه قال (يا أمير المؤمنين لقد يعزب عنك ما يحق لنا لإنهائه إليك بما فيه صلاح العامة وإنما ينظر الوالى فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر ويسمع بأذانهم) ثم ذكر حال البصرة وحال الكوفة وبين ما امتاز به الكوفيون عن إخوانهم البصريين وقال فى آخر كلامه (وقد وسع الله علينا وزادنا فى أرضنا فوسع علينا أمير المؤمنين وزدنا طبقة تطوف علينا ونعيش بها) فلما سمع قوله أحسن إليهم وأقطعهم عما كان لأهل كسرى ثم قال إن هذا الفتى سيد قومه وكتب إلى عتبة أمير البصرة أن يسمع منه ويرجع إلى رأيه .

انتفاض الهرمزان

(ثم) إن الهرمزان انتقض بعد الصلح لخلاف حصل بينه وبين حامية مناذر ونهر تيرى فى تحديد التخوم واستعان بالأكراد فكتب عتبة إلى عمر

يخبره بذلك فأجابه بأن يقصده وأمد المسلمين بحرقوص بن زهير السعدي وأمره على القتال وعلى ماغلب عليه فسار وسار معه جيش البصرة حتى أتى جسر سوق الأهواز وعبره وقاتل الهرمزان وهزمه وبعث في أثره جز بن معاوية ففتح سوق الأهواز وأعجزه الهرمزان فزال إلى مدينة سوق (قاعدة كورة بالأهواز) وفتحها ودعا من هرب للرجوع ودفع الجزية فأجابوا وأقام هناك والياً فعمر البلاد وشق الأنهار وأحيا الموات (ثم) إن الهرمزان راسل حرقوصاً في طلب الصلح فأجابه بعد استئذان عمر وأقام الهرمزان والمسلمون يمنعون من الأكراد ونزل حرقوص جبل الأهواز فشق ذلك على المسلمين وأهل الذمة فكتب إليه عمر أن أنزل السهل والألتشق على مسلم ولا معاهد وأن لاتدركك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك وفي هذا الوقت ولي عمر البصرة المغيرة بن شعبة بعد وفاة أميرها عتبة بن غزوان رضى الله عنه ثم عزله وولى عليها أبو موسى الأشعري وأعانه بتسعة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أنس ابن مالك وعمران بن حصين وهشام بن عامر (وفي) عهد أبي موسى كان يزدجرد ملك الفرس يمدعو الفرس للأخذ بناصره واسترداد ملكهم فتحركوا وكاتبوا أهل الأهواز الذين صالح عليهم الهرمزان فبلغ ذلك ولاية الأهواز فأرسلوا إلى عمر بالخبر فكتب إلى سعد أمير الكوفة أن يسير إلى الأهواز جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرن وأرسل إلى أبي موسى أمير البصرة أن يسير إليها جنداً كثيفاً مع معد بن عدى وأن يكون قائد الجيشين أبو سبرة بن أبي برهم فسار النعمان بن مقرن مع جيشه حتى وصل رامهرمز (بلد بخوزستان) والهرمزان بها عاص فقاتله النعمان حتى هزمه فلحق بمصر (من مدن الأهواز قريبة من السوس) فلك النعمان رامهرمز .

فتح تستر

ولما وصل جيش البصرة إلى الأهواز نزلوا سوقها وكانوا يريدون رامهرمز فبلغهم خبر الواقعة وأن الهرمزان لحق بتستر فقصدها وكذلك النعمان وولاية الأهواز ونزل الجميع عليها والفرس مخندقون حولها فأقام المسلمون على حصارها وبمن أبي في فيه بلاء حسناً البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وعدة من أهل البصرة والكوفة ولما اشتد الحصار على أهل تستر خرج منهم رجل فاستأمن المسلمين على أن يدهم على مدخل يدخلون منه المدينة فأمنوه فدهم على مدخل الماء فانتدب قائد الجيش من يسير مع الرجل فأجابه عدة من أهل البصرة والكوفة ودخلوا من هذا السرب والمسلمون ينتظرون تكبيرهم فلما وصلوا المدينة كبروا فكبر المسلمون وفتحت الأبواب ومن قاتل قتل وتحصن الهرمزان بقلمة المدينة فأطافوا به فطلب منهم النزول على حكم عمر فقبلوا ذلك منه وقتل في هذا الحصار البراء بن مالك ومجزأة بن ثور .

فتح السوس

ثم سار الجيش حتى بلغ السوس (قاعدة كورة بالأهواز) وفتحها صلحاً ثم سير الأمير سرية لفتح جند نيسابور فصالح أهلها وبعد تمام الفتح سير أبو سبرة إلى عمر وهدأ فيهم الأحنف بن قيس وأنس بن مالك ومعهم الهرمزان .

وفود الهرمزان

فلما قدموا المدينة ألبسوا الهرمزان كسوته من الديباج الذي فيه الذهب وتوجه وكان مكلاً بالياقوت وحليته إيراة عمر والمسلمون ثم توجهوا إلى

عمر في المسجد فوجدوه نائماً والدرّة في يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا
ها هو قال فأبن حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال
فينبئني أن يكون نبياً قالوا بل يعمل بعمل الأنبياء فاستيقظ عمر وأخبر
بالهرمزان فنظر إليه وقال (الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه)
ثم أمر بنزع ما عليه وأن يلبس ثوباً صفيقاً ثم قال له عمر كيف رأيت
عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله فقال يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد
خلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا فقال له عمر (إنما
غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقتنا) ثم قال عمر ما حجتك وما هذرك
في انتفاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك فقال
لا تخف ذلك واستسقي ماء فأنى به في قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم
أستطع أن أشرب في مثل هذا فأنى به في إناء يرصاه فقال أخاف أن أقتل
قبل أن أشرب فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر
أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش فقال لا حاجة لي في الماء
وإنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر إني قاتلك قال قد أمنتني فقال عمر
كذبت فقال أنس بن مالك صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته قال عمر يا أنس
أنا أو من قاتل البراء بن مالك ومجزأة بن ثور والله لتأتين بمخرج أو
لأعاقبك قال قلت لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك حتى تشربه
وقال من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع
إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وصار من التابعين بإحسان ففرض له عمر العطاء
على ألفين وكان يترجم بينهما المغيرة بن شعبه ثم قال عمر للوفد لعل
المسلمين يؤذون أهل الذمة فلذلك ينتقضون قالوا ما نعلم إلا وفاء قال
فكيف هذا؟ فقال الأحنف بن قيس يا أمير المؤمنين إنك نهيتمنا عن
الانسياح في البلاد وإن ملك فارس بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلوننا مادام
ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما الآخر وقد

رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تاذن لنا بالانسياب فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم فهناك ينقطع رجاؤهم فقال عمر صدقتي والله وصمم على اتباع مشورته .

وقعة نهاوند

أما ملك الفرس فإنه لما اجتمعت له الجموع بنهاوند (من بلاد الجبل جنوبي همدان) سار إليهم من مرو وقام بمساعدته الملوك بين الباب والسند وخراسان وحلوان (هذه حدود المملكة الفارسية من الشمال والجنوب والشرق والغرب) فكتب سعد إلى عمر بالخبر وفي هذا الوقت اشتكى سعداً جماعة من أهل الكوفة وأتهموه بأنه لا يعدل فقال عمر والله لا يمنعني ما نزل بالمسلمين عن النظر في شكواهم واستقدم سعداً فخلف على عمله عبد الله بن عتيان وتوجه إلى المدينة وحقق عمر ما نسب إلى سعد بواسطة محمد بن مسلمة الذي كان يقتص آثار من شكوا من العمال فوجده بريئاً ولكن عمر كان يجب ألا يكون بين الرئيس والمرموس بغضاً لأن ذلك يؤدي إلى الفشل والخيبة فعزله وولى على الكوفة النعمان بن مقرن المزني وكان قد اقتحم جند نيسابور والسوس في جمع من أهل الكوفة فأرسل إليه عمر عهد الولاية وهذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان ابن مقرن سلام عليك : فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو .

أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توأطهم وعرأ فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم

فتكفرهم ولا تدخلهم غيضة فإن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار والسلام عليك (من تاريخ الطبري) وأمره بالمسير إلى ماه لتجتمع عليه الجيوش هناك ثم يسير بهم إلى نهاوند وكتب إلى عبد الله ابن عبد الله خليفة سعد على الكوفة يأمره باستنفاذ الناس للتوجه إلى النعمان وأرسل إلى جند الأهواز يأمرهم بالمقام به ليكونوا حائلا بين أهل أقليم فارس وبين المجتمعين بنهاوند فلما اجتمعت الجيوش عند النعمان أرسل عمر بن ثني وعمر بن معد يكره وطليحة بن خويلد يكتشفون الطريق بين ماه ونهاوند فأما عمر بن ثني فرجع من ليلته فقيل له ما أرجعك فقال لم أكن بأرض العجم وقتلت أرض جاهلها وقتل أرض عالمها وأما عمرو ابن معد يكره فرجع صبيحة اليوم الثاني فستل عما رآه فقال سرنا يوماً وليلة فلم نر شيئاً وأما طليحة فلم يزل سائراً حتى رأى جيش الفرس وعرفه فرجع وأخبرهم أن ليس بينهم وبين نهاوند شيء يكرهونه فسار النعمان بالجيش وعلى مقدمته أخوه نعيم بن مقرن وعلى بجانبه أخوه سويد ابن مقرن وحذيفة بن اليمان وعلى المجردة القعقاع وعلى الساقة مجاشع ابن مسعود وجاءهم مدد من المدينة عليهم المغيرة بن شعبة فلما وصلوا نهاوند كبر النعمان فكبر الجند ثم حطوا الأثقال وضرب فسطاط النعمان أكابر الكوفة حذيفة بن اليمان وعقبة بن عامر والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب وجرير بن عبد الله والأشعث بن قيس وغيرهم فلم ير بناء فسطاط بالعرب كمؤلاء ثم أنشب المسلمون القتال فقاتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس وفي يوم الجمعة انحجز الفرس في خنادقهم يخاف المسلمون أن يطول عليهم الانتظار فتشاؤروا فيما يفعلون ثم أقروا على أن يأمرُوا القعقاع بإنشأب القتال فإذا قاتله الفرس أظهر الهزيمة أمامهم فإذا تبعوه وصاروا بين المسلمين قاتلوهم ويقضى الله ما يشاء فأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل فخرج الفرس من خنادقهم فأظهر القعقاع الهزيمة أمامهم

فتبعوه فرحين لأنهم لم يروا مثل ذلك من المسلمين قبل الآن ولم يزالوا حتى قاربوا الجيش فأمر النعمان جنده ألا يجاربوا حتى يأذن لهم وانتظر الساعة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب ألا يقاتل فيها إذا زالت الشمس فلما حانت حمل وكبر فتبعه المسلمون وقال إن قتلت الأمير بعدى حذيفة وقاتل المسلمون والفرس قتالا لم يروا مثله ولا يوم القادسية وفي أثناء القتال استشهد النعمان فسجاه أخوه نعيم وكنتم موته عن الجند لثلاث يهنوا وأخذ الراية حذيفة واستمر القتال إلى آخر النهار ولما أظلم الليل انهزم الفرس وعمى عليهم الطريق فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذي كانوا يعبدونه فوقع فيه كثير منهم ولم يفلت إلا الشريد ونجا الفيرزان من بين الصرعى فذهب شمالا نحو همدان فتبعته فصيلة من الجيش وقتلوه بثنية همدان وفتحوا همدان صلحاً ولما بلغ الماهين هذا الخبر بادروا إلى طلب الصلح فأجيبوا وهذا نص كتاب عهدهم عن الطبرى .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماء بمراذان أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضهم لا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائمهم ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقرؤا جنود المسلمين ممن مر بهم فأوفى إليهم يوماً وليلة ووفوا ونصحوا فان غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة) شهد القعقاع ابن عمرو ونعيم بن مقرن وسويد بن مقرن وكتب في المحرم سنة ١٩ ثم عادت السرية وجمع المسلمون من الغنائم والأسلاب شيئا كثيراً وكان الذى يحسب لهم ويكتب السائب بن الأقرع فأرسله حذيفة بالخنس والبشارة فلما قارب المدينة وجد عمر خارجا يتنسم الأخبار لأنه قدر الواقعة قبلها فبات يتمللق فلما رأى السائب قال ما وراءك قال خيرا يا أمير المؤمنين فتح الله عليك

وأعظم الفتح واستشهد الزمان بن مقرن قال عمر (لإن الله ولإننا إليه راجعون) ثم بكى فنشج حتى باتت فروج كتفيه فوق كتفه : فلما رأى السائب ذلك قال يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده رجل يعرف وجهه فقال أولئك المستضعفون من المسلمين ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم وما يصنع أولئك بمعرفة عمر . وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف وسمى المسلمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يقم للفارس بعده قائمة وما يستحق الذكر أن المسلمين عثروا في غنائم نهاوند على سفطين مملوئين جوهرأ نفيساً من ذخائر كسرى فأرسلهما حذيفة أمير الجيش إلى عمر مع السائب فلما أوصلهما له قال ضمهما في بيت المال والحق بجندك فركب راحلته ورجع فأرسل عمر وراه رسولا يخب السير في أثره حتى لحقه بالكوفة فأرجمه فلما رآه عمر قال مالي والسائب ما هو إلا أن نمت الليلة التي خرجت فيها فباتت الملائكة تسحبنني إلى السفطين يشتعلان ناراً يتوعدوني السكى إن لم أقسمهما بخذهما عنى وبهما في أرزاق المسلمين فيبعا بسوق الكوفة فرضى الله عنك يا عمر لقد سرت بسيرة نبيك فعزيزت وأعززت بالإسلام والمسلمين اللهم ألهمنا الاتباع واكفنا شر الابتداع (ثم) رجع حذيفة بجيشه بعد وقعة نهاوند فائزاً منصوراً .

فتح همدان

وبينا هو راجع بلغه أن أهل همدان انتقضوا بعد الصلح فابلق الخبر عمر فأمره أن يسير إليها فعم بن مقرن فرجع إليها من الطريق على تعبئة واستولى على بلادها جميعاً وحاصرها هي فطلب أهلها الصلح فصولحوا على الجزية ثم توجه إلى واج رود حيث تجمع الديلم وأهل أذربيجان وأهل الري فقاتلهم فعم قتالاً شديداً حتى هزمهم وأرسل إلى عمر بالخبر فأمره بقصد الري (بلد قرب طهران في جنوبها الشرق) فسار حتى قدمها فخرج

إليه رئيس جندها أبو الفرخان طالباً الصلح ومخالفاً لملكها فاستمد الملك من جاوره فأمدوه والتقى معهم نعيم في سفح جبل الري قريباً من المدينة وقاتلهم قتالاً شديداً ولما رأى أبو الفرخان أن الأمر سيطول طلب من نعيم أن يعطيه فصيلة من الجيش يدخل بها المدينة من حيث لا يشعر الفرس فسير معه جماعة دخل بهم المدينة كما قال . أما نعيم فبيت القوم فقاتلوه ولكنهم لما سمعوا التكبير من ورائهم انهزموا شرهزيمة وأفاء الله على المسلمين في الري نحواً مما حازوه في المدائن وجعل نعيم أبا الفرخان والياً على المدينة وكتب إلى عمر بالفتح فأرسل إليه أن سير أخاك سويداً إلى قومس (صقع بين خراسان وبلاد الجبل) فسيره إليها فلم يقف في وجهه أحد فأخذها سلباً وعسكر بها ثم كتب إليه أهلها في الرجوع إلى بلادهم ودفع الجزية فأجابهم وكتب لهم كتاباً هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومن حشوا من الأمان ، على أنفسهم وملئهم وأموالهم ، على أن يؤدوا الجزية عن كل حالم بقدر طاقته ، وعلى أن يدلوا ، وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم ، وإن بدلوا واستخفوا بعمدهم فالذمة منهم بريئة ، وكتب وشهد وسار إلى جرجان (بلد شمالي بلاد فارس) وعسكر قريباً منها ، فأرسله لملكها على الصلح ودفع الجزية فأجابه بنجرج إليه الملك وتلقاه خارج المدينة ، ثم دخل معه وعسكر بها وجبى الخراج : وفيها أرسله صاحب طبرستان (إقليم في الشمال) في الصلح على أن يتوادعا ويجعل له شيئاً على نصر ولا معونة على أحد فأجابه وكتب له كتاباً هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان اصهبيلد خراسان على طبرستان وجييلان من أرض العدو . إنك آمن بأمان الله عز وجل على أن تكف بصوتك وأهل حواشي أرضك ، ولا تؤوى

لنا بغية ، وتتنى من ولى فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك ، ولا يتطرق أرضك ، ولا يدخل عليك إلا بإذنك ، سئيلنا عليكم بالأذان آمنة وكذلك سئيلكم ، ولا تؤون لنا بغية ، ولا آسلون لنا إلى عدو ، ولا تغلون ، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم شهد سواد بن قطبة النيمي وهند بن عمرو المرادى وسماك ابن مخزومة الأسدى بن عبيد الله العيسى وعتيبة بن النهاس البكرى .

ثم أرسل عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن عبيد الله بن عتبان أمير البصرة قبل المغيرة بأمره أن يسير إلى أصبهان ، وأمر أبا موسى الأشعري أن يكون مدداً له ، فسار عبد الله حتى وصل أصبهان (في العراق العجمي) ، وعلى جندها الاسيذان ، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً انتهى بهزيمة المشركين ، فطلبوا الصلح فوصلوا ؛ ثم سار عبد الله إلى مدينة جى وهى قاعدة أصبهان فحاصرها ثم صالحه الفاذوستان وهو أمير أصبهان عليها مشترطاً الجزية على من أقام وأقام على ماله ، وأن يجرى من أخذت أرضه عنوة مجراه ، ومن أبى وذهب كانت لىم أرضه .

الانسياح فى بلاد العجم

ولما رأى عمر رضى الله عنه أن شوكة الفرس قد ضعفت فلم يعد يخاف على المسلمين من انسياحهم فى بلاد الفرس صمم على اتباع مشورة الأحنف ابن قيس فأرسل إلى أبى موسى الأشعري الذى قدمنا أن عمر ولاء البصرة بعد المغيرة بن شعبه وأمره أن يسير منها غير بعيد ويقيم حتى يأتيه أمره ، ثم بعث إليه مع سهيل بن عدى بالوية الأمراء الذين يسبحون فى بلاد بلاد العجم : لواء للأحنف بن قيس ووجهه (خراسان) ولواء لمجاشع بن مسعود السلمى ووجهته (أزدشير خره وسابور) ولواء لعثمان بن أبى العاص

التغني ووجهته (اصطخر) ولواء لساربه بن زنم الكتاني ووجهته
(فساونديز) ولواء لسهيل بن عدى ووجهته (كرمان) ولواء لعاصم
ابن عمرو ووجهه (سجستان) ولواء للحكم بن عمير التغلبي ووجهته (مكران)
وكان مبدأ الانسياح في مبدأ السنة الثامنة عشر .

فتح أذربيجان

فسار بكير بن عبد الله إلى أذربيجان (ولاية في الغرب من بحر الخزر
وقاعدتها الآن تبريز) وكتب إلى نعيم بن مقرن فاتح الروى أن يمد به بسماك
ابن خرشة فلما طلع بكير بجبال جرميدان قابله المنهزمون من واج روذ
وعليهم اسفنديار أخو رستم قتيل القادسية فقاتلوا بكيرا ولكنهم انهزموا
وأمر اسفنديار فقال لبكير السلم أحب إليك أم الحرب قال بل السلم فقال
لا تقتلني وأمسكني معك فإن أذربيجان لا يصالحونك مالم أصلحك فأمسكه
بكير وبعد قليل وصل إليه مدد نعيم فسار الجميع إلى أذربيجان فصالح أهلها
على الجزية وكتب بكير إلى عمر بذلك فأمره أن يولى عتبة بن فرقد على
أذربيجان ويتقدم هو مدداً لجيش الباب فكتب عتبة لأهل أذربيجان كتاباً
هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر
ابن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان مهملها وجبلها وحواشيها وشعابها
وأهل ملها كافة على الأمان على أنفسهم وأموالهم وملهمهم وشرائعهم على
أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن ليس
في يديه شيء من الدنيا ، ولا متعب ولا متخل ليس في يديه من الدنيا شيء ،
لهم ذلك ولين سكن معهم وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة
ودلالته ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ومن أقام فله

مثل ما لمن أقام من ذلك ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه
وكتب جندب .

فتح الباب

وسار سراقه بن عمر إلى الباب (ثغر بالخزور وهو الفاصل بين الفرس
وأرمينية والروس) وعلى مقدمته عبد الرحمن بن أبي ربيعة وقد سبقه بكير
إليها وانتظره فلما أطل عبد الرحمن بن أبي ربيعة أمير المقدمة على الباب
والملك بها يومئذ شهريراز ، كاتب عبد الرحمن في الصلح فأجابه إليه بخامه
وقال له إني يازاء عدو كلب وأمم مختلفة ليست لهم أحساب ولا ينبغي لذي
الحسب والعقل أن يعينهم ولست من الفتح ولا الأرمين في شيء وإنكم قد
غلبتم على بلادى وأمتى فأنا فيكم وبدي في أيديكم وجزيتي اليكم والنصر لكم
والقيام بما تحبون فلا تسومونا الجزية فتضعفوننا بعدوكم فأرسله عبد الرحمن
إلى سراقه فكلمه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال له سراقه لا بد من الجزية على
من أقام ولم يحارب العدو فأجابه إلى ذلك وصدق عليه عمر فكتب لهم سراقه
كتابا هذا نصه .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى سراقه بن عمرو وعامل
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهريراز وسكان أرمينية والأرمين من الأمان
أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وملتهم أن لا يعناروا ولا يتقصوا وعلى
أهل أرمينية والأبواب الطراء منهم والثناء ومن حولهم فدخل معهم أن
ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا على
أن يوضع الجزاء عن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من
جزائهم ومن استغنى عنه منه وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من
الجزاء والدلالة والنزل يوما كاملا فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا
أخذوا به ولما فرغ سراقه من الباب سير السرايا إلى الجبال المحيطة

بأرمينية فوجه بكير بن عبد الله إلى موقان (كورة بأرمينية) وحبيب
ابن مسلمة إلى تغليس (بلد في القوقاز من أملاك الروس الآن) وحذيفة
ابن أسيد إلى جبال اللان (أمة وبلاد في طرف أرمينية وسلمان بن ربيعة
إلى الوجه الآخر فافتتح بكير موقان وصالح أهلها وكتب لهم هذا الكتاب

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى بكير بن عبد الله أهل موقان
من جبال الفتح الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم على الجزاء
دينار عن كل حامل أو قيمته والنصح ودلالة المسلم ونزله يومه وليدته فلمهم
الأمان ما أوفوا ونصحوا وعلينا الوفاء والله المستعان فإن تركوا ذلك
واستبان منهم غش فلا أمان لهم إلا أن يسلبوا الغششة برئتهم وإلا فهم
مناوون كتب (سنة ٢١) وكتب سراقه إلى عمر بذلك ثم توفي سراقه
رضي الله عنه واستخلف على جيشه عبد الرحمن بن أبي ربيعة فأقره عمر
وأمره أن يغزو الترك فخرج حتى قطع الباب فسأله شهريراز عن وجهته
فقال أريد بلنجر (بلد بالخزر خلف باب الأبواب) والترك فقال إنا
لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب فقال عبد الرحمن لكننا لا نرضى
حتى نغزوهم بلادهم وبالله إن معنا أقواما لو يأذن لهم أميرنا في الأمان
لبلغت بهم الردم فقال شهريراز ومن هم قال أقوام صحبوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم ودخلوا في هذا الأمر بنية ولا يزال هذا الأمر فيهم حتى يغيرهم
من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم فسار حتى بلغ بلنجر فلما رآه أهلها قالوا
ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة ولم يقفوا في وجهه ولم يزل حتى أبلغ خيله
البيضاء على مائتي فرسخ من بلنجر ورجع ولم يصب أحد من جيشه وأقام
هناك والياً على جيش الباب .

فتح خراسان

وسار الأحنف بن قيس إلى خراسان ليلاقي يزيدجرد ملك الفرس

الذي أقام بمرور يثير الفرس على المسلمين فلما بلغ هراة (بلد من إقليم خراسان وهي الآن من بلاد الأفغان) افتتحها ثم سار نحو مرو والشاهجان فخرج منها يزدجرد ولحق بمرور الروذ (كلاهما بين هراة وبلخ) وكتب إلى خاقان الترك وإلى ملك الصغد وملك الصين يستمدهما فلك الأحنف مرو والشاهجان واستخلف عليهما ثم سار نحو مرو الروذ وخرج منها يزدجرد ولحق ببلخ (بلد قريب من نهر جيحون وهي الآن تحت حماية الروس) فلك الأحنف مرو الروذ وهنا أتمه أمداد أهل الكوفة فسيرهم أمامه إلى بلخ فساروا حتى التقوا بيزدجرد هناك وقاتلوه فمزموه حتى عبر النهر ولم يدرك الأحنف ومن معه الموقعة حيث أتى بعد الهزيمة فرجع إلى مرو وأقام بها وأرسل إلى عمر بالفتح والأخماس وأخبره بعبور يزدجرد النهر فنهأ عمر عن العبور خلفه . أما يزدجرد فجاءته بعد عبوره أمداد الترك وعليهم خاقان وأمداد أهل فرغانة والصغد فعدى بهم النهر راجعاً وترك الترك أمام الأحنف وجيشه بمرور الروز وقصد يزدجرد مرو والشاهجان فحصر حاميتها واستخرج منها خزائنه وأراد أن يرحل بها إلى فرغانة أو الصين فيقيم باحداهما فلم يمكنه من ذلك أهل خراسان قائلين ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فصالحهم فإنهم أرفياء وأهل دين وإن عدوا يلينا في بلادنا أحب إلينا من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندرى ما قاؤهم فلم يقبل فأخذوا منه الخزانة قهراً فلحق بخاقان ملك الترك الذي لم يتمكن من الوقوف أمام المسلمين وجاء الخراسانيون إلى الأحنف فصالحوه ودفعوا إليه خزانة كسرى وتراجعوا إلى بلدانهم وأما وهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسة واعتبطوا بملك المسلمين حيث أن الرجل منهم لم يكن مكلفاً إلا بدفع شيء قليل جزاء حمايته وبعد ذلك ماله وعرضه ودمه كمال المسلم ومرضه ودمه محرم كحرمة اليوم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام وناهيك بمن اعتبره المسلمون في ذمة الله فكيف تخفر وليس عليه بعد ذلك إلى النصيحة للمسلمين وعدم

المالأة عليهم فإن فعل شيئاً من ذلك فقد غدر وايست له ذمة فدمه حلال وماله حلال وهذا شيء يسير على الإنسان ما دامت له الحرية في دينه وعمله وهذا ما قرره دين الإسلام .

وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية ثم سار الأحنف إلى بلخ وأزله أهل الكوفة لأنها من فتوحهم وكتب بكل ذلك إلى عمر وأقام هو والى خراسان وتمت حديث يزدجرد ستأتي في خلافة عثمان ابن عفان رضى الله عنه .

وسار عثمان بن أبي العاص الثقفي إلى اصطخر فالتقى هو وأهلها بجور (هي مدينة فيروز آباد قريية من أصهبان ينسب إليها الورد الجورى) فهزمهم ثم رجع من فروا منهم طالبين البقاء في بلادهم مع دفع الجزية فأجابهم ثم فتح كازرون والنوبندجان (قاعدة كورة بفارس اسمها سابور) واشترك هو وأبو موسى الأشعري في فتح شيراز (قسبة بلاد فارس) وأرجان وسينيز وقصد عثمان جنابة (بلد بفارس تحاذى جزيرة خارك بالبحر الفارسى وتقرأ الآن كرك وهو غلط مصدره الترجمة) ففتحها واتى جمعاً من الفرس بناحية شهر ك فهزمهم ثم أقام والياً باصطخر .

فتح فسا ودرا بجرد

وسار سارية بن زعيم الكلابي إلى مدينة فسا ودرا بجرد والتقى مع أهلها بصحراء فاقتتلوا ثم إن الفرس استمدوا من بقربهم من أكراد فارس فأمدوهم فدهى المسلمين أمر عظيم وكان عمر رضى الله عنه قدر أى ليلة الواقعة فيما يرى النائم ما عليه المسلمون فلما أصبح نادى بالصلاة جامعة حتى إذا كانت الساعة التى رأى فيها ما رأى خرج إلى المسلمين وكان سارية ومن معه يصحراء إن أقاموا فيها هلكوا وإن استندوا إلى جبل خلفهم لم يؤتوا

إلا من وجه واحد فقام عمر فقال يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما ثم صاح وهو يخطب ياسارية بن زعيم الجبل الجبل ثم أقبل على المسلمين وقال إن لله جنوداً ولعل بعضها أن تبلغهم فيحول الله وقوته سمع سارية هذا الصوت فأنحاز بمن معه إلى الجبل وقاتل العدو حتى هزمهم فأرسل إلى عمر بالفتح والخمس ومعه سقط فيه جوهر فلما رآه عمر لم يقبله ورده لبياع ويقسم على الفاتحين وسأل من في المدينة رسول سارية هل سمعتم شيئاً يوم الواقعة قال نعم سمعنا ياسارية الجبل الجبل فلجأنا إليه وقد كدنا نهلك وأقام سارية والياً على درابجرد .

فتح كرمان

وسار سهيل بن عدى إلى كرمان ، ولاية تلي إقليم فارس من الشرق وقصبتها كرمان وأمه عمر بعبد الله بن عبد الله بن عتبان فلما وصلها وجد بها جمعاً عظيماً من الفرس فقاتلهم حتى فض الله جمعهم وقتل مرزبان كرمان فدخلها المسلمون ظافرين ووجدوا فيها كثيراً من البعير والشاة .

فتح سجستان

وسار عاصم بن عمرو إلى سجستان ، ولاية شرقي كرمان أغلبها الآن في أيدي الأفغان وقصبتها زرنج ، فاستقبله أهلها بحرب انتهت بهزيمتهم فتبعهم المسلمون حتى حصروهم بزرنج فطلبوا الصلح على زرنج وما احتازوه من الأرضين واشترطوا أن فداها حمى فأجيبوا وكان المسلمون يتجنبون هذه الفدافد خشية أن يصبوا منها شيئاً فيكونوا قد خفروا الذمة وهو أمر نهوا عنه .

فتح مكران

وسار الحكم بن عمير التغلبي إلى مكران ولحقه سهيل بن عدى فاتح كرمان

وعبد الله بن عبد الله بن عتيان الذي كان مدداً لسهيل فساروا حتى انتهوا إلى حوین النهر (على الحدود بين الفرس والسند) والمشركون من مكران على شاطئه وأمدم ملك السنم بجيش كثيف فقاتلهم المسلمون حتى هزموهم وأوصلوهم النهر ثم رجع المسلمون إلى مكران وكتب الحكم بالفتح والخمس إلى عمر مع صحار العبدى فسأله عمر عن مكران فقال يا أمير المؤمنين هي أرض سهلها جبل وماؤها وشل وثمرها وقل وعددها بطل وخيرها قليل وشرها طويل والكثير فيها قليل والقليل فيها ضائع وماوراءها شر منها فقال عمر أجماع أنت أم مخبر ولا والله لا يغزوها جيش لي أبداً وكتب إلى الحكم يأمره بالوقوف عندما فتح وألا يجوز مكران .

هذا ما فعله المسلمون من الأفعال العظيمة مدة عمر في البلاد الفارسية ذات الشوكة والعظيمة ابتداءً سنة اثنتى عشرة من الهجرة في فتح أول بلد من بلادهم وهي الأبله واستمروا على الفتوحات إلى أن مات عمر رضى الله عنه ، تمموا فتح بلاد تبتدىء من حدود بلاد العرب غرباً وتنتهى إلى ماوراء النهر وبلاد السند شرقاً والخليج الفارسي جنوباً وبحر الخزر وارمينية والروس شمالاً . اجتمعوا مع الفرض في كثير من الوقائع أشهرها ووقعة الأبله لخالد بن الوليد ووقعة القادسية لسعد بن أبي وقاص وناهوند للنعمان ابن مقرن ووقعة يزجرد للأحنف بن قيس وكثير غيرها ، لم تنكس لهم راية ولم يقل لهم جيش لم ير المسلمون في ووقعة من الوقائع مساوين أقرانهم من الفرس في العدة والعدد بل كان الفرس في كل ووقعة أضعافهم . لم يكن العرب أعلم من الفرس بتعبية الجيوش ولا بإحكام معدات الدفاع . لم يكن المسلمون أكثر من الفرس ما لا حتى يمكنهم أن يستميلوا به أعداءهم ليكونوا معهم بل حالهم من الشظف وضيق العيش لا تخفى ، لم يكن المسلمون أعلم من الفرس بطرق الدسائس والخديعة حتى يستعملوها في حروبهم فلم إذا هذه

الانتصارات الباهرة والفتوحات العظيمة ؟ اللهم ما ذلك إلا بالتأييد الإلهي اكتسبوه باتحاد وانتلاف قلوبهم حتى صاروا أجساماً متعددة لم قلب واحد ورأى واحداً وهو تميم الدين الإسلامي بين الأمم الحائدة عن الصراط السوى والمنهج القويم . انظر رعاك الله إلى ما كان به رسل سعد ملوك فارس وقواده تزه جواباً واحداً وهو أن الله أرسلنا لنخرج العباد من ظلمات الجهالة وجور الملوك إلى نور الإيمان وعدل الإسلام كلهم في ذلك سواء حتى الأعرابي الجاني الذي كان قبل الإسلام لاهم له إلا النهب والغارة . لم تكن خلفاؤهم بالجبناء الذين يخشون تهديداً أو يخافون وعيداً ولم تكن قوادهم بالدخلاء الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ولم تكن الأمة بالمختلفة الأهواء المتشعبة المذاهب تشتغل بسفسف الأمور وتترك عظيمها أو تترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخوف أو جبن ولم تكن علماءهم يشتغلون بالزهو والكبرياء والعجب والتفاني في حب الدنيا وتقليد المناصب والمفاخرة بذلك حتى تدب بينهم العداوة والبغضاء ولم يكن الدين قد بليت جدته بل كانت مظاهره تتجلى على أقوالهم وأعمالهم لا يخشون في الله لومة لائم فلا عجب أن انتصروا وفتحوا وملكوا في زمن يسير ما لا يتصور أن تعمله أمة عظيمة عندها بسطة في القوة والمال والعلم . اللهم ألهم المسلمين وولاة أمورهم ما فيه السداد فإن الطريق واضح والحق بين فإذا انتبعت البصائر ، رشدت إلى ما فيه خيرى الدنيا والآخرة وحسيننا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فتح بلاد الشام

تركنا المسلمين فائزين منصورين باليرموك بعد موقعها الهائلة وأمير الجند أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح العامري القرشي بعد سيف الله خالد بن الوليد المخزومي القرشي وحينئذ بلغ الأمير أن فل الروم لحقوا

بفعل وأن مدداً عظيماً من قبل ملك الروم أتى دمشق فكتب إلى أمير المؤمنين يستشير به بأى البلدين يبدأ فكتب إليه أن سير إلى خل فرقة تشغل من بها وسر أنت إلى دمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكه . فسير أبو عبيدة فرقة من جيشه إلى خل فخاصرتها وسير أخرى لتكون بين حصص ودمشق لتمنع الأمداد عنها وأخرى لتكون بين دمشق وفلسطين وتوجه هو وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى دمشق واستخلف على فلسطين والأردن عمرو ابن العاص .

فتح دمشق

فلما وصل إلى دمشق تحصن أهلها فحصرهم المسلمون أبو عبيدة من جهة وخالد بن الوليد من أخرى ودام الحصار سبعين ليلة وبينما خالد على حصاره ليلة سمع جلبة فأرسل من يستعلم الخبر لأنه كان يتجسس أحوال عدوه فلا يخفى عليه منها شيء لينتزم الفرصة فعلم أن ولد ابطريق المدينة ولد فصنع ولية سكر فيها الجند سكرأ شديداً فاتخذ خالد حبالاً على هيئة السلام وأوقاها ثم نهض هو ومن معه من أرباب النجدة وهو أمامهم ومعه القمعاق (قبل أن يتوجه للعراق) وأمثاله وقال خالد لمن معه إذ سمعتم تكبيرنا على السور فاقصدوا الأبواب ولما وصل خالد ومن معه إلى السور رموا الحبال فعلق منها حبلان فصعدوا عليهما وتبعهم كثير ولما صاروا فوق السور قصدوا الباب ففتحوه وكبروا فدخل الجيش مكبراً حتى أزعج تكبيره أهل المدينة فصحوا من سكرتهم مذعورين لا يقدرين على شيء فذهب وفد منهم إلى أبي عبيدة يطلبون الأمان فأمنهم ودخل معهم المدينة ليؤمن الناس فالتقى بخالد وسط البلد هذا سلماً وذاك حرباً ، فأخبره أبو عبيدة بالصلح فكف وأجروا ما فتح عنوة مجرى الصلح فصارت كلها صلحاً وبعث أبو عبيدة إلى عمر بالفتح ثم استخلف على المدينة يزيد بن أبي سفيان ففتح سواحلها :

(صيدا وعرة وجبيل وبيروت) وسير أخاه معاوية لفتح قيسارية ففتحها
أما أبو عبيدة فسار إلى فحل وعلى مقدمته خالد وعلى المجنبتين وعمرو
ابن العاص وأبو عبيدة وعلى الخيل ضرار بن الأزور الأسدي وعلى الرجال
هياض بن غنم وعلى الناس شرحبيل بن حسنة فنزل شرحبيل بالناس فخلا
وحاصرها . وفي ليلة خرج الروم يريدون بيات المسلمين وكان شرحبيل
حذراً لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبية لكثرة ما كان عمر بن الخطاب
يحذرهم البيات فقاتلهم قتالاً شديداً تلك الليلة كلها ويومها كله فلما أمسى
المساء خمدت همة الروم فانهزموا وحيل بينهم وبين المدينة بمياه كانوا فجروها
ووحلوا بها الأرض لتسكون خندقاً حول المدينة فأخذهم المسلمون من كل
جهة واستولوا على المدينة فأرسل الأمير إلى عمر بالفتح والخمس ثم فصل
من جيشه فرقتين أمر على إحداهما شرحبيل بن حسنة ووجهه إلى ييسان
ووجه الأخرى إلى طبرية (قصة الأردن) ففتح كل منهما مدينته على مثل
صلح دمشق . أما أبو عبيدة فسار ومعه خالد إلى حمص فلما وصل مرج
الروم التقى بجيشين بعثهما هرقل لقتال المسلمين أحدهما برياسة بطريق اسمه
توذر والثاني برئاسة شنش الرومي فوقف خالد أمام الأول وأبو عبيدة
أمام الثاني فلما أصبح خالد لم يجد لتوذر ولا لجيشه أثراً لأنه ترك خالداً
وتوجه إلى دمشق ليفتحها ظاناً أن ليس بها حامية فعلم خالد قصده فبعه
وهلم به يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق فاستعد للقاءه فانحصر توذر بين
الجيشين فأخذ هو وجنده ولم يفلت منهم إلا القليل أما أبو عبيدة فإنه لاقى
شنش وهزمه فرجع خالد وقد قضى الأمر .

فتح حمص

فسار مع أبي عبيدة إلى حمص ولما بلغ ذلك ملك الروم وأرسل إلى
بطريق حمص يأمره بالمسير إليها وسار هو إلى الرها أما المسلمون فمروا

يعلبك ففتحوها ولما وصلوا حصص حاصروها فتحصن أهلها منتظرين مدد هرقل ولكن لما طال عليهم الأمر راسلوا أبا عبيدة في صلح مثل صلح دمشق فأجيبوا واستخلف عليها عبادة بن الصامت وسار هو قاصداً حماه فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم على الجزية والخراج ثم سار نحو شيزر (بلد قريب من حماه) ففتحها صلحاً وقصد بعدها المعرة (بين حماه وحلب) ففتحها كذلك ثم اللاذقية (من أعمال حلب) فملكها عنوة وهرب سكانها ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى بلادهم ويقيموا فيها فقو طوعوا على خراج يؤدونه وبني فيها المسلمون مسجداً جامعاً ثم أرسل أبو عبيدة خالدًا لفتح قنسرين (كورة بالشام) فلما بلغ الحاضر قابله جمع عظيم من الروم عليهم قائد اسمه ميناس فقاتلهم خالد حتى هزمهم وقصد قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا فنظروا في أمرهم وما لقيه أهل البلدان الأخرى من المسلمين فرأوا أن لا قبل لهم بالحرب ولا الحصار فطلبوا الصلح على مثل صلح دمشق فلم يرض إلا على تخريب المدينة فخربت حصونها ثم أدرب خالد وراء هرقل من الشام وأدرب وراه عياض بن غنم من الروم فترك ملك الروم الشام وودعها الوداع الأخير وسار إلى القسطنطينية ، ولما بلغ عمر فعل خالد قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر كان أعلم بالرجال مني (ثم) سار أبو عبيدة إلى حلب فتحصن أهلها ثم طلبوا صلحاً بأمان على أنفسهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم وحصنهم فأجيبوا واستثنى عليهم موضع المسجد ثم سار إلى أنطاكية فصالحه أهلها على الجلاء لمن أرادوا الجزية على من أقام وكانت أنطاكية أعظم ثغور الروم فأرسل عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب لها جماعة من المسلمين يرابطون بها ثم سار إلى معرة مصرين ففتحها صلحاً وبث السرايا لما جاورها من القرى والبلدان ففتحت لهم ثم سار أبو عبيدة إلى قورس (كورة بنواحي حلب وهي الآن خراب) ففتحها

وفتح تل عزاز ثم سار إلى منبج من بلاد الروم على الفرات فصالح أهلها على مثل صلح حمص واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بأخبار الروم وولى أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملاً وشحن الثغور المخوفة بالمرابطين وسار إلى بالس (بلد بشط الفرات) وبعث سرية مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالح أهلها وتم للمسلمين فتح الشام من هذه الناحية إلى الفرات ؛ ثم عاد أبو عبيدة إلى فلسطين وسير جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي وأمه بمالك بن الحارث الملقب بالأشتر فسلكوا درب بفراس (بلد بلحف جبل اللكام وهو جبل يسامت حماه وشيزر وأفامية ويمتد شمالاً إلى صهيون والشفر وبكاس وينتهي عند انطاكية) إلى بلاد الروم فلقوا هناك جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقعوا بهم وسير أبو عبيدة جيشاً آخر إلى مرعش (قرب انطاكية) ورئيسه خالد بن الوليد ففتحها على إجلاله أهلها بالأمان وأخربها .

أما عمرو بن العاص الذي كان على الأردن فإنه سار إلى أجنادين وقد تجمع بها جيش عظيم من الروم عليهم داهية منهم اسمه أرطبيون فحاصره عمرو حصاراً شديداً ثم لم يزل يتجسس حتى عرف مأخذه فخاربه وهزمه فانتهى في هزيمته إلى إيلياء (بيت المقدس) فسار وراءه عمرو وحصره ثم طلب أهله الصلح على أن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب عمرو إليه بذلك فعزم عمر على السفر إلى الشام ليتسلم بيده مفاتيح المسجد الأقصى فسار من المدينة بعد أن ولى عليها على بن أبي طالب وكتب إلى عماله أن يوافوه بالجالية وهي بلد بدمشق فوافوه بها وكان أول من أقبه يزيد بن أبي سفيان ثم أبو عبيدة ثم خالد بن الوليد على الخيول عليهم الديات والحريز فنزل وأخذ الحجارة ورمام بها وقال ما أسرع ما رجعتكم عن رأيكم إياي تستقبلون في هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين والله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا يا أمير المؤمنين أنها يلامعة (هي

ما برق من السلاح) وإن علينا السلاح قال فنعم إذا وجاءه وهو بالجاية أهل إيلياء مستأمنين فصالحهم على الجزية وكتب لهم أماناً هذه صورته .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت ، فمن خرج منها فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويحلى بينهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعدو عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية (اه من الطبرى) ولما دخل عمر المدينة دخل كنيسة القيامة وجلس في صحنها وحان وقت الصلاة فقال للبطريك أريد الصلاة فقال له صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً فلما قضى صلاته قال للبطريك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدى وقالوا هذا صلى عمر وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعاً أبني فيه مسجداً فقال على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب ووجد عليها ردما كثيراً فشرع في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد (ذكر ذلك ابن خلدون في الجزء الثاني

من تاريخه ثم ولى رضى الله عنه الولاية على الشام بعد أن قسمها أقساماً وجعل
فلسطين ولايتين إحداهما قصبها الرملة والأخرى قصبها إيلياء ثم رجع
رضى الله عنه إلى المدينة، فأنزأ منصوراً وهذه أول مرة سافر إلى الشام .

وفي السنة الثامنة عشر حصل في الشام طاعون أتى على كثير من جند
المسلمين وهو طاعون عمواس وبلغ عمر خبره وهو متوجه إلى الشام المرة
الثانية فوافاه الأمراء بسرغ (موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك) وفيهم
أبو عبيدة فأخبروه بالوباء وشدته وكان مع عمر المهاجرون والأنصار
فجمعهم مستشيراً أيمضى لوجهه أم يرجع فاختلفوا عليه فمن قائل خرجت
لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ومن قائل إنه بلاء وفناء فلا ترى أن تقدم
عليه ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش فلم يختلفوا عليه بل أشاروا بالعودة
فنادى عمر في الناس إنى مصبح على ظهر فقال أبو عبيدة أفراراً من قدر الله
فقال نعم من قدر الله إلى قدر الله لو كان لك إبل فهبطت وأديا له عدوتان
إحداهما مخضبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخضبة رعيتها بقدر الله
وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله فسمع بهم عبد الرحمن ابن عوف فجاءهم
وقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إذا سمعتم بهذا الوباء يبلى فلا تقدموا
عليه وإذا وقع يبلى وأتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه) فانصرف عمر بالناس
إلى المدينة ومات بهذا الوباء أبو عبيدة فخلفه عمرو بن العاص فخرج بالجيش
إلى موضع مرتفع من الجبال فخف عنهم الوباء فاستحسن عمر فعله ومات
يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق فاستخلف عليها أخاه معاوية واستعمل
شريحيل بن حسنة على جند الأردن وخارجها وأصاب الناس من الموت
ما لم يروا مثله ثم رفعه الله عنهم بعد إقامته شهوراً فكتب الأمراء إلى عمر
بما في أيديهم من الموارث فجمع الناس واستشارهم وقال قد بدالى أن أطوف
على المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم فأشيروا على وإن موارث أهل
الشام قد ضاعت فأبدأ بالشام فأقسم الموارث وأقيم لهم ما في نفسى ثم أرجع

فانقلب في البلاد وأبدى لإبهم فسار عن المدينة واستخلف عليها علي بن أبي طالب وجعل طريقه على أيلة فلما دنا منها وركب بعيره وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبة فلما تلقاه الناس قالوا ابن أمير المؤمنين قال أما مكم يعني نفسه فسار وانتهى هو إلى إيلة فقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها فرجعوا ولما قدم رضى الله عنه إلى الشام قسم المواريث فورث بعض الورثة من بعض وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم ورتب الشوائق والصوائف (الشوائق جمع الشائبة وهي السرية التي تغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهي التي تغزو في الصيف) وسد فروج الشام ومسالحها واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة واستعمل معاوية على دمشق وعزل شرحبيل عن الأردن وقال للناس إنى لم أعزله عن ريبة ولكن أريد رجلا أقوى من رجل واستعمل عمرو بن عتبة لى الأهرام (جمع هرى وهو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان) ثم قيل لعمر لو أمرت بلالا فأذن فأمره بذلك فما بقى أحد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم إلا بكى حتى بل لحيته وعمر أشد الناس بكاء وبكى من لم يدركه لبكائهم كل ذلك لذكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع عمر إلى المدينة فى ذى القعدة .

فتح مصر

ولما كان بالشام استأذنه عمرو بن العاص فى فتح مصر وذكر له خيرها وأنها قوة عظيمة لمملكة الروم وكانت اذ ذاك تابعة لهم عليها وأل من قبلهم يقيم بالاسكندرية فسيره عمر بجيش كشاف ثم أتبعه بالزبير بن العوام فاقترحوا باب أليون وساروا فى قرى الريف إلى مصر وهناك قابلهم الجاثليق أبو مريم ومعه الأسقف بعثه المقوقس عظيم مصر لحماية البلاد فلما نزل بهم عمرو بدأه بالقتال فقال عمر لا تمجلوا حتى نغدر إليكم وليبرز إلى

الجلتليق والأسقف فخرجا إليه فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية وأخبرهما
بوصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر بسبب هاجرام إسماعيل . روى
مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنكم ستفتنون مصر
وهي أرض فيها يسمى اقيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة
ورحما أو ذمة وصهراء فقال قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء آمنوا حتى
ترجع إليك فقال منلى لا يندع ولكني أولئك ثلاثاً لتنظروا فقالا زدنا
فزادهما يوماً فرجما إلى المقوقس عظيم القبط وارطبون الوالى من قبل الروم
فأخبرهما خبر المسلمين فأما أرطبون فأبى وعزم على الحرب وبيت المسلمين
فهزموه هو وجنده إلى الاسكندرية ونزل المسلمون عين شمس (وهي المطرية
وكانت على فرع من فروع النيل) فحاصروها وبعث عمر لحصار الفرماة
أبرهة بن الصباح ولحصار الاسكندرية عوف بن مالك وراسله أهل البلاد
وانتظروا ما يفعله المسلمون بعين شمس وبعد مدة من حصارها رضى أهلها
بالصلح على إعطاء الجزية وأجروا ما أخذ قبل ذلك عنوة مجرى الصلح
وشرطوا رد السببايا فأرسل ابن العاص إلى أمير المؤمنين بذلك فأجاب وكتب
لهم عمر بذلك كتاباً هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر
من الأمان على أنفسهم وأهولهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبجرهم
لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى أهل
مصر أن يهالوا الجزية إن اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم
خمسين ألف درهم وعليهم ما جرى أصواتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع
عنهم من الجزاء بقدرهم وذمتنا من أبى بريثة وإن نقص نهرهم من غايته إذا
انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله
مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ
أمانه أو يخرج من سلطاننا عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث

ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمة المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرسا على أن يفزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر (عن الطبرى) فدخل ذلك الصلح أهل مصر كلهم . أما المبلغ الذى قرر عليهم فبلغ ألف ومائتين وخمسين ألفاً من دنانير اليوم باعتبار الدرهم قرشين ونصفاً فلا ينال الشخص الواحد منهم إلا عشر الدينار أو ما يزيد عن ذلك قليلاً لأن تعداد مصر إذ ذاك كان هلى أقل ما ورد فى كتب التاريخ عشرة آلاف ألف ثم نزل المسلمون على القسطنطينية الذى ضربه عمرو واختلفا حوله خيامهم فى الموضع الذى كانوا يحاصرون مصر منه وهجروا المدينة التى يسكنها المقوقس وأسس عمرو بمدينته مسجده المشهور ولما انتهى أمر الصلح سار عمرو إلى الاسكندرية فاجتمع له من بينها وبين القسطنطينية من الروم والقبط فهنأهم وأثنى عليهم ونازل الاسكندرية وطالب من أهلها الزول على صلح أهل مصر فلم يفعلوا ففتحها عنوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة وكان الروم قد أخذوا فى وقت الحرب شيئاً كثيراً من الأقباط أهل الأرياف فأتوا إلى عمرو وقالوا لم تكن محاربين بل أخذت أمرنا قهراً عنا فرد عليهم ما عرفوه أنه لم يمد إقامة البينة على ذلك ولما تم فتح مصر والاسكندرية وارتحل الروم إلى القسطنطينية أقام المقوقس والقبط على الصلح الذى عقده لهم عمرو وأبقى المقوقس على رياسته قومه وكان المسلمون يشاورونه فيما ينزل بهم من المهمات إلى أن توفى وكان يقيم بالاسكندرية وفى بعض الأوقات بمنف .

وبفتح مصر انتهى ما فعله المسلمون رضوان الله عليهم مع الروم فى مدة عمرو وأخذوا ولايتين عظيمتين الشام ومصر وجزءاً مهماً من جنوب بلاد الروم (الاناضول) وبالإجمال فقد أضعفوا شوكتهم وأدالوا دولتهم ، وحيث قد مضى القول فيما كان من الفتوحات زمن الخليفة زين رضى الله عنهما

وكان من اللازم على المسلم أن يعرف تلك النظمات السامية التي كان يتبعها المسلمون في ذلك العصر حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من خوارق العادات فنقول :

كان عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصر الأمة في عهد الخليفتين من بعده مظهر الإسلام ونظاماته فحق لنا أن نجعل هذا الوقت أساساً لنظام الإسلام في العصر الأول ونحكم حكماً قطعياً أن المسلمين إذا اتبعوها هزوا وإذا حادوا عنها ذلوا .

مقام الخلافة

مقام الخلافة هو مقام نيابة عن سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حراسة الدين وسياسة الدنيا وكان الخلفاء الراشدون يستمدون أقوالهم وأفعالهم من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك كانت الأمة تنظر إلى الخليفة نظرها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبذلون له الطاعة في سرهم وعلايتهم ممثلين قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ ولا تكونوا كاتبي نقضت غزوها من بعد قوة أنكاثا ﴾ وقوله ﴿ فن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتاه أجرا عظيما ﴾ فكانوا يرون أن عصيان الخليفة مروق عن الدين وخروج عن حده ولم يكن ذلك نتيجة تكبر أو ترفع من الخلفاء . حاشا لله . بل كان أصغر الناس يقف له الخليفة حتى تقضى حاجته اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمر يجالس الفقراء والمساكين لا يأنف من ذلك .

هذا كان حال الأمة مع الخليفة أما الخليفة فكان لا يعتقد في نفسه أنه أرقى درجة من الأمة قال أبو بكر في أول خطبة له (قد وليت عليكم ولست بخيركم) ولم يكن يظن لنفسه أدنى تصرف في أموالهم ولا دمائهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمه يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ولما أرسل خالد بن الوليد لأبي بكر هدية الفرس التي اعتادوا تقديمها للموكلهم عدها من الجزية وأمر خالد أن يحسبها منها ولما جاءت عمر ذخائر الأكامرة

بعد فتح العراق ردها لتباع وتقسّم على الفاتحين كما أمر الله تعالى ولما عدا
جيلة بن الأيهم الغساني (آخر ملوك الغساسنة بالشام) على الأعرابي فلطم
وجهه أبي عمر إلا القصاص وكان عمر يرسل بجميع الأمة في الأمصار أن من
آذاه وال أو أمير فليواف الموسم ليقتنص له فكان الأمراء والولاء يخشون
إيذاء مسلم أو ذمي لئلا يقتنص منهم على رؤوس الأشهاد فينفضحوا فكانت
الأمة في نظر الخليفة سواء لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى قال
أبو بكر في أول خطبة له (الضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ له الحق ،
والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه) ولم يكن الخليفة يحتجب
عن الرعية حتى يصعب على أحد منهم أن يكلمه فكان عمر لا يبالي أن يجلس
في المسجد أو في السوق وكانت الرحمة للأمة ملء قلوبهم تشبها برسول الله
صلى الله عليه وسلم الذي سماه الله الرؤوف فكان أبو بكر وعمر يخرجان
بالليل يتفقدان أحوال البائسين من الأمة حتى لا يكون لأحد عليهما حجة
يوم لا ينفع مال ولا بنون وكان عمر يقول والله الذي بعث محمداً بالحق
لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب
يعنى بذلك نفسه وكان إذا ولي عاملاً يقول اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا
أموالهم ولا يضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني وكان
يحمل الدقيق على ظهره ليوصله إلى الفقراء والمساكين (روى الطبري عن
زيد بن أسلم عن أبيه قال خرجت مع عمر بن الخطاب رحمه الله إلى حرة
واقم حتى إذا كنا بصرار إذا نار توثرت فقال يا أسلم إني أرى هؤلاء ركبا
قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا نخرجنا نهرول حتى دنونا فإذا امرأة معها
صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم
يا أصحاب الضوء - وكره أن يقول يا أصحاب النار - قالت وعليك السلام
قال أذنو قالت ادن بخير أو دع فدنا فقال ما بالكم قالت قصر بنا الليل
والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأي شيء

في هذه القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا الله بيننا وبين عمر قال أي رحمة الله ما يدري عمر بكم قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا فأقبل على فقال انطلق بنا فخرجنا نهروا حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم فقال أحمله على فقلت أحمله عنك قال أحمله على مرتين أو ثلاثاً كل ذلك وأنا أقول أنا أحمله عنك فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهروا حتى انتهينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول ذري على وأنا أحرك لك وجعل يذفخ تحت القدر وكان ذا الحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل الحية حتى أنضح آدم القدر ثم أنزلها وقال أبغيني شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام فقمت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولي خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدته هناك إن شاء الله ثم تنحى عنها ثم استقبلها وربض مريض السبع فجعلت أقول له إن لك شأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على وقال يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكام فأجبت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم) بقدر ما كانت رحمتهم كانت شدتهم في جانب الله وحدوده لا يباليون على من أقاموها عليه متبعين ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سرقت المرأة المخزومية وكلموه في أن يعفو عن قطع يدها ، إنه أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع يدها ، وحدث عمر ابنه في شراب له فأت ، لم تمنعه رقة الأبوة عن إقامة حد الله ، وعلى العموم فكان خلقهم القرآن والسنة لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ويجتهدون أن يصيبوا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في أمره كله .

الصلاة .

كان المسلمون يعتقدون أن الفارق بين المسلم وغيره هو الصلاة قال تعالى ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ وقال ﴿ إن الصلاة تهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل أى الأعمال أفضل ، الصلاة لوقتها ، فكانوا يحافظون على أوقاتها ، ولما كان للشرع مقصد سام من تفضيل صلاة الجماعة لتجتمع القلوب بالتوجه لوجهة واحدة كانوا يفضلون صلاة الجماعة على صلاة الفرد (حتى إنهم ليتهمون تاركها بالنفاق وناهيك بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق المتخلفين عنها ، والذي نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم أمر رجلاً فيؤم الناس ثم اختلف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم ، رواه البخارى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، وكانت إمامة المسلمين في الصلاة راجعة إلى الخليفة بعدها أرفع وظائفه ولقد استدل الصحابة رضوان الله عليهم على أحقية أبى بكر بالخلافة باستخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم له في الصلاة بالمسلمين حين مرضه ولم يكن الخلفاء يولكون فيها بل كانوا يباشرونها بأنفسهم كما كان أمراؤهم في الولايات كذلك ومثل إمامة الصلاة الخطبة في أوقاتها والجمعة والأعياد والحوادث لا يقوم مقام الخليفة أو أميره أحد من الناس . وهذا كان يفعل في المساجد الكبرى في الأمصار أما المساجد المختصة بقوم أو محلة فكان الخليفة يعين لها من يقوم بالصلاة فيها كما فعل عليه الصلاة والسلام مع أهل قباء وغيرهم وليس ذلك شأن الخطبة فإنه لم يكن في المصر الواحد إلا مسجد واحد جامع يقوم بالخطبة فيه أمير المؤمنين أو أمير المصر وجعل الشرع عقاب تارك الصلاة كسلا : القتل إن لم يذب حسبا رآه بعض الفقهاء ، ورأى آخرون أنه يعزر بحسب : أما إذا لم يعتقدوها فهو مارق من الدين يقتل ككفراً .

الزكاة

الزكاة هي أحد أركان الإسلام وقد أمر الشرع بأخذها من الأغنياء وردّها على الفقراء وجعل لها نصيباً معلوماً متى ملكه الإنسان حقت عليه في التقدين والنعم وما يخرج من بركات الأرض وعروض التجارة ومن منعها قوتل عليها كما فعل أبو بكر مع مانعي الزكاة ومصارفها مذكورة في قوله تعالى ﴿ إنا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ والفقراء والمساكين هم العاجزون عن إدراك حاجاتهم بأنفسهم والعاملون عليها هم العمال الذين يعينهم الخليفة لقبضها ، والمؤلفة قلوبهم من لم يسلبوا وينتظر إسلامهم إن أعطوا أو أسلوا وفي إسلامهم ضعف الإعطاء يقويه وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسامين بعد فتح مكة ، والرقاب هم المكاتبون الأرقاء الذين كاتبهم ملاكهم على شيء إذا دفعوه عتقوا أو الأسارى أو تشتري الرقاب فتعتق ، والغارمون هم الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب وسبيل الله الجهاد وابن السبيل المنقطع عن ماله ، ومن تأمل إلى نظام الزكاة وجده أبداع نظام لصالح الأمة والحكومة فهي شيء لا يضر الأغنياء ويعود بالنفع العميم على الفقراء فتعم السعادة الأمة بأمرها فلا يشتغل أفرادها بالاحتياج لأخذ أموال الناس بالباطل سلباً أو سرقة ولا تتولد العداوة والبغضاء بين الغني والفقير فيتمنى هذا هلاك ذلك وتدمت أمة بين أفرادها عداوة وبغضاء .

الحج

الحج ركن من أركان الدين العظيم وقد فرضه الله على كل مسلم مرة في عمره . قال تعالى ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾

وكان الذى يتولى الحج بالمسلمين خليفتهم وكان الخلفاء الراشدون يكتبون إلى ولايتهم بالأمصار أن يوافوا موسم الحج للأطلاح على أمرهم وسيرهم مع رعيتهم فمن كان لأحد من الرعية عليه شكوى اقتص منه مع ما فى ذلك من رؤية المسلمين فى بقاع الأرض لخليفتهم فيتجدد بذلك عندهم عهد الطاعة وقدما كان الخلفاء ينيبون عنهم من يحج بالناس وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمرين جميعاً فحج بنفسه حجة الوداع وأمر أبا بكر أن يحج بالناس فى السنة التاسعة .

الصوم

الصوم هو الركن الخامس من أركان الإسلام وقد فرضه الله على الأمة شهراً فى السنة لتمهيد نفوسهم وتعطف على الفقراء والمساكين الذين بهم خصاصة فيعطوا الزكاة عن طيب نفس ولذا فرض الله عقبه زكاة الفطر وتارك الصوم يعزر بما يراه الإمام رادعاً. فما أوفق هذه الأركان وما أسعد الأمة لو اتبعها ولم تنهاون بشئ منها فكلها لها حكمة باهرة لم يفرضها البارئ عينا، يا عجباً كل العجب لمن يقول إني مسلم ثم هو يترك ركناً من أركان دينه ألا يرى أنه إذا نقض من البناء ركن تداعى له البناء كله . ويوشك أن ينقض من أسسه والعياذ بالله ؟ ألهمنا يا الله الصواب ووفقنا لما يرضيك إنك سميع الدعاء .

القضاء

القضاء من وظائف الخلافة الكبرى لأنه منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسباً للتداعى وقطعاً للنزاع بالأحكام الشرعية الملتقاة من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى فى سورة المائدة (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وفى آية أخرى (فأولئك) (٨ - تمام الوفاء)

هم الظالمون) وفي أخرى (فأولئك هم الفاسقون) وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه لمن سواهم وأول من دفعه إلى غيره كما قال ابن خلدون هو عمر بن الخطاب فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحاً بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذى تدور عليه أحكام القضاة وهذا نصه منقولاً عن الكامل للبرد .

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك ، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فاقم إذا أدلى فانه لا يذفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يياس ضعيف من عدلك . والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي فى الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك ، ما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشياء والأمثال فقص الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهى إليه فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى ، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرماً عليه شهادة زور أو ظنيناً فى ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتشكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الأجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس

من نفسه شأنه الله فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائنه
رحمته والسلام : وإنما قلد عمر القضاء لغيره ولقيامه بالسياسة العامة وكثرة
أشغالها في الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما
يقوم به غيره لعظم العناية به فاستخف القضاء في الواقعات بين الناس
واستخلف فيه من يقوم به تخفيفاً على نفسه وكان الذين ينتخبون لهذا العمل
العظيم من كثرت صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فسطع عليهم نوره
فهم لذلك يقدرون على استنباط الأحكام من القرآن والسنة المطهرة
ويتباعدون عن كل ما يفضبه الله ورسوله من جور ورشوة قال تعالى في سورة
النساء ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ وقال ﴿ يا أيها الذين
آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ حتى كانوا يتباعدون عن قبول الهدايا
وإجابة الدعوة إلى الولائم فكان الولاية إذ ذاك سرجا يهتدى بهم في الظلمات
لا يريدون إلا الله بأعمالهم بعد أن قربت منهم الدنيا فابتعدوا عنها لعلمهم أنها
ظلمات يوم القيامة فرضى الله عنهم أجمعين .

الفتيا

الفتيا في صدر الإسلام كانت مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى
الله عليه وسلم وكان نور النبوة إذ ذاك ساطعاً على الأمة فيبينهم كثير من
روى الأحاديث وحفظها فن مقل ومن مكثر كأم المؤمنين عائشة وعبد الله
ابن مسعود وابن عمر وابن عمرو بن العاص وغيرهم ولم يكن هناك أدنى مجال
للكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف وقد قال « من كذب
على عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » فكان الدين خالياً من تلك الشائبة
التي أحدثها خلف من بعدهم ، وكان الخلفاء يستفتون كبار الصحابة فيما
يعرض لهم من الحوادث فقد استفتى عمر عبد الرحمن بن عوف فيمن قتل

أرنا في الحرم . وخطر الفتيا كان الأصحاب يجلبون على بعضهم فيها وكان المتصدرون لها منهم على أكثرهم سبعة عشر صحابيا وإنما كانوا يتبعون عنها خوف الخطأ في الأحكام .

الحدود

قد فرض الله عقابا لكثير من الأعمال التي تنتج الفساد في الأمة وهذا العقاب حاسم وكفيل بعدم العودة إلى الشر وهو أربعة أنواع قتل وجلد وقطع وتعزيز فالأول على من قتل نفسا بغير حق أو ارتد أو سعى في الأرض فساداً أو فر من الزحف أو ترك الصلاة كسلا على رأى أو زنى بعد إحسان لأن الزنا جنائية على الأمة كلها حيث يختل نظام البيوت فيخرج الولد ولا أب له يريه ويهذبه فهو والحالة هذه أشد خطراً من جنائية القتل والجلد لمن زنى قبل إحصائه مائة ومن قذف غيره بزنا يجلد ثمانين ومن شرب خمرا يجلد أربعين أو ثمانين على اختلاف الصحابة في ذلك . والسارق تقطع يده والجاني على ماسوى النفس يقتص منه بمثل ما فعل ، العين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص وجعل الحق في العفو للمجنى عليه أو وليه وهذا حق من حقوق الأمة أخذته الأحكام حبا في الأثرة بالسلطان . أما إذا كان القتل فما دونه خطأ فقد فرض الشرع لولى المجنى عليه في القتل الدية وله فيما دون ذلك الأرش ليكون بمثابة تعويض عما فقد من نفس أو عضو وهذا العقاب أفيد للمجنى عليهم وأردع للجناة . أما التعزيز فهو فيما سوى ذلك من الأعمال التي أفكرها الدين كالغضب وترك الصوم وما شاكل ذلك وهذا فوض الشرع فيه الأمر للولاية ولو كان كتابنا هذا من موضوعه التكلم في الفروع لاستقصينا أحكام الشرع في الحدود والجنايات ولكن فيما ذكرناه من أمهات المسائل كفاية في

الدلالة على أن نظام الشرع أرقى وأسمى مما يبتدع من المنظمات التي لا تلبث على حال بل هي كل يوم في تغيير وتبديل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الجهاد

أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم بدين قويم بشيرا ونذيرا فقام بما حمل وبلغ رسالة ربه كما أمر ولما كان قومه العرب بدأ بهم عامة وبقريش خاصة فأرشدهم إلى الحق وأثار لهم الطريق ودعاهم إلى دين كله مكارم أخلاق فتبعه قوم وجفاه آخرون وقاموا في وجهه يمنعونه تأدية رسالة ربه فصبر عليهم صبر نبي كريم رهوف رحيم فلم يزدحم الحلم إلا غيا فارتكبوا صنوفا من البغي والإيذاء له ولمن تبعه وازداد بهم الأمر حتى تأمروا على قتله فأمره الله بالهجرة إلى دار قوم اتبعوا وآمنوا به وهم الأنصار سكان المدينة الذين بايعوه على القيام دونه حتى يؤدي رسالة ربه ، فواقع قريشا جملة وقانع أولها غزوة بدر وآخرها غزوة الفتح التي فتحت فيها مكة وسقطت دولة الأوثان من البيت الحرام فدان أكثر قريش بالدين الحنيفي وازدادوا به عزا على عرهم في الجاهلية ولما كان أكثر العرب بماثا لهم على ما هم فيه من الطغيان أمره الله بقتالهم كافة كما قاتلوا المسلمين كافة فكان له مهم جملة مواقع آخرها وقعة هوازن بحدين التي ذهبت بها دولة الشرك من بلاد العرب ودعا عليه الصلاة والسلام من يحاوره من أهل الكتاب إلى دينه الذي جاء مصدقا لما بين يديه قال تعالى في سورة آل عمران ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ فأبوا الدخول في دينه فعاهدهم وعاهدوه على ألا يكونوا مع عدوه فلم يفوا بما عاهدوا وما لأوا الأحزاب فنبذ إليهم على سواء وواقعهم جملة مواقع آخرها غزوة خيبر التي انفض بها جموع اليهود وزالت دولتهم .

ولما كانت دعوته عليه الصلاة والسلام عامة بحكم قوله تعالى في سورة سبأ (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) وأرسل ملوك الأرض الذين كانت لهم السطوة إذ ذاك فكاتب ملك الفرس كسرى ومن تحت حمايته من ملوك العرب وكاتب قيصر ملك الروم ومن تحت رعايته وكاتب النجاشي ملك الحبشة ليستضيء العالم بنور الإسلام ويتساوى الصغير والكبير أمام الحق فلا يطمع الشريف في الحيف ولا ييأس الضعيف من العدل فتتخلص الأمم من جور ملوك كانوا يعبدون أنفسهم آلهة ورعيتهن عبيدا وكان مما فرضه الله على لسان نبيه أن من أسلم فقد أحرز ماله ودمه وصار للمسلمين أخاً لا يكلف إلا دفع الزكاة التي بها قوام الأمة ومن أبى الإسلام لا يجبر عليه بل يرضى بحكم الإسلام ونظاماته في المعاملات ويدفع مقابل حمايته جزءاً صغيراً حده الشرع ، وبذلك يكون في ذمة الله ورسوله له ما للمسلمين وعليه ما عليهم فيجب على المسلمين أن يدافعوا عنه كما يدافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وله الحرية التامة في العمل بمقتضى دينه أما من أبى الأمرين فيقاتل لأن الإسلام دين قويم جاء مصدقاً بجميع الكتب المنزلة قبله واحتوى على مكارم أخلاق عليها مدار السعادة في الدنيا فأبى الدخول فيه أو الانقياد لأحكامه الدنيوية مع البقاء على دينه في عبادته لا عذر له ، ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من واجبات الخليفة بعده تتميم ما أمر به لأنه خليفته في حراسة الدين وسياسة الدنيا فقام الخلفاء الراشدون بعده بذلك خير قيام غير هيا بن ولا وكاين فجردوا الجيوش لحرب الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد العرب - دولة الفرس ودولة الروم - بعد أن كتبوا لهم الكتب بدعوتهم للدخول في الإسلام أو الإنقياد لأحكامه مع إعطاء الجزاء وكانت قيادة الجيوش من وظائف الخليفة تبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يخرج بنفسه في الغزوات ولكن لما كان للخلفاء مقاصد كثيرة في بلدان متعددة يريدون فتحها في آن واحد لم يكن بد من أن يستعينوا

بغيرهم في إمرة الجيوش من لا يقل عنهم في الشجاعة وتدير الحرب فانتخبوا من إخوانهم من الصحابة من يستحق أن يسند له منصب عظيم كهذا ولم يكن ينظر فيه لغنى أو شرف قبيلة أو قدم صحبة أو كبر سن فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إمرة جيش فيه أبو بكر وعمر وولى أسامة بن زيد إمرة جيش آخرهما فيه وإنما كان ينظر في ذلك إلى العلم بالحرب والقدرة على تديرها وإعداد كل أمر لما يناسبه وكان الخلفاء يأمرون أمراء الجيوش بما كان يأمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يبدؤا أمة بقتال حتى يعرضوا عليهم الإسلام فإن أبوه فالجزية فإن أبوهما فالقتال وكانوا يوصونهم بما أوصى به أبو بكر أسامة حين سيره بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم الإفساد في الأرض وعدم التمدي على النساء والصبيان والشيوخ والرهبان وكانوا يقسمون الجيش إلى خمسة أقسام مقدمة وساقة ومجنبتان وقلب ولكل قسم أمير يصدر عن أمر قائد الجيش وكانوا يقسمون الجيش بعد ذلك كراديس (صفوفا) كل كردوس ألف رجل وعلى كل كردوس رجل من الشجعان يكون فيهم بمنزلة الأمير ثم يقسمون الكردوس إلى عشرات على كل عشرة رئيس يسمى عريفاً وكانوا يقاتلون بالزحف عملاً بقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) وقال عليه السلام : المؤمن للؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وقاتل الزحف أشد الأعداء من قتال الكر والفر الذي كان متبعاً عند العرب (أما) غنائم الحرب فكانت تقسم أخماساً فأربعة أخماسها للغزاة الراجل ثلث الفارس والخمس الباقي يقسم حسبما أمر الله تعالى في سورة الأنفال (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وأما الأسرى فحكهم ما ذكره الله في سورة القتال (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا تخنتتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) والمن أن يعفو

الخليفة عن الأسير فيطلقه من غير فداء والفداء يختلف بحال الأسرى غنى وفقراً . أما سلب القتل فحق القاتل لا ينازع فيه ولم يكن في العصر الأول عدد معلوم للجيش بل كان كل مسلم ملزماً بالاستعداد عند ما ينتدبه الخليفة وإذا كان الاستنقار عاماً وجب على كل مسلم الخروج ومن تخلف ظن فيه النفاق وعوقب أشد العقاب وناهيك ما حصل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتخلفين عن غزوة تبوك حيث نهى المسلمون عن مخالفتهم ومحادثتهم كأنهم ليسوا منهم إلى أن تاب الله عز وجل عليهم حينما ظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه وكانت العادة في عصر الخلفاء الراشدين أن من تخلف عن وجهته التي وجه إليها يشهر في الناس حتى يعتبر المعتبرون وأول من عاقب بالقتل عن التخلف عن الخروج إلى الوجهة التي أمر بها هو الحجاج ابن يوسف الثقفي أمير العراق في الدولة الأموية وكانوا يقرعون بين الناس وإذا احتاجوا لعدد معين وكانت الجيوش تسير ونصر الله يكفلها وعنايته تحوطها لما كان عليه الأفراد من طاعة الرؤساء وما كان عليه الأمراء من الاقبياد لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وعدم الاستئثار بشيء من النية أو الغنيمة فليس ثم مجال للظنون التي تنزل بالرئيس والمرءوس إلى الدرك الأسفل من الهوان وانظر ما فعله أبو عبيد بن مسعود الثقفي أحد أمراء جيش العراق حينما قدم له الفرس طعاماً خاصاً فإنه سألهم هل أطعمتم الجند مثله فقالوا لم يتيسر فامتنع من أكله وقال بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما استأثر عليهم بالنية وهكذا كان غيره من الأمراء رضوان الله عليهم أجمعين وكان كل مسلم يعتقد أن الجهاد أول واجباته فترى طفلهم يشب وقد عود الفروسية والظعن والضرب وكان الصبيان يتسابقون إلى درج أسمائهم في الغزاة ويحزنهم إن ردوا وناهيك بما كان من رافع بن خديج وسمره ابن جندب حينما استنصرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فردهما ثم أجاز رافعاً لما قيل له إنه رام فبكى سمره وقال لزوج أمه أجاز رسول الله صلى الله

عليه وسلم رافعاً وردني مع أني أصرعه فلما علم بذلك عليه الصلاة والسلام أمرهما بالمصارعة فغلب سمرة فأجازه فإذا كبر الطفل ركب الأهوال وهو عالم بما معتقداً أنه سيدنال لإحدى الحسينيين إما ظفر بفتح وإما ظفر بشهادة وحسبك في ذلك ما أجب به رسل سعد بن أبي وقاص رئيس جيش القادسية يزدرج ملك الفرس ورستم قائد جيشها فإذا تأملت إلى اتفاق جميعهم في الإجابة لم ترتب في أن أولئك قوم لهم وجهة واحدة يتجهون إليها في أقرالهم وأفعالهم وهي نصر دين الله وإعلاء كلمته لا يبالون بما يحول دون ذلك من الأخطار أولئك قوم جاهدوا في الله حق جهاده ففهم مقصد ومنهم سابق بالخيرات ياذن الله ذلك هو الفضل الكبير وفي كلام الله سبحانه وتعالى وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من المحرضات على الجهاد ولذلك أقبل المسلمون عليه غير هيايين ولا وكاين لاتبهم الأمانى السكاذبة ولا تخدعهم الأوهام .

بيت المال

أول من اتخذ بيتاً المال عمر بن الخطاب وكان لإيراده من زكاة المسلمين وجزية أهل الذمة وخمس الغنائم وهو واريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين فكان مطهراً من المظالم نقياً عما كانت الملوك تأخذ من أمها ظلماً . وأما مصاريف بيت المال فكانت الزكاة تصرف في مصارفها التي ذكرناها في الزكاة . وجزية أهل الذمة تصرف في سبيل الله وهو معدات الجهاد وخمس الغنائم في مصارفه المذكورة في الجهاد وموارث الموتى تصرف فيما يراه الإمام ولم يكن للمستحقين شيء مخصوص يعطونه حتى فرض عمر العطاء ودون الدواوين لحصر أسماء الغزاة فجعل للعباس خمسة وعشرين ألف درهم في السنة ولأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف عشرة آلاف ولأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ولنساءهم خمسمائة خمسمائة

والحق بأهل بدر أربعة ليسوا منهم الحسن والحسين ابني علي وأبا ذر
وسلمان الفارسي ومن بعد بدر إلى الحديدية أربعة آلاف أربعة آلاف
ولنسائهم أربعائة أربعائة ومن بعد الحديدية إلى أن انتهى أبو بكر من
حروب أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ولنسائهم ثلاثمائة ثلاثمائة
ومن شهد القادسية واليرموك ألفين ألفين ولنسائهم مائتين مائتين
ولأهل البلاء النازع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة ولنسائهم كن
قبلهم ومن بعد القادسية واليرموك ألفا ألفا ولنسائهم كن قبلهم وللروادف
المثنى خمسمائة خمسمائة ثم للروادف الثلث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة وفرض
للروادف الربع مائتين وخمسين مائتين وخمسون وفرض لمن بعدهم وهم أهل
هجر والعباد مائتين مائتين سوى كل طبقة في العطاء قريهم وضعيفهم وعربهم
وعجمهم وللصبيان مائة مائة ولكل مسكين جريبتين في الشهر ثم قال عمر
لإني كنت امرأة تاجر أيعني الله عيالي بتجارتي وقد شعلتموني بأمركم هذا
هذا فما ترون أنه يحل لي من هذا المال؟ فقال علي لك ما أصلحك وعيالك
بالمعروف ليس لك غيره فأخذ قوته واشتدك بعد ذلك حاجته فاجتمع نفر
من كبار الصحابة فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وقالوا لو قلنا لعمر
في زيادة نزيده إياها في رزقه فقال عثمان هلم فلنعلم ما عندنا من وراء وراء
فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها ألا تخبر
بهم عمر فلقيت حفصة عمر في ذلك فغضب وقال من هؤلاء لأسوءهم قالت
لا سبيل إلى علمهم قال أنت بيني وبينهم ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى
الله عليه وسلم في بيتك من الملابس قالت ثوبين بمشقين كان يلبسهما للوفد
والجمع قال فأى الطعام فإله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شعير فصبينا
عليه وهو حار أسفل عكك لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال فأى مبسط
يبسط عندك كان أو طأ قالت كساء ثخين كنا نربعه في الصيف فإذا كان الشتاء
بسطننا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حفصة فأبلغنيهم أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فواؤه لأضعن الفضول مواضعها ولا تبلغن بالترجية وإنما مثلى ومثل صاحبي كثلثائة سلكوا طريقاً ففضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك سبيله فافضى إليه ثم اتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقاً غير طريقهما لم يلقيهما . فتأمل كيف أن عمر رضى الله عنه مع إقبال الدنيا على المسلمين وتغير الأحوال عما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجد لنفسه مسوغاً أن يزيد عما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أتبع هديه وسار بسيرته ليلقاه آمناً ، وكان رضى الله تعالى عنه يقول أنا كوصى مال اليتيم إن استغثت استغثت وإن افتقرت أكلت بالمعروف إشارة قوله تعالى في حق الوصى (فمن كان غنيا فليستغفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) وحج رضى الله عنه مرة فلما رجع قال لابنه انظر كم صرفنا فنظر فإذا هو ستة عشر ديناراً فأخبره فقال عمر لقد أسرفنا يا بنى ، لاجرم أن أعزه الله ومكن له فى الأرض .

العلم والتعليم

كانت العرب أمة أمية لا تشغل نفسها بالعلم فلما أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق نص كثير على فضل العلم والتعليم والتعلم قال تعالى فى فضل العلم (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال عليه الصلاة والسلام « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلممه رشده ، وقال « العلماء ورثة الأنبياء ، وما قاله سبحانه وتعالى فى فضل التعلم (فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين) وقال (فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وقال عليه السلام « من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وقال « باب من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها ، وما جاء

في فضل التعليم قوله تعالى (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون
فجعل ثمرة العلم التعليم وقال (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب
لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ حين بعثه
معلماً لأهل اليمن لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً من الدنيا وما فيها ،
وقال : نعم العطية نعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى
أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة ، وقال : مثل ما بعثني به الله عز
وجل كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت
الكلاً والعشب الكثير وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل
الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة تيعان لا تمسك ماء
ولا تثبت كلاً ، الأول مثل للشتتبع بعلمه والثاني مثل للنافع بعلمه والثالث
مثل للحرور منهما فكانت هذه الآيات القرآنية والأحاديث المحمدية حاضرة
للأمة الإسلامية على العلم وتعليمه وتعلمه ، والعلم الذي حض للشرع على تعلمه
هو الذي يوصل الإنسان إلى سعادته الآخروية والراحة في الدنيا وما نحن
نسوق لك العلوم التي كانت تعلم في العصر الأول فنقول :

القرآن

كان أفضل ما يتعلمه المتعلمون في العصر الأول هو كتاب الله الذي
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وما لم يعرفه الإنسان كان مقلداً
في إيمانه وهذا نقص لا ينبغي لمسلم الاتصاف به ولا نغنى بتعلمه حفظه عن
ظهور قلب لأن هذا لا يتيسر للكثير من أفراد الأمة بل نقصد قراءته بتدبر
وتفهم ليعلم المسلم أوامره وزواجره فيقف عند حده وكان القرآن في عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم محفوظاً في صدور الحفاظ ولم يكن مجموعاً
في مصحف فلما كانت خلافة أبي بكر ومات كثير من حفاظ القرآن
في وقعة الجمامة رأى رضى الله عنه أن يجمع القرآن في مصحف بعد أن
أشار عليه بذلك عمر بن الخطاب فقال كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله

صلى الله عليه وسلم فلم يزل به حتى شرح الله صدره لذلك فندب لهذا العمل العظيم كاتب وحى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد الذين جمعوا القرآن في عهده صلى الله عليه وسلم وهو زيد بن ثابت الأنصارى فقال كيف أفل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل به أبو بكر حتى شرح الله صدره لما شرح له صدر أبي بكر وعمر فقام بهذا العمل خير قيام وجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ورتبه كما كان مرتباً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان يكتب سورة التوبة وأتى على قوله تعالى (صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) طمها آخر السورة فجاءه خزيمه بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين وقال لقد أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم؛ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فكتبتها وحقق الله بعمل أبي بكر ما قاله في سورة الحجر (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فلما كان في مدة عثمان بن عفان وتفرق القراء في الأمصار كان بينهم اختلاف في الإقراء اختلاف ألفاظ لاختلاف اللغات فرأى حذيفة بن ثابت أن اختلافاً كهذا بين الأمة يؤدي إلى شقاق وفساد وأنهى ذلك إلى عثمان وحذره من سوء العقبى فرأى عثمان أن يجمع الأمة على مصحف واحد يكلفه قريش بجمع ستة من كبار القراء فيهم زيد بن ثابت وأمرهم بذلك وقال لهم إن اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش فكتبوا عدة مصاحف سيرها إلى الأمصار وأبقى واحداً عنده وهذا المصحف هو الذى بين أيدينا الآن وهو الذى أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بجزى الله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل ما جازى هداة قوم عن أمته وهذا الذى نقلناه في جمع القرآن هو ما ورد في صحيح البخارى والإتقان للسيوطى .

السنة

السنة . ونعني بها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شرع الله من الدين قال تعالى في سورة الحشر (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال (وما ينطق عن الهوى) وكانت محفوظة في صدور رواتها وكانوا يعلمونها أولادهم وخصوصاً ما يتعلق منها بالمغازي يقولون تعلموا مجد آبائكم ويعلم الله أن ذلك من أفضل التعليم للناس . فإنه يثبت في قلبه الحمية فيشب ولا شيء أحلى عنده من اكتساب مجد يعلى قدره ويرفع ذكره ولم تدون الكتب في الأحاديث حتى زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

الفقه

الفقه كان في عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مراداً به كما قال الغزالي في الإحياء علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ، بذلك على ذلك قوله تعالى ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا وقال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ وأراد به معاني الإيمان وقال صلى الله عليه وسلم ، ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا ؟ بلى يا رسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه قال عليه الصلاة والسلام في ضمام بن ثعلبة الأعرابي الذي وفد عليه فأمن به وعلم أركان الدين ومسلم ذلك تسليماً خالصاً من شائبة نفاق أو رياء ، فقه الرجل ، وهو لم يعلم بعدد إلا أمهات الدين أما المسائل التي اصطلح على تسميتها بالفقه في العصر الذي بعدهم فكانت تأتي أحكامها حسب وقائعها ولم يكن في أصحابه من تجرد لاختراع المسائل والإجابة عليها .

التوحيد

التوحيد كان عندهم عبارة عن أن يرى الموحد الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط فلا يرى الخير والشر إلا منه جل ذكره وكانوا يكتفون في الاستدلال على ذات الله وصفاته بما ورد في القرآن الشريف لا يعتدونه إلى ما سواه إذ كانوا على الفطرة لم تشب قلوبهم شوائب الشك والارتباب فكانوا بعيدين عن صناعة الكلام ومعرفة طرق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات ، الأمور التي جعلت بعضهم موضوعا للتوحيد ، كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شغل شاغل عن ذلك بنصر دين الله والاجتهاد في تعميمه في بقاع الأرض قال إمامنا المرحوم الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد :

وفد مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع في الخيرة والسراج في ظلمات الشبهة وقضى الخليفان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الأعداء وجمع كلمة الأولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليلتولوا بالبحث في مبادئ عقائدهم وما كان من اختلاف قليل رد إليهما وقضى الأمر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين إن كانت حاجة إلى الاستشارة وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما توهم التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يوحى ظاهر اللفظ اه :

أما الحكمة التي أتى الله عليها في قوله ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ والتي أتى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ، كلمة من الحكمة يتعلمها لرجل خير من الدنيا وما فيها ، والتي حض عليه

السلام على البحث عنها في قوله الحكمة ضالة المؤمن يندسها أن وجدها ،
فقد كانت منتشرة بين الصحابة وورد عن كثير منهم حكم لا يحصيها العد
تهذب النفس وتحبي القلب وأكثرهم في ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي
طالب رضى الله عنه وها نحن نسوق لك شذرات منها مما نقلناه من الجزء
الثاني من الكتاب المرسوم بنهج البلاغة قال رضى الله عنه ، البخل عار
والجبن منقصة والفقر يخرس الفطن عن حجته والمقل غريب في بلدته
والعجز آفة والصبر شجاعة والزهد ثروة والورع جنة ، نعم القرين الرضى
والعلم وراثته كريمة والآداب حلل مجددة والفكر مرآة صافية ، وقال صدر
العاقل صندوق سره والبشاشة حبل المودة والاحتمال قبر العيوب ، وقال
، إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته
محاسن نفسه ، وقال إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة
عليه ، وقال ، إذا وصلت اليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر ،
وقال من جرى في عنان أمه عثر بأجله ، وقال ، من أبطأ به عمله لم يسرع
به نسبه ، ويروى هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ، من كفارات
الذنوب العظام إعانة الملهوف التنفيس عن المكروب ، وقال يا ابن آدم إذا
رأيت ربك سبحانه يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره ، وقال ، الحذر
فوق الله لقد ستر حتى كأنه غفر ، وقال ، فاهل الخير خير منه وفاعل الشر
شر منه ، وقال ، كن سمحاً ولا تكن مبذراً وكن مقدراً ولا تكن مقترأ
وقال ، من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه بما لا يعلمون ، وقال
، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضى عنه الله ،
وقال ، احذروا صولة الكريم إذا جاع وصوله اللئيم إذا شبع ، وقال
، أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وقال ، القناعة مال لا ينفد ، وقال
، اللسان سبع إن خلى عنه عقر ، وقال ، فوت الحاجة أهون من طلبها إلى
غير أهلها ، وقال ، لانستح من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه ، وقال

« إذا تم العقل نقص الكلام ، وقال « من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وإيكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم ، وقال « قيمة كل امرئ ما يحسنه ، وقال « أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً : لا يرجون أحد منكم إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستحيين أحد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ولا يستحيين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه وعليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ولا خير في جسد بغير رأس ولا في إيمان لا صبر معه ، وقال « من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ ، وقال « اعقلوا الخير عقل رعاية لا عقل رواية فإن رواية العلم كثير ولكن رعايته قليل ، وقال « لا يترك الناس شيئاً من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه ، وقال « إضاعة الفرصة غصة ، وقال « عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب وبفوته الغنى الذي إياه طلب فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء وعجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نظافة ويكون غداً جيفة وعجبت لمن شك في الله وهو يرى خلق الله وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى الموتى وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء ، وقال « لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث في نكباته وغيبته ووفاته ، وقال « تنزل المعونة على قدر المؤنة ، وقال « المرء مخبوء تحت لسانه ، وقال « لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان ، وقال « الراضى بفعل قوم كالداخل معهم وعلى كل داخل في باطل إثم إن لم يثم العمل به وإثم الرضى به ، وقال « من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها ، وقال « من كتم سره كانت الخيرة بيده ، وقال « الإعجاب يمنع من

الازدياد ، وقال ، الناس أعداء ما جهلوا ، وقال « ازجر المسىء بثواب المحسن ، وقال ، الطمع رق مؤبد ، وقال « من أبدى صفحته للحق ملك ، وقال « لم يذهب من مالك ما وعظك ، وقال « لا يزهدنك في المعروف من لا يشكر لك فقد يشكرك عليه من لا يستمع به وقد تدرك من شكر الشاكر أكثر مما أضع الكافر والله يحب المحسنين ، وقال « بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد ، وقال « من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه ، وقال « الكرم أعطف من الرحم ، من ظن بك خيرا فصدق ظنه ، وقال « الحدة ضرب من الجنون فإن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحكم .

وهذا قليل من كثير أوردناه لك لتعلم ما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقوالهم وأفعالهم فتعز باتباعهم إن كان لك في العز حاجة .

وهذه العلوم التي كانت في العصر الأول مشغلة للمعلمين والمتعلمين لا يعرفها إلا مسلم ولا يتركها إلا منافق وهي التي بها صلاح الأمة في الدين والدنيا وقد بقيت علوم كفايات لم يتركها المسلمون بل اشتغلوا بها لصلاح الدنيا ولا بأس أن نذكر لك بعضها لتعلم كيف كان شغلهم بها .

الكتابة

كانت الكتابة في صدر الإسلام قليلة جداً لأمية العرب ولكنها أخذت في الانتشار حينما حض على تعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابتداء شيوعها لما جعل عليه السلام فداء بعض الأسرى في بدر أن يعلم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب كثيرون لكتابة الوحي والمراسلات أشهرهم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم وفي مدة الشيخين شاعت الكتابة أكثر .

لغات الأعاجم

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة العبرانية لغة اليهود ليكون بينه وبينهم وليكتب لهم عنه عليه السلام ما يريد أن يكتبه فلا بأس أن يكون في الأمة من يعرف اللغات الأعجمية متى كان هناك احتياج إلى ذلك وكان في الصحابة كثير من عرف لغة الفرس والروم وغيرهم .

الطب

كان الطب مشتهراً بين العرب وله قوم مخصوصون اتخذوه حرفة من أشهرهم الحارث بن كادة وقد انتدبه عليه السلام ليدأوى مرضاً ألم بسعد بن أبي وقاص وبعث عليه السلام إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع منه عرقاً ثم كواه عليه . رواه مسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث في الحث على تعلم الطب منها : لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برى . بإذن الله ، وفي هذا الحديث حث على معرفة طبائع العقاقير وتشخيص الداء حتى يجعل لكل داء دواءه . وورد عنه عليه السلام أحاديث في الطب منها : الحى من فيج جهنم فأبردوها بالماء ، رواه مسلم ومنها - أو هو أثر - المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة ، ويعجبنى هنا ما ذكره الغزالي في الإحياء تنديداً بطلاب العلم الذين جعلوا دأبهم الاشتغال بفروع الفقه الدقيقة التي تنقض الدهور ولا يحتاج لشيء منها ويهملون ما عدا ذلك من السكفيات قال رحمه الله (فكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة ولا تجوز شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشغل به ويتهازون على علم الفقه لاسيما الخلافات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعري

كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به هل لهذا من سبب إلا أن الطب ليس يمتيسر به الوصول إلى تولى الأوقاف والوصايا حيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم على الأقران والتسلط به على الأعداء) ونحمد الله أن أوجد من غير الفقهاء من يسد هذه الثلمة في الأمة فقام بتعلم الطب وإفادة الناس منه ومن هنا يعلم أن الأمة في العصر الأول لم تكن تخلو من قائم بالكفايات التي عليها مدار العمارة والتقدم كالحساب أو الهندسة وغير ذلك . وإلى هنا انتهى ما أردنا إيراده من نظامات الإسلام ربقيت في النفس بقية نذكر فيها معاملة المسلمين لبعضهم في العصر الأول إذ هذا هو الذي تدور عليه سعادة الأمة وشقاوتها وبه عزها وذمها فاسمع واقفه اللهمني الله وإياك الرشيد قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ وقال ﴿ إنما المؤمنون إخوة فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متآخين في الله متحابين وكانت الأخوة بينهم في أعلى درجاتها وهو الإيثار على النفس قال الله تعالى في وصف الأنصار ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ فكان الرجل منهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه عملاً بقوله عليه السلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فلا يغشه لئلا يدخل تحت قوله عليه السلام « من غشنا فليس منا ، ولا يكذب عليه إذا حدثه ولا يخلفه إذا وعده ولا يخونه إذا ائتمنه لئلا يكون منافقاً ، قال عليه السلام « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان ، وفي حديث آخر « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر ، ولا يقصر في معاشرته امتثالاً

لقوله تعالى ﴿ وتعارفوا على السبر والتقوى ﴾ ولا يسخر منه ولا يلززه ولا ينازبه بالألقاب ولا يظن به الظنون ولا يتجسس عليه ولا يغتابه قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلهزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ٥ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتاب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ وقال عليه السلام : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تداربوا وكونوا عباد الله إخواناً ، وقال : لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تداربوا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من البشر أن يحقر أخاه المسلم وكل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله ، وقال : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تداربوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لامرئ أن يهجر أخاه فوق ثلاثة ، ولا ينم عليه لثلاث بحرم الجنة قال عليه السلام : لا يدخل الجنة نمام ، ولا يسه لثلاث يفسق قال عليه الصلاة والسلام : سباب المؤمن فسوق ، ولا يجرد في وجهه سيفاً لثلاث تكون عاقبته النار قال عليه السلام : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالتقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه ، وقال الله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ ولا يترفع عليه اضعفة في نسبه أو ذلة في ماله قال عليه السلام في حجة الوداع : أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى إن أكرمكم عند

الله أنقاكم ، ولا يعامله بالربا ، كيف وقد نهى الله تعالى عنه أشد نهى فقال
وقوله الحق ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه
الشیطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم
الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد
فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يحق الله الربا ويربى الصدقات والله
لا يحب كل كفار أثيم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يا أيها
الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا
فأذفوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رموس أموالكم لا تظلمون
ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم
إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس
ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ فليتدبر هذا النهى أولو النهى من المسلمين ليعرفوا
كيف آلت حالهم إلى ما هم عليه الآن . وكان المسلم يرى أن من دينه نصيحة
أخيه قال عليه السلام « الدين النصيحة ، قيل لمن يارسول الله ؟ قال لله
ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وبمنع عنه أذى يده ولسانه قال عليه
السلام ، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله
عنه ، وكان الحياء من شعاعهم قال عليه السلام « الحياء من الإيمان ،
يطعمون الطعام ويقرمون السلام قال عليه السلام وقد سئل أى الأعمال
أفضل ؟ تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف ، يحبون
الله ورسوله أكثر من الأموال والأولاد قال عليه السلام « ثلاث من كنَّ
فيه وجد حلوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن
يجب المرء لا يسيء إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف
فى النار ، ومن المعلوم أن المحبة ليست شقشقة اللسان إنما هى الطاعة فى
الأقوال والأفعال قل تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله

ويغفر لكم ذنوبكم ﴿ و آداب الإسلام التي كان المسلمون يتمسكون بها في العصر الأول لا تمل من أن تذكر لك بعضاً منها ليكون لك من نفسك زاجر قال الله سبحانه ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴿ وقال ﴿ ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴿ وقال ﴿ ولاتعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴿ وقال ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولو الدين والأقربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وما فعلوا من خير فإن الله به عليم ﴿ وقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ۝ واستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد ﴿ وقال ﴿ إن تبدوا الصدقات فمما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴿ وقال وهي من أهم ما يجب على المسلمين تنفيذه ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ۝ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ۝ وأولئك لهم عذاب عظيم ﴿ وقال ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴿ وقال ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سمياً بصيراً ﴿ وقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط

شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴿ وقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقال ﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ وقال ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذالك وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقيسط لا تكلف نفسا إلا وسعها وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون وقال ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلن الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ وقال ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾ وآت ذالقربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً ﴾ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بعباده خبيراً بصيراً ﴾ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق

ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً . ولا تقر بوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده . وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ، وأفوا الكيل إذا كنتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلاً . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) وقال (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) وقال (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بالديه حمله أمه وهنا على وهن ونصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير : وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتسكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصغر حذك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) هذا ولو أردنا استقصاء الآداب الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم

والسنة المطهرة لاحتجنا إلى مجلدات وليكننا أردنا بما ذكرنا أمرين : الأول
أنا ذكرنا لك أمهات الفضائل التي كان المسلمون في العصر الأول متخلفين
بها ، والثاني إنا نفتنا نظرك أيها المسلم لمذاكرة القرآن لتعرف ما احتوى
عليه من الآداب والحكم فتقف عند ما حده لك ومذاكرة السنة المطهرة
الهادية ولا تكن ممن يضعها في بيته تبركا بأوراقها ونقوشها ، والله الهادي
إلى الصراط المستقيم .

مقتل عمر

لم يصب المسلمون في العصر الأول بمصيبة بعد وفاة رسول الله صلى الله
وسلم اعظم من قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : جنى عليه
غلام مجوسى اسمه أبو لؤلؤة كان للمغيرة بن شعبة وها نحن نسوق لك ما رواه
البخارى في صحيحه عن عمرو بن ميمون في هذا المصاب الجلال قال عمرو
إني لواقف ما بيني وبينه (عمر) إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان
إذا مر بين الصفيين قال استووا حتى إذا لم ير فيهم خلا تقدم فكبر وربما
قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس
فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلى أو أكلنى الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة
فسار العليج بسكين ذا طرفين لا يمر على أحد يمينا وشمالا إلا طعنه حتى
طعن ثلاثة عشر رجلا منهم سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين
طرح عليه برنسا فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه وتناول (عمر) يد
عبد الرحمن بن عوف فقدمه فن يلى عمر فقد رأى الذى أرى وأما فواحي
المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان
الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة فلما انصرفوا
قال يا ابن عباس انظر من قتلتى فجاء ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة قال

الصنع قال نعم فقال قاتله الله لقد أمرت به معروفاً الحمد لله الذى لم يجعل
ميتى بيد رجل يدعى الإسلام وقد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثرا العلوج
بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيماً فقال إن شئت فعلت أى إن شئت قتلنا
قالى كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبيلتكم وحجوا حجكم فاحتمل
إلى بيته فانطلقنا معه وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقال يقول
لا بأس عليه وقائل يقول أخاف عليه فأتى بنيذ فشر به فخرج من جوفه ثم
أتى بلبن فشر به فخرج من جوفه فعملوا أنه ميت فدخلنا عليه وجاء الناس
يتنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك
من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قدم فى الإسلام ما قد علمت ثم
وليت فعدلت ثم شهادة قال وددت أن ذلك كفاف لا على ولا لى فلما أدير
إذا إزاره يمس الأرض قال ردوا الغلام قال يا ابن أختى ارفع ثوبك فإنه
أبقى لثوبك وأتقى لرَبك يا عبد الله بن عمر انظر ما على من الدين فحسبوه
فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه قال إن وفى بذلك مال آل عمر فأده من
من أموالهم وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب فإن لم تف أموالهم فسل
فى قريش ولا تعدم إلى غيرهم فأدعنى هذا المال انطلق إلى عائشة أم
المؤمنين فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم
بالمؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فسلم
واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى فقال يقرأ عليك عمر بن
الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى
ولأوثرن به اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال
ارفعونى فأسنده رجل إليه فقال ما لديك قال الذى تحب يا أمير المؤمنين
أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك فإذا قضيت فاحملونى ثم سلم
فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت فأدخلونى وإن ردتنى فردونى إلى
مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة (بنت عمر) والنساء تسير معها

فلما رأيناها قننا فو لجت عليه داخلا لهم فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا
أوص يا أمير المؤمنين استخلف فقال كما ورد في رواية مسلم و أنحمم أمركم
حيا وميتا لوددت أنى أحظى منها من الكفاف لا على ولا لى وإن استخلف
فقد استخلف من هو خير منى - يعنى أبابكر - وإن أترككم فقد ترككم من هو
منى - يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله بن عمر فعرفت أنه -
حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم - غير مستخلف ثم قال عمر ما أجد
أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وسعداً وطلحة
وعبد الرحمن بن عوف وقال يشهدكم عبد الله ابن عمر وليس له من الأمر
شئ كهيئة التعزية له فإن أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك وإلا فليستعن به
أيكم ما أمر فإنى لم أعز له من عجز ولا خيانة وقال أوصى الخليفة من بعدى
بالمهاجرين الأولين أن يدفع لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه
بالانصار خيراً الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم
وأن يعفو عن مسيئتهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم رده الإسلام
وجباة المال وغيظ العدو وألا يأخذ عنهم إلا فضلهم عن رضاهم وأوصيه
بالأعراب خيراً فانهم أصل العرب ومادة الاسلام أن يأخذ من حواشى
أموالهم وترد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله صلى الله عليه
وسلم أن يوفى لهم بعدهم وأن يقاتل من وراءهم ولا يكفوا إلا طاقتهم فلما
قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر
ابن الخطاب قال ادخلوا فأدخل فوضع هناك مع صاحبيه . وهناك قال على
رضى الله عنه كما فى رواية البخارى عن ابن عباس (رحمك الله إن كنت
لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك لأنى كثيراً ما كنت أسمع رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول كنت وأبو بكر وعمر وفعلت وأبو بكر وعمر
وانطلقت وأبو بكر وعمر فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما) فلما فرغ

من دفته اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير قد جعلت أمرى إلى علي وقال طلحة قد جعلت أمرى إلى عثمان وقال سعد قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف فقال عبد الرحمن (لعثمان وعلي) أيكما تبرأ من هذا الأمر فوجهه إليه والله عليه والإسلام لينظرن إلى أفضلهم في نفسه فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن أفتجعلونه إلى الله علي أن لا آلو عن أفضلكم قال نعم فأخذ بيد أحدهما (علي) فقال لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الإسلام ما قد علمت فإله عليك اثن أمرتك لتعدلان واثن أمرت عثمان لتسمعن وتطيعين ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال ارفع يدك يا عثمان فبايعه وبايع له عل وولج أهل الدار فبايعوه ولما تمت البيعة صعد عثمان المنبر فخطبهم فقال (الحمد لله ، أيها الناس اتقوا الله إن الدنيا كما أخبر الله عنها : لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) فخير العباد فيها من عصم بالله واستعصم بالله وبكتابه وقد وكلت من أمركم بعظيم لا أرجو العون عليه إلا من الله ولا يوفق للخير إلا الله وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) ثم نزل .

ترجمة عثمان

وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف
الأموي القرشي وأمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف
ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على
الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حياً عفيفاً ولما بعث الله محمداً صلى الله
عليه وسلم كان عثمان من السابقين إلى الإسلام على يد الصديق رضى الله عنه
وزوجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى المشركون المسلمين هاجر رضى الله
عنه مع زوجه إلى بلاد الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة فلما
أذن الله بها هاجر إليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم كل مشاهدته ولم يكن له يد في أمره بل كان يرضى عنه حتى ماتت
عقب انتصار المسلمين فيها وأسهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم في غنيمتها
ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان من عفا الله عنهم في أحد وكان في عمرة
الحديبية سميراً بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش فلما شاع غدرهم
بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده النبي هذه يد عثمان فضرب
بها على يده فقال هذه لعثمان وكان له في جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى
فقد أنفق من ماله أكثر مما جاد به غيره واشترى بئر رومة بماله ثم تصدق
بها على المسلمين فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام
من حفر بئر رومة فله الجنة ، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان للخليفين من بعده عاملاً أميناً . ولما أصيب المسلمون بقتل عمر كانت
أغلبية الشورى له فقام بأمر الخلافة خير قيام إلا أن في آخر مدته تغير
بعض المسلمين عما كانوا عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخين
من بعده ودبت لإلهم الدنيا زحجها وهو رأس كل خطيئة فقام عليه جماعة

من بغاتهم فشتتوا شمل المسلمين بشق عصا الطاعة حتى تداعت أركان الخلافة
وقتل ظلماً رضى الله عنه وقد جاوز الثمانين من عمره وكان رجلاً ليس
بالعويل ولا بالقصير حسن الوجه رقيق البشرة بوجهه أثر جدري . كبير
اللحية عظيمها أسمر اللون أصلح عظيم الكراديس عظيم ما بين المنكبين
يصفر لحيته وله من الأولاد عبد الله الأكبر وعبد الله الأصغر وعمرو
وغالد وأبان وعمر ومريم والوليد وسعيد وأم سعيد وعبد الملك وعائشة
وأم أبان وأم عمرو ومريم وعنبسة وأم البنين .

أعماله في خلافته

في الكوفة

في بدء خلافته استعمل سعد بن أبي وقاص على الكوفة عملاً بوصية
عمر وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فأقام سعد في إمارة الكوفة
سنة ثم عزله عثمان لخلاف وقع بينه وبين عبد الله بن مسعود ، سببه أن
سعداً اقترض من عبد الله مالاً فلما تقاضاه إياه لم يجد له سعد أداء فطلب
منه التأجيل فلم يقبل وحصل بينهما في ذلك نزاع فتعصب لهذا قوم ولذلك
آخرون وكان هذا أول شقاق حصل بين أهل الكوفة فغضب لذلك أمير
المؤمنين عثمان وعزل سعداً وولى مكانه الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي
عمرو بن أمية بن عبد شمس وأمه أم عثمان وعزل عتبة بن فرقد عن أذربيجان
التي كانت تابعة لولاية الكوفة فانتقض أهلها فغزاهم الوليد فأغار على أهل
موقان والبير والطليسان ففتح وغنم ثم طلب أهل كور أذربيجان الصلح
فصالحهم على صلح حذيفة وهو ثمانمائة ألف درهم (ثم) سير سلمان بن ربيعة
الباہلی إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً فشتت شملهم ورجع إلى الوليد
بغنائهم فرجع الوليد من طريق الموصل فلما أتى المدينة جاءه وهو بها

كتاب من عثمان يأمره أن يمد أهل الشام بجيش يقوده رجل ذو نجدة فندب الناس مع سلمان بن ربيعة الباهلي فانتدب له ثمانية آلاف سيرهم معه وأقام الوليد واليا على الكوفة خمس سنين في نهايتها انهم جماعة من أهل الكوفة بأفه شرب الخمر وشهدوا بذلك عند عثمان فعزله عن إمارتها وجلده حـد الشارب أربعين جلدة كما أفنى بذلك علي بن أبي طالب وولي مكانه سعيد ابن العاص فلما وصل الكوفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره ولكني لم أجد بدا إذا أمرت أن أتمر ، ألا وإن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينها وواقة لأضربن وجها أو تعينني وإنى لرائد نفسي اليوم ثم نزل وسأل عن أهل الكوفة فعرف حالهم وكتب إلى عثمان إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وعلب على أهل الشرف والبيونات منهم والغالب على تلك البلاد روادف قدمت وأعراب لحقت حتى لا ينظر إلى ذى شرف أو بلاء من نابتها ولا نازاتها فكاتب إليه عثمان (أما بعد ففضل أهل السابقة والقدم ومن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها من غيرهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا تناقلوا عن الحق وتركوه وقام به هؤلاء واحفظ لكل منزلته واعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فأرسل سعيد إلى أهل القادسية والأيام فقال أنتم وجوه الناس والوجه ينبي عن الجسد فأبلغونا حاجة ذوى الحاجة وأدخل معهم من يحتاج إليه من اللواحق والروادف وجعل القراء في سمرة ففشت القالة في الكوفة بالقدح في ولاية عثمان وفيه توليته إياهم فكاتب سعيد إلى عثمان فجمع الناس وأخبرهم بما كتب إليه فقالوا أصبت لا تطعمهم فيما ليس له له أهل فإنه إذا نهض في الأمور من ليس لها أهل لم يحتملها وأفسدها فقال عثمان يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا فقد دبت إليكم العتة وإن والله لا تخلفن الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم حتى يأتي من شهد مع أهل العراق سهمه فيقيم معه في بلاده فقالوا كيف تنقل إلينا سهمنا من الأرضين

فقال يديهما من شاء بما كان له في الحجاز واليمن وغيرها من البلاد ففرحوا وفتح الله عليهم أمراً لم يكن في حسابهم وفعلوا ذلك واشتراه رجال من كل قبيلة وجاز لهم عن تراض : وفي عهد سعيد بن العاص فتحت طبرستان سار إليها ومعه الحسن والحسين ابنا علي وابن عباس وابن عمر وابن العاص وابن الزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم من كبار الصحابة فقاتل أهلها ثم طلبوا الصلح فصالحهم وكان ذلك في السنة الثلاثين ثم سار سعيد وحذيفة ابن اليمان لإمداد عبد الرحمن بن ربيعة الذي كان بالباب فلما بلغا أدربيجان سير سعيد حذيفة وأقام هو رداء له فسار حذيفة وغزا مع عبد الرحمن ثم رجع إلى سعيد فصبحه بالكوفة . وفي السنة الثانية والثلاثين غزا عبد الرحمن ابن ربيعة الترك ثالث مرة وأوغل في سيره فتجمع عليه الترك والخزر وقاتلوه قتالاً شديداً حتى قتل فتفرق جيشه فرقتين فرقة سارت نحو الباب فالتقت بسليمان بن ربيعة الباهلي أخى عبد الرحمن الذي سيره سعيد مدداً لآخيه فنجوا معه وفرقة سارت نحو جيلان وجرجان فيهم سليمان الفارسي وأبو هريرة الدوسي واستعمل سعيد مكان عبد الرحمن أخاه سليمان على غزو الباب واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حذيفة بن اليمان وأمدم أمير المؤمنين عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة فتأمر عليهم سليمان ابن ربيعة وامتنع حبيب أن يكون تحت إمرته حتى قال أهل الشام ولقد هممنا أن نضرب سليمان فقال الكوفيون إذا نضرب حبيباً ونحبسه وإن أبيتكم كثرت القتلى فينا وفيكم وكان هذا أول شقاق حصل بين الكوفيين والشاميين ودبت البغضاء بينهم بسبب التنافس في الرياسة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وفي السنة الثالثة والثلاثين حصل بالكوفة ما ينبغي بمصيرها من دون إلى أدنى في الشقاق والتنازع لأن نزاهتها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلون وأهل السابقة والفضل من أهلها وزعمهم سعيد ولاية على كور الكوفة من بلاد فارس وكان يجلس إلى سعيد كثير من

أهل الكوفة للسمر فكانوا يتذاكرون وقائعهم وحوادثهم وأدى ذلك إلى مشاجرة بعضهم بعضاً واستخفوا بصاحب الشرطة لما نهاهم عن ذلك التنازع حتى أنهم ضربوه فطردهم سعيد من السمر عنده فابتعدوا وأقاموا في مجالس لهم لا لهم إلا الواقعة بسعيد ومن ولاء فكتب إلى أمير المؤمنين عثمان بخبرهم فكتب إليه أن يحمن رؤسهم إلى معاوية بالشام وكتب إلى معاوية إن نفرأ خلقوا للفتنة فأقم عليهم وأنهم فإن آنت منهم رشداً فأقبل وإن أعيوك فارددم على فلما قدموا على معاوية أكرمهم وأحسن وفادتهم وأجرى عليهم أرزاقهم كما كانوا بالعراق فلم تزدنعم إلا بطراً واستخفوا بمعاوية واعترضوا على ولايته فقال لهم إني رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معصوماً فولاني وأدخلني في أمره ثم استخلف أبو بكر فولاني ثم استخلف عمر فولاني ثم استخلف عثمان فولاني ولم يولني أحد إلا وهو عنى راض وإنما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعمال أهل الجزاء من المؤمنين والغناء وإن الله ذو سطوات ونفقات يمكر بمن مكر به فلا تتعرضن لأمر وأتم تعلقون من أنفسكم غير ما تظهرون فإن الله غير تارككم حتى يختبركم وييدى للناس سرايركم؟ ولما رأهم بمن ضلوا على علم فلم تقدم النصيحة كتب إلى عثمان بخبرهم فأرسل إليه أن سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص فلما وصلوا إليه دعاهم فقال يا آلة الشيطان لا مرحبا بكم ولا أهلا قد رجع الشيطان محسوراً أنتم بهمد في نشاط خسر والله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم لا تقولوا لي ما بلغني أنكم قلم لمعاوية أنا ابن خالد بن الوليد أنا ابن من عجمته العاجات أنا ابن فائق عين الردة والله يا فلان إن بلغني أن أحداً من معي دق عنك ثم غمصك لأطيرن بكم طيرة بعيدة الموى فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم خلفه حتى قالوا نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله فما زالوا به حتى قال تاب الله عليكم (ثم) إن سعيد بن العاص أمير الكوفة رحل إلى أمير المؤمنين في أمور تخص ولايته

واستخلف على عمله عمرو بن حريث فقام جماعة من أهل الكوفة كرهوا ولاية سعيد وانفقوا على التوجه إلى عثمان واستغفائه منه وكاتبوا من عند عبد الرحمن بن خالد فساروا إليهم وخرج الجميع لذلك فقابلهم سعيد في الطريق راجعا فأخبروه خبره فقال كان يكفيناكم أن ترسلوا العثمان رجلا وإلى رجلا ثم رجع إلى عثمان وأخبره بذلك وقال لأنهم يريدون البديل بي ويحبون أبا موسى فولاه عثمان عليهم وكتب إليهم (أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ووالله لأقرضنكم غرضي ولأبذلن لكم صبري ولاستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئا أحببتموه لا يعصي فيه الله إلا استغفيم منه أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم على الله حجة ولنصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون) ثم جاء أبو موسى ودخل الكوفة وخطب أهلها وأمرهم بلزوم الجماعة ولم يزل والياً عليها حتى مات عثمان رضى الله عنه .

في البصرة

كان والى البصرة أول خلافة عثمان أبو موسى الأشعري فأقام فيها إلى السنة التاسعة والعشرين ثم عزله عثمان وولى بدله عبد الله بن عامر بن كريز ابن ربيعة بن عبد شمس وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين (وفي) عهده انتقض أهل فارس بأمرهم عبيد الله ابن معمر فسار إليهم عبيد الله ولاقام على باب اصطخر فقتل وانهمز من معه ولما بلغ ذلك ابن عامر سار إليهم بجيش كثيف فقاتلهم قتالا شديدا حتى هزمهم وفتح اصطخر عنوة وأتى دار ابجرود وقد غدر أهلها ففتحها وبلغه وهو هناك أن أهل اصطخر عادوا إلى غدرهم فرجع إليهم وفتحها ثالث مرة وقتل كثيرا من وجوه أهلها ثم وطئ أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل (وفي) عهده قتل يزيدجرد ملك الفرس وهو آخر ملوكهم

والأخبار مضطربة في كيفية قتله إلا أنهم اتفقوا على أنه قتل وحيداً طريداً لم يكن عنه هذا الملك الواسع شيئاً واتفقوا على أنه قتل بيد أجمية وكان يتمنى إذ ذاك أن لو كان وقع في يد العرب المسلمين فإنهم كانوا يقولون عليه فيعيش منعماً في ظل الإسلام الظليل ولكن أنى له ذلك والشقاء متى غلب لا يرد؟ (وفي) السنة الحادية والثلاثين سار عبدالله بن عامر لفتح خراسان التي انتقض أهلها بعد موت عمر فلما وصل الطيبين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح فسار إلى قهستان فلقى أهلها وقائلهم حتى أجازهم إلى حصنهم ولما أقبل على المدينة طلب أهلها الصلح فصالحهم على ستانة ألف درهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها على ألف ألف درهم ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان ثم إلى مرو الروز فلقبه جمع كثير من جموع المشركين فهزمهم ووجه الأقرع بن حابس التميمي إلى جمع من الفرس بالجوزجان ووصاه هو وقومه فقال (يا بني تميم تحابوا وتبادلوا تصلح أموركم وأبدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم) فسار القوم حتى لقوا الأعداء فهزمهم ثم فتح الأحنف الطالقان صلحا وسار إلى بلخ فصالحه أهلها على أربعمائة ألف درهم ثم سار إلى خوارزم فلم يتمكن من فتحها فعاد عنها (ثم) رجع ابن عامر بعد أن فتح هذه البلاد العظيمة مرة ثانية فقبل له ما فتح الله على أحد مثل ما فتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان فقال لا جرم لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج معتمراً من موقفي هذا فأحرم بعمره من نيسابور (وبعد ثلاث سنين من إمارة ابن عامر بالبصرة بلغه أن رجلاً نزل على حكيم بن جبلة العبدى وله آراء غير مقبولة فطلبه بن عامر فسأله من أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام وفي وجوارك فقال ما يبلغني ذلك أخرج عنى نخرج حتى أت السكوفة فأخرج منها فأتى الحجاز واليها ما خرج منها فأتى مهران فعمش فيها ثم باض وفرخ وكان هذا الرجل من عبد الله بن سبأ

وابن السوداء وهي أمه كان يهودياً ثم أظهر إسلامه مع ضمير خبيث وكانت له آراء فاسدة منها أنه كان يقول عجبت ممن يصدق ب رجوع المسيح ولا يصدق ب رجوع محمد وكان هذا ابتداء القول بالرجعة وكان يقول إن علياً وصى محمد وقد غصبه من ولى قبله حقه فالواجب على المسلمين أن يقوموا بإعادة الحق إلى أهله وقد تبع مذهبه كثير من طاشت أحلامهم فكان هذا من ضمن الأسباب التي أدت إلى عشق عصا الطاعة وافتراق الأمة الإسلامية التي لا ينفعها إلا الاجتماع والاتحاد ولا يضرها إلا الافتراق والاختلاف .

في الشام

في أول ولاية أمير المؤمنين عثمان بن عفان جمع الشام كله لمعاوية ابن أبي سفيان بن حرب بن أمية وفي السنة الثانية من ولاية عثمان غزا معاوية الروم فبلغ عمورية ووجد الحصون التي بين طرطوس وأنطاكية خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة ثم رجع وأغزى الصائفة يزيد بن الحر العبسي ففعل مثل معاوية وفي هذه السنة أمره أمير المؤمنين أن يغزى حبيب بن مسلمة أرمنية فوجه إليها فأتى قاليقلا وحاصرها وضيق على أهلها فطلبوا الصلح على الجلاء لمن أراد والجزية على من أقام فأجابهم وأقام حبيب بها شهراً ثم بلغه أن بطريق أرمنيا قس قد جاء إلى حربته في ثمانين ألفاً فأرسل إلى عثمان بالخبر فبعث إلى الوايد بن عقبة أمير الكوفة أن يمدّه فأمده بسليمان بن ربيعة في ثمانية آلاف كما قدمنا وأجمع حبيب ومن معه رأيهم على تثبيت الروم فسمعت امرأته أم عبدالله بنت يزيد الكلبية فقالت أين موعدك غداً فقال سرادق الموريان ثم بيّتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته إليه فكانت أول امرأة عربية ضرب عليها حجاب سرادق ثم عاد حبيب إلى قاليقلا ثم سار منها ونزل مر بالافأ فأتاه بطريق خلطاط بكتاب الصلح الذي كتبه له عياض بن غنم

بالأمان فأجراه عليه ثم سار فلقيه صاحب مكس وهي من السفرجان فقاطعه على بلاده ثم سار إلى ازدشاط فحاصرها ثم صالح أهلها ثم أتى إليه بطريق السفرجان فصالحه على جميع بلاده ثم سار إلى تفليس ففتحها وسار سليمان ابن ربيعة إلى أران ففتح البيلقان صالحاً على أن أمتهم على دماهم وأموالهم وحيطان مدينتهم واشترط عليهم الجزية على الروس والخراج على الأرض ثم أتى مدينة بردعة فمسكر على الثرثور وهو نهر بينه وبينها فرسخ فقاتله أهلها أياماً ثم صالحوه وفتح رساتيق البلاد ودعا أكراد البلاشجان إلى الإسلام فأبوا فقاتلهم وظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية ودفع بعضهم الزكاة وهم قليل ثم سار إلى سمكور ففتحها ثم خربت بعد ثم عمرت في زمن المتوكل على الله العباسي وسميت المتوكلية ثم صالح جميع سكان البلاد التي هناك ورجع (وفي) السنة الثامنة والعشرين فتح معاوية جزيرة قبرص وغزا معه كثير من كبار الصحابة فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت ومعه زوجه أم حرام بنت ملحان التي أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها في أول من يغزو في البحر (روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته ثم جلست تفلى رأسه فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ وهو يضحك قالت فقلت ما يضحكك يا رسول الله قال ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة (يشك أيهما قال) قالت فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك قالت فقلت ما يضحكك يا رسول الله قال ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله كما قال في الأولى قالت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال أنت من الأوابن . وكان معهم أبو الدرداء وشداد بن أوس وكان معاوية كثيراً

ما يمتنى غزو الروم في البحر زمن عمر بن الخطاب فلا يأذن له لأن فيه غرراً بالمسلمين ولما كان زمن عثمان أذن وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعته ففعل وسار من الشام إلى قبرص وأمدته إلى مصر عبد الله بن سعد بنفسه فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على سبعة آلاف كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم وفي هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان الأنصارية سابقة الذكر ألفتها بغلتما بجزيرة قبرص فماتت (واستعمل) معاوية على غزو البحر عبد الله بن قيس الجاسي فغزا خمسين غزوة من بين صائفة وشاتبة في البر والبحر ولم يغرق أحد من جيشه ولم ينكب ثم خرج مرة في قارب طليعة فانتهى لمرفاً من الروم فنذروا به فجاءوا وقتلوه (وفي السنة الثلاثين شكى معاوية أبا ذر لعثمان وكان مذهب أبي ذر أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكة أكثر من قوت يوم أو ليلة أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده للتكريم) مستدلاً بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) ويميل إلى هذا المذهب مذهب الاشتراكيين الآن فكان أبو ذر رحمه الله يقوم بالشام ويقول يامعشر الأغنياء اسأوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكأو من النار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم حتى أزلع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء فشكا الأغنياء ما يلقونه من معاوية فكتب في شأنه إلى عثمان فأرسل إليه أن سيره إلى فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سلع قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال له ما لأهل الشام يشكون ذرب

لسانك فأخبره فقال يا أبا ذر على أن أقضى ما على وأن أدعوا الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد وما على أن أجبرهم على الزهد . فقال أبو ذر لا ترضوا من الأغنياء حتى يبدلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القرابات ثم طلب من عثمان أن يأذن له بالخروج من المدينة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بذلك إذا بلغ البناء سلماً فسيره إلى الربذة فبنى بها مسجداً وأقطع عثمان قطعة من الإبل وأجرى عليه العطاء فأقام أبو ذر منفرداً حتى أدركه الأجل المحتوم .

في مصر

كان عامل مصر في أول خلافة عثمان (فاتحها) عمرو بن العاص وفي السنة الثانية من خلافته كاتب الروم بالقسطنطينية إخوانهم بالإسكندرية داعين إلى نقض الصلح فأجابهم إلى ذلك . أما المقوقس فكان رجلاً شريفاً لم يخن عهده فسار إلى الإسكندرية في جمع عظيم من الروم فأرسوا بها . ولما بلغ ذلك عمرا سار إليهم وسار الروم إليه فاقتتل الفريقان بين مصر والإسكندرية حتى انهزم الروم وتبعهم المسلمون حتى أدخلوهم الاسكندرية وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة وهدم عمرو سور المدينة (وفي) هذه السنة سير عمرو عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أطراف أفريقية (سواحلها الشمالية من طرابلس إلى طنجة) غازياً بأمر عثمان ففتح وغنم ولما عاد استأذن عثمان في الغزو ثانية فأذن له وقال إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس نفلاً وأمر عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع ابن الحارث على جند وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سعد فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر ووطئوا أرض أفريقية وكانوا في جيش كثير فيه عشرة آلاف من شيمان المسلمين فصالحهم ملك أفريقية على مال يؤدونه ولم يتوغلوا في أفريقية لكثرة أهلها فعاد عبد الله بن سعد إلى مصر فولاه

عثمان خراجها وجعل عمرو بن العاص على الجند فلم ينفقا فجمع لابن سعد الخراج والجند وعزل بن العاص وعند ذلك استشار بن سعد عثمان في غزو أفريقية والاستكثار لها من الجند فجهز إليه الجيوش من المدينة فسار ابن سعد إلى أفريقية وكان ملكها من قبل الروم واسمه جرجير وملكه من طرابلس إلى طنجة وكان يؤدي أتاوة إلى ملك الروم فلما بلغه خروج المسلمين تجهز لهم والتقى بهم بمكان بينه وبين سيطرة عاصمة الملك يوم واحد بعد أن راسله عبد الله يدعو إلى الإسلام أو دفع الجزاء فأبى ودام القتال بينهم أياما يقتتلون كل يوم إلى الظهر ثم يعودون وكان خبر المسلمين قد أبطأ على عثمان فأمدهم بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير فلما وصلهم أشار علي بن سعد أن يقسم الجيش قسمين قسم يقاتل إلى الظهر ثم يخلفه الآخر حتى يهن المشركون فاتبع مشورته وأخرج القسم الأول لخارب إلى الظهر وأراد المشركون ترك القتال فلم يتمكنهم المسلمون بل استمر القتال بالقسم الثاني حتى ضعف المشركون وانهموا شرهزيمة وقتل جرجير ملك أفريقية قتله عبد الله بن الزبير وفتحت المدينة (ثم) بث لسرايا فبلغت قفصة ففتحت وغنمت وسير سرية إلى حصن الأجم فحاصرته ثم فتحته صلحا ثم صالح بن سعد أهل أفريقية على ألف وخمسمائة ألف دينار وأرسل إلى عثمان بالبشارة والأخماس وعاد هو من أفريقية وكان مقاهه فيها سنة وثلاثة أشهر ولما وصل خمس مغنم أفريقية إلى المدينة اشتراه مروان بن الحكم ثم حط عنه عثمان ثمه وولى على أفريقية عبد الله بن نافع بن عبد القيس وجعل بن سعد على مصر فقط .

القسم الثاني من الكتاب

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الفتن على أمته وكثيراً ما كان يحذرهم منها لأن بأس الأمة متى انتقل من أعدائها إلى أنفسها ساءت حالها وفسد نظامها وصارت إلى الفوضى أقرب منها إلى الإصلاح وقد ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم كثير من الأحاديث في التحذير منها ولكنه قدر فكان استكمل الفتح للأمة واستكمل الملك ونزل العرب بالأمصار على حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر وكان المختصون بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهتدون بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم وأما سائر العرب من بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلاً منهم وكان لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة ونزول الوحي وتنزل الملائكة فلما انحسر ذلك الباب وتنوى الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمجاهدين والأنصار من قريش وسواهم فأنفت نفوسهم ووافق ذلك أيام عثمان فكانوا يظهرون الطعن على ولاته بالأمصار والمواخذه لهم باللحظات والخطرات والتجنى بسؤال الاستبدال منهم والعزل ويفيضون في التكبير على عثمان وكان رأس هذه الفتنة ذلك الرجل اليهودي الذي قدمنا ذكره المسمى عبد الله بن سبأ .

قام بالدعوة لعلي بن أبي طالب زاعماً أنه وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أظلم ممن لم يحز وصيته فتبع مذهبه كثير من أهل الأهواء الذين لم

قلوب لا يفقهون بها فقال لهم انهضوا في هذا الأمر فإن عثمان أخذه بغير حق فكاتبوا أهل الأمصار فصادفوا من أهلها كثيراً يرون رأيهم حتى فشيت للقالة في الطعن على عثمان وولاته فبلغت هذه الأخبار أهل المدينة فسألوا عثمان عن ذلك فقال ما جاءني عن ولاتي إلا السلامة وأنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا على فأشاروا عليه أن يبعث رجالاته إلى الأمصار للتحقق من هذه الأخبار فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر فرجع القوم كلهم وقالوا ما علمنا من أمرائك إلا خيراً ما عدا عمار بن ياسر فإنه انحاز إليه جماعة من السبئية (أتباع ابن سبأ) وملأوه كلاماً في حق أمراء عثمان ومنعوه عن الرجوع إلى المدينة فكاتب عبد الله بن سعد إلى عثمان يخبره فأرسل عثمان إلى سائر الأمصار (إن أخذ عمالي بموافاتي كل موسم وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقوما يشتمون ويضربون فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالي أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين) وبعث إلى عماله أن يوافوا الموسم فقدموا عليه : عبد الله بن عامر أمير البصرة وعبد الله بن سعد أمير مصر و معاوية بن أبي سفيان أمير الشام فجمعهم وأدخل عمرو بن العاص السهمي وسعيد بن العاص الأموي وقال لهم وبحكم ما هذه الشكاية والإذاعة إنى والله لخائف أن تكفونوا ، صدوقاً عليكم وما يعصب هذا إلا بنى فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع إليك الخبر عن العوام ألم يرجع رسلك ألم يشافهم أحد بشيء والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً ولا يحل الأخذ بهذه الإشاعة فاستشارهم في تسكين هذه الفتنة فقال ابن عامر أرى أن تشغلهم بالجهاد وقال ابن سعد استصلحهم بالمال وقال معاوية اجعل كفايتهم إلى أمرائهم وأنا أكفيك الشام وقال ابن العاص أرى أنك قد نلت لهم ورضيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريق صاحبك فتشد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين وقال

سعيد متى تهلك قادتهم يتفرقوا فقال عثمان قد سمعت كل ما أشرت به ولكل أمر باب يؤتى منه إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وإن بابه الذي يعلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين والمواتاة إلا في حدود الله فإن فتح فلا يكون لأحد على حجة وقد علم الله أني لم آل الناس خيراً وإن رحي الفتنة دائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يجرها سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا ، ثم نفر ونفر الأمراء إلى بلادهم وصحبه معاوية لأن طريقه على المدينة فلما قدماها جمع عثمان كبار الصحابة فقام معاوية فحمد الله ثم قال أتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرنه من خلقه وولاة أمر هذه الأمة لا يطمع فيه أحد غيركم اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتهم به الحرم لكان قريبا مع أنى أرجوا أن يكون أكرم على الله تعالى من أن يبلغه ذلك وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبت فيها من شيء فهذه يدي ولا تطمعوا الناس في أمركم فوالله إن طمعوا فيها لا رأيتم منها أبداً إلا إداراً فنهروه على ابن أبي طالب فقال عثمان صدق ابن أخي وأنا أخبركم عنى وعمما وليت إن صاحبي اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى قرابته وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش فبسطت يدي فى شيء من ذلك لما أقوم به فيه فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمرى لأمركم تبع فقالوا قد أصبت وأحسنيت أعطيت خالد بن أسيد خمسين ألفاً و مروان بن الحكم ثمانين ألفاً فأخذ منهما لك فرضوا وخرجوا راضين ثم خرج معاوية إلى الشام بعد أن عرض على عثمان الخروج معه فلم يقبل ضناً بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار معاوية ومر فى سيره على نفر من المهاجرين فيهم على وطلحة والزبير فقال قد علمتم أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه حتى أرسل الله نبيه وكانوا يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس لهم تبع وإن

طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى غيرهم وإن الله على البذل
لقادر وإن قد خالفت فيكم شيئاً فاستوصوا به خيراً وكانقوه تكونوا أسعد
منه بذلك ثم مضى أما أهل الأمصار المنحرفون عن عثمان فإنهم لم يرتدعوا
عن غيرهم وجاءتهم كتب من المنحرفين بالمدينة يقولون لهم أقدموا علينا فإن
الجهاد عندنا فأتعد جميعهم شـوال يخرجون فيه مظهرين الحج فخرج
المصريون في خمسمائة عليهم العافقي بن حرب وخرج أهل الكوفة في عدد
أهل مصر وكذلك أهل البصرة ولما كانوا على ثلاث ليال من المدينة نزل
أهل البصرة خشباً (موضع هناك) ونزل أهل الكوفة الأعوص ومعهم
جماعة من أهل مصر ونزل جميعهم بذي المروة وكانت أهواؤهم مختلفة فيمن
بلى الخلافة بعد عثمان فالكوفيون يريدون طلحة بن عبيد الله والبصريون
الزبير بن العوام والمصريون علياً فاجتمع وفد من أهل كل مصر وذهبوا إلى
من هوأم فأتى أهل مصر علياً فسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم فصاح بهم
وطردهم وقال لقد علم الصالحون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله
عليه وسلم وكذلك قال طلحة والزبير لمن جاءهم فانصرف الجميع مظهرين
الرجوع إلى بلادهم حتى تفرق أهل المدينة ثم لم يشعروا إلا والتكبير في
نواحيها وأحيط بدار عثمان ونودي « من كف يده فهو آثم » فلزم الناس
بيوتهم واستغربوا رجوع الثوار بعد الإذعان بما طلبوه من إعفائهم من
العمال الذين يطلبون عزهم فأتى محمد بن مسلمة المصريين وقال لهم ما الذي
أرجعكم بعد ذهابكم فقالوا أخذنا كتاباً من البريد مع خادم عثمان يلعامل مصر
يأمره فيه بقتلنا ثم سأل البصريين عن مجيئهم فقالوا لنصر إخواننا وكذلك
قال الكوفيون فقال كيف علمتم بما لقي أهل مصر وكلتكم على مراحل من
صاحبه حتى رجعت إلينا جميعاً هذا أمر أبرم لبيل فقالوا اجعلوه كيف شئتم
لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا فأخذوا منهم الكتاب وسألوا عثمان هل
هو كاتبه فقال عثمان والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت فقال علي ومن

معه من كبار الصحابة صدق عثمان فقال المصريون إذا من كتبه فقال عثمان لا أدري قالوا فيجترأ عليك ويبيعت غلامك وجمل من إبل الصدقة وينقش على خاتمك ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تدري قال نعم قالوا ما أنت إلا صادق أو كاذب فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قبلنا وإن كنت صادقاً فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه فاخلع نفسك قال لا أخلع قيصاً البسنيه الله ولم يلهم الله أحداً أن يحقق أمر هذا الكتاب إذ كيف اتحدوا على الرجوع بعد افتراقهم في طرق مختلفة . أما تهمة مروان به فلم تثبت بل حينما سألوه حلف أنه لم يكتب ولم يجعل الله في دينه القويم دليلاً على تبرئة المنهم غير يمينه إن لم تكن هناك بينة ولكن الفتنة متى كشرت عن نايها ضاع السداد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قام الثوار بحصر أمير المؤمنين وصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المشهود له بالجئنة حصاراً شديداً حتى منعه الصلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل عثمان إلى علي وطلحة والزيبر فخصروا فأشرف عليهم فقال أيها الناس اجلسوا جلس المسلم منهم والمحارب ثم قال يا أهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى ثم قال أنشدكم الله هل تعلمون أنكم عند مصاب عمر سألتم الله أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم أتقولون إن الله لم يستجب لكم وهتم عليه وأنتم أهل حقه أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولى الدين بتفرق أهله يومئذ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة وإنما كان مكابرة فوكل الله الأمة إذ عصته ولم يشاوروا في الإمارة أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمرى وأنشدكم الله هل تعلمون أن لى من سابقة خير وقدم خير قدم الله لى بحق على كل من جاء من بعدى أن يعرفوا لى فضلها فهلا لا تقتلونى فإنه لا يحل إلا قتل ثلاث رجل زنى بعد إحسان أو كفر بعد إيمان أو قتل نفسا بغير حق فإنكم إذا

فلتموني وضمتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً فقال
ثوار أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فإن كل ما صنع
الله خير ولكن الله جعل بلية ابتلي بها عباده وأما ما ذكرت من قدمك
وسبقك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كنت كذلك وكنت أهلاً
للولاية ولكن أحدث ما علمت ولا تترك إقامة الحق عليك خوف الفتنة
عاماً قابلاً وأما قولك إنه لا يحل إلا قتل ثلاثة فإننا نجد في دين الله غير الثلاث
التي سميت قتل من سعى في الأرض فساداً وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه
وقتل من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه وقد بغيت ومنعت
وحلت دونه وكأبرت عليه ولم تقدم نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالإمارة
عليناً فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليها فإن الذين قاموا دونك ومنعوك منه
إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك
فلم يجهم عثمان ولزم داره وكان كثير من أهل المدينة أتوا حول داره ليدبوا
عنه فأمرهم بالانصراف فانصرفوا إلا قليلاً منهم الحسن بن علي وابن عباس
وابن الزبير ومحمد بن طلحة وكان عثمان رضى الله عنه يكره جداً أن يحدث
قتال بالمدينة في زمنه فكان يتباعد عنه بقدر ما أمكنه حتى كان ينهى أهل
بيته عن تجريد السلاح وكان يطاول الثوار ويكثر لهم من الخطب ويرسل
إلهم على ابن أبي طالب المرة بعد المرة يعدم بالرضوخ إلى مطالبهم وهم
لا يزدجرون بل كلما سد عليهم باباً من أبواب الفتن فتحوا غيره فنعوا الماء
عن خليفة المسلمين فجاءهم على بالغلس فقال يا أيها الناس إن الذي تفعلون لا يشبه
أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين فلا تقطعوا عنه الماء ولا المادة فإن الروم
وفارس لتأس فتطعم وتسقى فقالوا لا والله ولا دعمة عين فانصرف وجاءت
أم المؤمنين حبيبة بنت أبي سفيان مشتملة على إداوة فضربوا وجهه بغلتها
فقال إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل فأحبيت أن أسأله عنها لئلا تهلك
أموال الأيتام والأرامل فقالوا كاذبة وقطعوا جبل بغلتها بالسيف فنفرت

وَكَادَتْ أُمُّ الْمُؤْمِقِينَ تَسْقُطُ عَنْهَا فَتَلْقَاهَا النَّاسُ وَذَهَبُوا بِهَا إِلَى بَيْتِهَا ثُمَّ اشْرَفَ
عُثْمَانُ عَلَى النَّاسِ بَعْدَ مَنَعِ الْمَاءِ عَنْهُ فَقَالَ أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اشْتَرَيْتُ
بِثْرِ رُومَةَ بِمَالِي لَيْسَتْ مَعْدَبٌ بِهَا لَجَعَلْتُ رِشَاقِي فِيهَا كَرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا نَعَمْ
قَالَ هَلْ تَمْنَعُونِي أَنْ أَشْرَبَ حَتَّى أَفْطِرَ عَلَى مَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ قَالَ أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ هَلْ تَعْلَمُونَ
أَنِّي اشْتَرَيْتُ أَرْضَ كَذَا فَرُودْتَهَا فِي الْمَسْجِدِ قَالُوا نَعَمْ قَالَ فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ
أَحَدًا مَنَعَ فِيهِ الصَّلَاةَ مِنْ قَبْلِي ثُمَّ قَالَ أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عَنَى كَذَا وَكَذَا الْأَشْيَاءَ عَدَدُهَا فِي مَا ثَرَهُ فَأَثَرَتْ مَقَالَهُ فِي كَثِيرٍ
مِنْهُمْ حَتَّى قَالُوا مَهْلًا عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَصَرَخَ بِهِمْ شَيْطَانُ هَذِهِ الْفِتْنَةِ
أَهْلَهُ مَكْرَبَهُ وَبِكُمْ فَازْدَادُوا عَتَاوًا وَخَرَجَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ حَاجَةً وَقَدْ
سَمِعَتْ الْمَقَامَ بِالْمَدِينَةِ مَعَ هَذِهِ الْفِتْنِ وَطَلَبَتْ مِنْ ابْنِ أُخِيهَا مُحَمَّدِ بْنِ بَكْرِ أَنْ
يَقْبِعَهَا فَإِنَّهُ لَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ عَنِ عُثْمَانَ فَقَالَ لَهُ حَنْظَلَةُ الْكَاتِبُ تَسْتَبْعُكَ
أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْبِعُهَا ثُمَّ تَقْبَعُ ذُؤْبَانَ الْعَرَبِ إِلَى مَا لَا يَجِلُّ وَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ
إِنْ صَارَ إِلَى التَّغَابِ غَلَبَكَ عَلَيْكَ بَنُو عَبْدِ مَتَّافٍ وَأَمْرَ عُثْمَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ
عِيَّاسٍ أَنْ يَحْجِجَ بِالنَّاسِ فَقَالَ : قِتَالُ هَؤُلَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْحِجِّ فَعَزَمَ عَلَيْهِ إِلَّا
مَا أَطَاعَ شُجْرَةَ لِلْحِجِّ وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا بِأَنَّ يَعْلَمُ الْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُ وَنَصَهُ عَنِ الطَّبْرِيِّ .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
فَإِنَّ أَحْمَدَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَذْكَرُكُمْ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ
الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ وَهَدَاكُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَكُمْ مِنَ الْكُفْرِ
وَأَرَاكُمْ الْيَنَانَاتِ وَأَوْسَعَ عَلَيْكُمْ مِنَ الرِّزْقِ وَنَهَضَكُمْ عَلَى الْعَدُوِّ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتَهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ (وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَإِذْ كَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ

إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات وأولئك لهم عذاب عظيم) وقال عز وجل وقوله الحق (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا) وقال وقوله الحق (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين * واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) وقال عز وجل (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم) وقال وقوله الحق (فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وقال وقوله الحق (ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تعملون * ولا تكونوا كاتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون * ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون * ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتنزل قدم بعد ثبوتها وندوقوا السوء بما صدقتم عن سبيل الله وللكم عذاب عظيم * ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون * ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال وقوله الحق (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه

إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) وقال وقوله الحق (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) وقال وقوله الحق (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتاه أجراً عظيماً) أما بعد فإن الله عز وجل رضى لكم السمع والطاعة والجماعة وحذركم المعصية والفرقة والاختلاف ونباكم ما قد فعله الذين من قبلكم وتقدم إليكم فيه ليكون له الحجة عليكم إن عصيتموه فاقبلوا نصيحة الله عز وجل واحذروا عذابه فإنكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف إلا أن يكون لها رأس يجمعها ومتى ما فعلوا ذلك لا تقيموا الصلاة جميعاً وسلط عليكم عدوكم ويستحل بعضكم حرم بعض ومتى يفعل ذلك لا يقيم الله سبحانه وتعالى دين وتكفونوا شيئاً وقد قال الله عز وجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينتههم بما كانوا يفعلون) وإني أوصيكم بما أوصاكم الله وأحذركم عذابه فإن شيعياً صلى الله عليه وسلم قال لقومه (يا قوم لا يجرمكم شقائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود) ،

أما بعد فإن أتواماً بمن كان يقول في هذا الحديث أظهروا للناس إنما يدعون إلى كتاب الله عز وجل والحق ولا يريدون الدنيا ولا منازعة فيها فلما عرض عليهم الحق إذا الناس في ذلك شتى منهم أخذ للحق ونازع عنه حتى يعطاه ومنهم تارك للحق ونازل عنه في الأمر يريد أن يينزه بغير الحق طال عليهم عمرى وراث عليهم أم لهم الإمرة فاستعجلوا القدر وقد كتبوا

إليكم أن قد رجعوا بالذي أعطيتمهم ولا أعلم أنى تركت من الذي عاهدتمهم عليه شيئاً ، كانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود فقلت أقيموها على من علمتم أنه تعداها أقيموها على من ظلمكم من قريب ، أو بعيد قالوا كتاب الله ينل فقلت فليته من تلاء غير غال فيه بغير ما أنزل الله في الكتاب وقالوا المحروم يرزق والمال يوفى ليستن فيه السنة الحسنة ولا يعتدى في الخمس ولا في الصدقة ويؤمر ذو القوة والأمانة وترد مظالم الناس إلى أهلها فرضيت بذلك واصطبرت له وجمت نسوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى كلبتهن فقلت ما تأمرني فقلن تؤمر عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس ولا تدع معاوية فإنما أمره أمير قبلك فإنه مصلح لأرضه راض به جنده وردد عمرأ فإن جنده راضون به وأمره فليصلح أرضه فكل ذلك فعلت وإنه اعتدى على بعد ذلك وعدى على الحق كتبت إليكم وأصحابي الذين زعموا في الأمر واستعجلوا القدر ومنعوا منى الصلاة وحالوا بيني وبين المسجد وابتزوا ما قدروا عليه بالمدينة كتبت إليكم كتابي هذا وهم يخبروني بين ثلاث إما يقيدوني بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً غير متروك منه شيء وإما أعزل الأمر فيؤمرون آخر غيري وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيتبرءون من الذي جعل الله سبحانه وتعالى لي عليهم من السمع والطاعة فقلت لهم أما إقادتني من نفسي فقد كان من قبلي خلفاء تخطئهم وتصيب فلم يستقد أحد منهم وقد علمت أنما يريدون نفسي وأما أن أتبرأ من الإمارة فإن يكلبوني أحب إليّ من أن أتبرأ من عمل الله عز وجل وخلافته وأما قولهم يرسلون إلى الأجناد وأهل المدينة يتبرءون من طاعتهم فليست عليهم بوكيل ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة ولكن أتوا طائعين يبتغون مرضاة الله عز وجل وإصلاح ذات البين ومن يمكن منكم إنما يبتغي الدنيا فليس بنائل منها إلا ما كتب الله عز وجل له ومن يمكن إنما يريد وجه الله والدار الآخرة وإصلاح الأمة وابتغاء مرضاة الله

عز وجل والسنة الحسنة التي استن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفتان من بعده رضى الله عنهما فإنما يجزى بذلك الله وايس بيدي جزاؤكم ولو أعطيتكم الدنيا كلها لم يكن في ذلك من لدينكم ولم يغن عنكم شيئاً فاتقوا الله واحتسبوا ما عنده فمن رضى بالنسك منكم فإنى لا أرضاه له ولا يرضى الله سبحانه وتعالى أن تنكثوا عهده وأما الذى يخبرونى فإنما كله النزع والتأثير فلنكثت نفسى ونظرت حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه وكرهت سنة السوء وشقاق الأمة وسفك الدماء فإنى أنشدكم الله والإسلام ألا تأخذوا إلا الحق وتعطوه منى وترك البغى على أهله وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عز وجل فإنى أنشدكم الله سبحانه الذى جعل عليكم العدل والموازرة فى أمر الله فإن الله سبحانه قال وقوله الحق (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً) فإن هذه معذرة إلى ربكم ولعلكم تذكرون . أما بعد فإنى لا أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم وإن عاقبت أقواما فما ابتغى بذلك إلا الخير وإنى أتوب إلى الله عز وجل من كل ما عملته واستغفره لأنه لا يغفر الذنوب إلا هو إن رحمة ربي وسعت كل شيء لأنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون وإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وأنا أسأل الله عز وجل أن يغفر لى ولكم وأن يؤلف قلوب هذه الأمة على الخير ويكره إليها الفسق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون . فقرأه عليهم ابن عباس يوم التروية . أما الثوار فمضوا الناس عن مخالطة عثمان ومكالمته ولما خافوا أن يطول عليهم الأمر فتأتيتهم جنود الأمصار قصدوا الباب فقاتلهم جمع من أولاد الصحابة ولكن أنى يعملول وقد جاءهم ما لا قبل لهم به ؟ وأشار عثمان على من قاتل أنه يكف وهو فى حل من نصرته فأحرق الثوار الباب ودخلوا عليه وهو يقرأ القرآن فلم يشغله ما رأى عن تلاوته ثم قال لمن عنده بالدار إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى

عهداً فأنا صابر عليه ولم يجر قوا الباب إلا وهم يريدون أعظم منه وأمرهم
بالانصراف ثم قال للحسن بن علي إن أباك انى شغل عظيم من أمرك
فأقسمت عليك لما خرجت إليه فلم يسمعوا قوله وقاتلوا دونه ولكن أنى
لم ذلك وهم فى قلة والعدو كثير؟ فقتل بعضهم وجرح بعض ونجا آخرون
ثم تسور بعض الثوار دار بنى حزم المجاورة لدار عثمان وخلوا عليه فقال
قاتل اخلعها وندعك فقال عثمان ويحك وائقه ما كشفت امرأة فى جاهلية
ولا إسلام ولا تغنيت ولا تمنيت ولا وضعت يمينى على عورنى منذ بايعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم واست خالعا قيصا كسانيه الله حتى يكرم
الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة فخرج الرجل ولم يصنع شيئا ثم جاء
آخر فقال له كما قال الأول فرجع فجاءهم عبد الله بن سلام وقال لهم يا قوم
لا تسلوا سيف الله فبكم فو الله إن سلتموه لا تغمدوه ويلكم إن ساطانكم
اليوم يقوم بالدرة فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف ويلكم إن مدينتمكم
محفوفة بالملائكة فإن قتلتموه لتتركنها فشتتموه ثم دخل على عثمان الذين
كتب عليهم الشقاوة فقتلوا هذه النفس الزكية ظلما وعدوانا فى الشهر الحرام
والبلد والحرام ثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وهذا
هو التاريخ المشموم الذى كان فيه فتح الشر والشقاق بين المسلمين وكان عمره
اثنتين وثمانين سنة وهذا أمر خولف فيه الشرع جهاراً فى عاصمة الخلافة
الإسلامية ومهبط الوحى النبوى شقوا عصا طاعة الإمام الذى انتخب
انتخاباً شرعياً وأقر عليه أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين
عهد إليهم بذلك عمر بن الخطاب ولم يكن ثم ما يوجب الخروج عليه إذ
لا يوجبهُ إلا الكفر البواح كما هو نص حديث عبادة بن الصامت المتقدم
ولم يقل بذلك أحد منهم فى حق عثمان ولا حكم به قاض ممتدداً إلى كتاب
أو سنة وكل ما نعموه عليه أمور لا حرج على الإمام فى فعلها منها تولية
أقاربه وليس فى هذا أدنى عيب لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى عليا

وهو ابن عمه وإذا كانت تولية القريب عيباً لنهى عنها عليه السلام ولم يفعلها ومع كل ذلك فالإسلام سوى بين الناس لا قريب عنه ولا بعيد فالأمر موكول لرأى الإمام الذى ألقبت إليه مقاليد الأمة فإن ولى من حاد عن الدين شكونا إليه فإن لم يقبل صبرنا كما أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن شق عصا الجماعة من مصائب الأمم التى تسرع إليها بالخراب وليس فى الشرع مبيح خلع الإمام إلا كفره الصراح (وعما) نقموه على عثمان إخراجهم أباذر إلى الربذة وقد قدمنا لك سبب إخراجهم لأن مذهبه الذى كان يدعو إليه ليس مقبولاً ويمكن أن يحدث منه قيام الفقراء ضد الأغنياء فيحدث ما لا يحمد (ومن) ذلك زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة وهذا إنما فعله لكثرة المسلمين وانتشارهم فى أنحاء المدينة بما لم يكن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن) ذلك إتمام الصلاة فى منى وعرفة وكان الأمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفين من بعده على القصر ولما سأله عبد الرحمن بن عوف عن ذلك أبدى سبباً واضحاً فقال بلغنى أن بعض حاج اليمن والجفافة جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاتى وقد اتخذت بمكة أهلاً ولى بالطائف مال وهو عذر له رضى الله عنه وإن لم يقبله عبد الرحمن (ومن) ذلك سقوط خاتم النبى صلى الله عليه وسلم من يده فى بئر أريس وعدم لقبه (ومن) ذلك تنازله لمروان بن الحكم عن ثمن خمس مخائم أفريقية ولم يمنع الشرع الإمام أن ينفل من شاء من المسلمين ما لم ينفل غيره فقد روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش وكان عليه الصلاة والسلام يسهم أحياناً لبعض من لم يحضر الغزوة كما أسهم لبعض المتخلفين عن بدر ولما قدموا عليه يوم خيبر من مهاجرة الحبشة والدوسيين ، فإذا نظرت رعاك الله لهذه الأمور التى نقموها على عثمان رضى الله عنه لم تر منها شيئاً يشينه ولم يخرج فى شيء منها عن حدود

الشرع ولكن أولئك قوم بطاروا فطلبوا لأنفسهم ما ليس لهم فحق عليهم العذاب قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب) وقد عاقب سبحانه فأبلغ العقوبة . نسأله سبحانه أن يرفع عنا مقتته وفضبه ويوفقنا لما فيه رضاه بمنه وكرمه .

خلافة علي

ظل المسلمون حيارى بعد قتل الخليفة المظلوم لا يجدون لهم ملجأ كأنهم فوضى ولم يكن أمامهم من يصلح للخلافة بعد عثمان إلا علي بن أبي طالب فذهب إليه معظمهم يطلبون منه أن يلي الخلافة فقدر المستقبل حق قدره وعلم أنه إنما يستقبل فتنة سائرة لا مرد لها فقال لهم التمسوا غيري فإنما مستقبلون أمراً له وجوده وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول فناشدوه الله والدين فقال قد أحببتكم واعلموا أني إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم إلا أني من أطوعكم وأسمعكم لمن وليتموه فأبوا إلا إياه ثم رأوا أن هذا الأمر لا يتم إلا بمبايعة الزبير وطلحة فذهب إليهما جماعة وأثوا بهما فبايعاه قيل كرهاً وقيل إن الزبير لم يبايع أصلاً ثم قام الناس فبايعوه وتخلف عن بيعته جمع من أكابر الصحابة في المدينة كسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبدالله بن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبدالله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وغيرهم من أكابر الصحابة في الأمصار (مقدمة ابن خلدون) ولما رأى علي أن بيعته تمت قام فخطب في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (أيها الناس إن الله أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إن الله تعالى يؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حرمات غير مجهولة وفصل حرمة المسلمين على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإنما خلفكم الساعة تحذوكم فحفظوا

تلحقوا فإنما ينتظر بالناس أخراهم . اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده
إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم ، أطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم
الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فعدوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في
الأرض) ثم نزل .

ترجمة على

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي ابن عم
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ابن
عبد مناف ولد رضى الله عنه في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلما بعث عليه السلام كان على دون البلوغ وكان مقبياً معه
في منزله يطعمه ويسقيه لفاقة لحقت بأبيه فاهتدى بهدى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان وغيرها ولما هاجر
عليه السلام من مكة إلى المدينة فداة على بنفسه ونام على فراشه ليظن
المحاصرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل نائماً فلا يتبعونه ثم لحقه
بعد قليل وشهد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم غزواته
كلها إلا غزوة تبوك فإنه خلفه في أهل بيته وقال له أما ترضى أن تكون
منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى وكان له القدم الثابت في
جميع الغزوات فهو أول المبارزين يوم بدر ومن ثبت يوم أحد وحين
وعلى يديه فتحت خيبر وزوجه عليه السلام بنته فاطمة في السنة الثانية من
الهجرة فجاء منها بالحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى وناب
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءة أوائل التوبة في موسم الحج إيدانا
بإراءة الله ورسوله من المشركين . ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وبويع أبو بكر بإيمه على مع أنه كان يرى له حقاً في الخلافة لقرابته من
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يمكنه كان يكره الخلاف ولذلك كان محمد

ابن سيرين التابعى يكذب كل ما نسب لعلى من الأقوال التى فيها حط من مقام الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما كما روى ذلك البخارى فى صحيحه ولما ولى عمر بايعه كذلك وزوجه بنته أم كلثوم وكثيراً ما كان عمر يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها . ولما بويع عثمان بايعه كذلك حتى كان آخر خلافته وقام عليه الثوار وشنعوا عليه بتولية أقربه وكان على كثير ما يمحض له النصيح ويرشده إلى ما فيه النجاح والفلاح فلما حل القضاء المبرم واستشهد عثمان أقبل عليه المسلمون وبايعوه بالخلافة لخمس بقين من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين فقام بها رضى الله عنه ما يقارب خمس سنين لم يصف له فيها يوم وكان أمر الله قدراً مقدوراً كان رضى الله عنه آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما ذا بطن أطلع عظيم اللحية كثير شعر الصدر هو إلى القصر أقرب وكان ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها وكان من أحسن الناس وجهاً ولا يغير شبيه كثير التسم له من الأولاد غير من ذكرناهم العباس وجعفر وعبد الله وعثمان وعبيد الله وأبو بكر ومحمد الأصغر ويحيى وعمر ورقية ومحمد الأوسط ومحمد الأكبر الشهير بابن الحنفية وأم الحسن ورملة الكبرى وأم كلثوم الصغرى وأم هانئ وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلة وأم جعفر وجنانة ونفيسة من أمهات شتى وأعقب من هؤلاء الحسنان ومحمد الأكبر وعباس وعمر .

أعمال على

أول إمارته بعث عمالا على الأمصار غير جميع عمال عثمان فبعث على البصرة عثمان بن حنيف الأنصارى بدل عبد الله بن عامر وعلى الكوفة عمارة ابن شهاب بدل أبى موسى الأشعري وعلى اليمن عبيد الله بن عباس بدل يعلى ابن منبته وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة بدل عبد الله بن سعد وعلى الشام

سهل بن حنيف بدل معاوية ابن أبي سفيان وأمر كلا بالتوجه إلى عمله فأما
عثمان بن حنيف فتوجه إلى البصرة ولم يردده عنها أحد ولم يعارضه ابن عامر
وأما عمارة بن شهاب فقابله وهو قريب من الكوفة طليحة بن خويلد
الأسدي فقال له ارجع فإن القوم لا يريدون بأمرهم بدلا فرجع إلى علي
وأما عبيد الله بن عباس فلما قارب اليمن خرج منها يعلى بن منبة وأخذ كثيراً
من الأموال وذهب إلى مكة فدخل عبيد الله اليمن غير معارض وأما قيس
ابن سعد فلما وصل مصر افترق أهلها عليه ففرقة دخلت في الجماعة وفرقة
اعتزلت بجزيرة وقالوا لا نكون مع علي إلا إن قتل قتلة عثمان وفرقة قالوا
نحن مع علي إلا إن قاد من إخواننا فكاتب قيس إلى علي بذلك وأما سهل
ابن حنيف فلما وصل تبوك قابلته خيل عليها رجال من أهل الشام فردوه
وامتنع معاوية من بيعة علي واحتج على خلافته لأنه ظن فيه الهوادة في
نصرة عثمان على قاتليه ومعاوية يرى لنفسه حقاً عظيماً في القصاص من قتلة
عثمان لأنه وليه والله تعالى يقول (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً
فلا يسرف في القتل) ولم ير في الامتناع عن البيعة خروجاً على الإمام لأنه
رأى أن بيعة علي لم تنعقد حيث لم تكون بإجماع ذوى الحل والعقد كما قدمنا
فأرسل إليه رجلاً بطومار ليس فيه شيء من الكتابة وعنوانه من معاوية
إلى علي بن أبي طالب وأمره إذا قدم المدينة أن يرفعه ليعلم الناس أنه مخالف
فضلع الرجل ما أمر به فلما علم أهل المدينة بذلك أحبوا أن يعلموا رأى علي
في هذه المشكلة أبقات معاوية أم يحذر ذلك فندسوا إليه زياد بن حنظلة وكان
منقطعاً إليه فقال له علي يا زياد تيسر قال لاى شيء قال لغزو الشام فقال
زياد الأناة والرفق أمثل وأنشد :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ريوطاً بمنهم

وقال علي :

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنا حمياً تجتنبك المظالم

نخرج زياد فقالوا له ما ورامك قال السيف وقد عد على خلاف معاوية
بغيا وخروجا عن طاعته لأنه رأى أن بيعته انعقدت بمن بايع فلزمت من
لم يبايع وأرسل إلى أهل الأمصار يستنفرهم لقتال معاوية وكان الزبير ابن
العوام وطلحة بن عبد الله قد خرجا يريدان العمرة فبينما على يتجهز إذ جاءه
خبر لم يكن في حسابه وهو خلاف طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وأنهم
قصدوا البصرة وسبب ذلك أن أم المؤمنين لما قصت حجها بلغها وهي عائدة
قتل عثمان وخلافة علي فقالت قتل عثمان والله مظلوما والله لأطالبن بدمه
فرجعت إلى مكة وخطبت الناس فقالت : (أيها الناس إن الذوغاء من أهل
الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول
ظالماً بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنة وقد استعمل أمثالهم قبله
ومواضع من الحمي حماها لهم فتابعهم ونزل لهم عنها فلما لم يجدوا حجة
ولا عذرا بادروا بالعدوان ففسكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام
والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام والله لأصعب من عثمان خير من طباق
الأرض أمثالهم ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه ذنباً لخلص منه كما يخلص
الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه (غسلوه) كما يماص الثوب
بالماء وتبعها في رأيها عبد الله بن الحضرمي عامل مكة ومن هرب من بني
أمية من المدينة وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة وبعلي بن منية من
السكوفة وتبعها أيضا الزبير وطلحة وكان كثير من الصحابة يرون أن أول
الواجبات على المسلمين في هذا الوقت هو تتبع قتلة عثمان والقصاص منهم
إقامة حد الله ورأوا أنه لا يصلح تأخيرهم مهما نتج منه فكان إقامة هذا الحد
في عنق كل مسلم وهو ملزم بالقيام بما يوصل إليه ولم ير الزبير ولا طلحة
هذا خروجاً على الإمام لأن بيعة علي لم تنعقد حسبنا اجتهدا لأن كثيراً من
الصحابة في المدينة وغيرها لم يبايعوا أما بيعتهما فكانت كرها والسيف على
أعناقهما وهذا على رأيهما لا تجب به طاعة فاستقام رأيهم على قصد البصرة

ودعوا عبد الله بن عمر للخروج معهم فأبى وسار مع أم المؤمنين عائشة
جمع كثير وكان يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ولما قاربوا
البصرة أرسلت عائشة عبد الله بن عامر ليعرف أهلها بقدمها . ففعل ،
أما عثمان بن حنيف أمير البصرة فإنه بعث إلى أم المؤمنين عمران بن حصين
وأبا الأسود الدؤلي ليسألاها عن سبب قدمها فلما وصلها قال إن أميرنا
بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك فهل أنت مخبرتنا فقالت ما مثلى يغطى لبنيه
الخبر إن الغوغاء وأهل القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأحدثوا فيه وآووا المحدثين فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم
الحرام وسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام
فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس وراةنا وما ينبغى لهم من
إصلاح هذه القصة وقرأت (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة
أو معروف أو إصلاح بين الناس) فتركاها وأتيا الزبير وقال ما أؤدمكما قال
الطلب بدم عثمان فقالا ألم تبايما عليا قالوا والسيف على أعناقنا وما نستقبله
اليبعة إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان فرجع عمران وأبو الأسود إلى
ابن حنيف وأخبراه الخبر فصمم على منع البصرة حتى يحضر على ثم أراد
أن يعلم هل أحد في البصرة يملأه طلحة والزبير فندس رجلا إلى الناس فقال
أيها الناس أنا فلان إن هؤلاء القوم إن كانوا جاءوا خانقين فقد جاءوا من
بلد يأمن فيه الطير وإن كانوا جاءوا يطلبون قتلة عثمان فما نحن قتلته فأطيعوني
وردوهم من حيث جاءوا فقام إليه أحد زعماء البصرة وقال إن زعموا أنا
قتلة عثمان إنما جاءوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا فعرف
ابن حنيف أن لطلحة والزبير أنصاراً بالبصرة فخرج بمن معه حتى نزل ميسرة
المربد وأقبلت أم المؤمنين فنزلت ميمنته وخطبت الناس وكانت جمهورية
الصوت فحمدت الله تعالى ثم قالت (إن الناس يتجننون على عثمان ويزرون

على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم فننظر في ذلك
فنجده برياً تقياً وفيما ونجدهم لجررة خذرة كذبة وهم يحاولون غير ما يظهرون
فلما قروا كاثروه واقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام
والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر إلا أن ما ينبغي لا ينبغي لكم غيره أخذ
قتلة عثمان وإقامة كتاب الله ثم قرأت : (ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من
الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم
معرضون) فتبعها جمع من أصحاب عثمان وأقبل عليها جارية بن قدامة
السعدى وقال يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك
على هذا الجمل عرضة للسلاح إنه قد كان لك من الله سترة وحرمة فهتكت
سترك وأبحت حرمتك إنه من رأى قتالك يرى قتلك إن كنت أنتينا طائفة
فارجمي إلى بيتك وإن كنت أنتينا مكرهة فاستعيني بالناس ثم أقبل عليها
حكيم بن جبلة من فرسان البصرة ومعه جمع فقاتل من معها فأمرتهم بالكف
والمدافعة فلم ينته حكيم فأمرت أن يأتي الجيش مقبرة بني مازن في الجهة
الغربي وحجز الليل بين الفريقين فلما كان الصباح خرج حكيم يقدم جيشه
وقاتل إلى قريب المساء فلما مسهم حر السلاح تنادوا إلى الصلح حتى أرسلوا
إلى المدينة من يعلم لهم أكانت بيعة طلحة والزبير طوعاً أم كرهاً فإن ثبت
أنهما أكرها ترك بن حنيف البصرة وإن لم يكونا أكرها يرجع الزبير
وطلحة فأرسلوا لذلك كعب بن سور قاضى البصرة فلما قدم المدينة قال
يا أهل المدينة أنا رسول أهل البصرة إليكم أسألكم أأكره طلحة والزبير
على البيعة أم أتياها طائعين فأجاب أسامة بن زيد بأنهما أكرها فلتى أسامة
من وإلى المدينة سهل بن حنيف أخى عثمان بن حنيف لإهانة وبلغ هذا الخبر
عليها فأرسل عثمان بن حنيف يقول له والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها
على جماعة وفضل فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير
ذلك نظرنا ونظراً فقدم كعب بن سور ووافق قدومه وصول كتاب على

فاخبر كعب باكره الزبير وطلحة على البيعة فطلبوا من بن حنيف أن يخرج من البصرة فامتنع محتجاً بكتاب على فبيته القوم ذات ليلة واستولوا على البصرة وجعلوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر وحبسوا بن حنيف فبلغ ذلك حكيم بن جبلة فأقبل برجاله يريد نصره وكلم عبدالله بن الزبير طالباً أن يخلى سبيل عثمان ويجلس في بيت الإمارة حتى يأتي على فأبى عليه ذلك فتقدم حكيم وقاتلهم حتى قتل كثير من معه وهرب بقيةهم فجاء الزبير وطلحة بمن غزا المدينة منهم فقتلوا إلا حرقوص بن زهير فإن عشيرته منعت وكانت هذه الواقعة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وأقامت بعدها أم المؤمنين ومن معها بالبصرة . أما أمير المؤمنين على ابن أبي طالب فإنه لما بلغه وهو بالمدينة مسير عائشة وقد عيى جيشه إلى الشام دعا وجوه أهل المدينة وقال لهم إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم فانئذ ب معه ناس وثقل آخرون نفرج من المدينة وهو يرجو أن يلحق الزبير وطلحة قبل أن يصلوا البصرة واستخلف على المدينة سهل بن حنيف فلما وصل الربذة أتاه خبر سبقهم فأقام بها وأرسل محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر يستنصران الناس وكتب معهم كتاباً إلى أهل الكوفة هذه صورته : إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث فكونوا لدين الله أنصاراً وأعواناً وانهمضوا إلينا فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة لإخواننا ، وكان من رأى أبي موسى الأشعري أمير الكوفة قعود الناس عن هذه الفتن فلما سأله أهل الكوفة عن الخروج إلى على والقتال معه قال إنما هما أمران القعود في سبيل الآخرة والخروج في سبيل الدنيا فلم يخرج مع بن أبي بكر وابن جعفر أحد فأغلظا لأبي موسى فقال لهما واقه إن بيعة عثمان لني عنق وعنق صاحبكما فإن لم يكن بد من القتال فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا فرجعا إلى أعلى بالخبر فلقياه بذى قار فأرسل بدلهما مالك بن الحارث

الأشتر وعبد الله بن عباس فلما قدما الكوفة كلما أبا موسى واستعانا عليه بنفر من أهلها فقام وخطب الناس وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال و أيها الناس إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه وإن لكم علينا لحقا وأنا مؤد إليكم نصيحة كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله وأن لا تجترئوا على الله وأن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا فهم أعلم بمن تصلح له الإمامة وهذه فتنة صماء الثائم فيها خير من اليقظان واليقظان خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب والراكب خير من الساعي فكونوا جرثومة من جرائم العرب فأغمدوا للسيوف وأنصلوا الأسنة وقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلثم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة ، فرجع بن عباس والأشتر إلى علي بالخبر فأرسل الحسن بن علي وعمار بن ياسر فأقبلا حتى دخلا المسجد فقال الحسن لأبي موسى لم تثبط الناس عنا فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء فقال صدقت بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنما ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الراكب ، وقد حملنا الله إخوانا وقد حرم علينا دماءنا وأموالنا فكثير الجدال بين الناس فمن معرض على الخروج مع أمير المؤمنين ومن مثبت عنه فقام القمعاق بن عمرو وقال يا أهل الكوفة إنى لكم ناصح وعليكم شفيق أحب إليكم أن ترشدوا ولأقولن قولاً هو الحق أما ما قال الأمير (أبو موسى) فهو الحق ولكن لا سبيل إليه إنه لا بد من إمارة تنظم الناس وتنزع الظالم وتعز المظلوم وهذا أمير المؤمنين ولي بما ولي وقد أنصف في الدعاء وإنما يدعو إلى الإصلاح فأنفروا وكوفوا في هذا الأمر بمرأى ومسمع وقال سيحان بن صوحان من زعماء الكوفة أيها الناس إنه لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ويجمع

الناس وهذا وليكم يدعوكم لتتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة الفقيه في الدين فمن نهض إليه فانا سائرون معه وقال الحسن بن علي أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينضر إليه والله لأن يذمعه أو لو النهى أمثل في العاجل والآجل وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتيم وإن أمير المؤمنين يقول قد خرجت مخرجي هذا ظالما أو مظلوما وإني أذكر الله رجلا رعى حق الله إلا نفر فمن وجدني مظلوما أعاني ومن وجدني ظالما أخذ مني والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني وأول من غدر فهل استأثرت بمال أو بدلت حكما فانفروا فمروا المعروف وانهو عن المنكر فأثر فيهم هذا القول ورضوا بالخروج فنفر معه قريب من تسعة آلاف ثلثهم في نهر الفرات والباقون ركبانا معه فلما التقوا بأمر المؤمنين رحب بهم (وقال لهم يا أهل السكوفة أنتم قاتلتهم ملوك العجم وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريتهم فننعم حوزتكم وأعنتم الناس على عدوهم وقد دعوتكم لتشهدوا معنا لإخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك الذي نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأوا بظلم ولم ندع أمرا فيه لإصلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله) ثم دب القمقاع بن عمرو ليكون بينه وبين طلحة والزبير وقال له اذهب فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة ثم قال له كيف تصنع فيما جاءك منهما وليس فيه وصاة قال نلقاهم بالذي أمرت به إن جاء منهم ما ليس عندنا فيه منك رأى اجتهدنا رأينا وكلناهم كما نسمع ونرى أنه ينبغي قال أنت لها فقدم القمقاع البصرة وبدأ بأمر المؤمنين فقال لها أي أمة ما أقدمك هذه البلدة قالت أي بنى : الإصلاح بين الناس قال فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما فبعثت إليهما فحضرا فقال القمقاع إنى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح بين الناس فأتقولان أتينا؟ متابعان أم مخالفان؟ قال بل متابعان قال فأخبراني ما وجه (١٢ — إتمام الوفاء)

هذا الإصلاح فوالله لئن عرفناه لصاحن واثن أنكراه لا يصلح قالا قتلة عثمان فإن هذا الأمر ان ترك كان تركا للقرآن قال قد قتلتم قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتما قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم يوم قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف فاهزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم حر قوص بن زهير فمنعه منكم ستة آلاف فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون وإن قاتلتموهم والذين اهزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم وقويتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكروهون وإن أتم منكم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصره طوؤاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير . قالت أم المؤمنين فإذا تقول أنت ؟ قال أقول : إن هذا الأمر دواؤه التسكين فإن سكن اختلجوا فإن أتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بئار وإن أتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كان علامة شر وآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخبر كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم وإيم الله إنى لأقول هذا القول وأدعوكم إليه وإنى لخائف أن لا يتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل فإن هذا الأمر الذى حدث ليس كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل قالوا قد أصبت وأحسنت فإن رجعت على وهو على مثل رأيك صلح الأمر فرجع إلى على وأخبره الخبر فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح وأقبلت وفود أهل البصرة على إخوانهم من أهل الكوفة لينظروا ما رأى إخوانهم فوجدوا الجميع منفقين على الصلح ولا يخطر لهم قتال إخوانهم ببال فرجموا إلى البصرة وأخبروا من بها بهذا الخبر السار وقام على خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وذكر شقاوة الجاهلية وسعادة الإسلام وإنعام الله على الأمة بالجماعة على الخليفة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذى يليه ثم الذى يليه حدث هذا الحدث الذى جره على الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ،

حسدوا من أفاها الله عليه وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أديبارها والله
بالغ أمره ، ألا وإن راحل غدا فارتحلوا ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان
بشيء من أمور الناس وليعن السفهاء على أنفسهم فلما سمع السبئية (أصحاب
ابن سبأ) مقالة على سقط في أيديهم ورأوا أن ضرر هذا الصلح إنما يعود
عليهم لأنه إن تم كان على قتلهم وتشاوروا فيما يفعلون لمنع هذا الصلح
فقال لهم رئيسهم الضال والدخيل في الإسلام يا قوم إن عزمكم في خلطة
الناس فإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فن أنتم معه
لا يحد بدأ من أن يمتنع ويشغل الله عليا والزبير وطلحة ومن رأى رأيهم
عما تكرهون فأجمعوا على رأيهم ولا يشهر الناس بذلك فلما أصبحوا سار
على وسار إليه طلحة والزبير فالتقى الجيشان خارج البصرة فسأل عليا بعض
أصحابه عما سيفعله فقال الإصلاح وإطفاء النائرة لعل الله يجمع شمل هذه
الامة ويضع حربهم قال فإن لم يجيبوا قال تركناهم ما تركونا قال فإن لم
يتركونا قال دفعنا عن أنفسنا قال فهل لهم من هذا مثل الذي عليهم قال نعم ،
وقام إليه آخر فقال أترى لهؤلاء القوم من حجة في هذا الدم إن كانوا
أرادوا الله بذلك قال نعم قال أفترى لك حجة بتأخير ذلك ؟ قال نعم قال
فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غدا ؟ قال إني لأرجو ألا يقتل منا ومنهم أحد
نقى قلبه لله إلا أدخله الجنة ثم قال : (أيها الناس املكوا عن هؤلاء القوم
أيديكم وأسفتكم أن تسبقونا فإن المخصوم غداً من خهم اليوم) ثم أرسل
إلى طلحة والزبير إن كنتم على ما فارقتم عليه القمعا فذكفوا حتى تنزل
وننظر في هذا الأمر فأجابا (ثم) خرج الزبير على فرسه بين الجيشين فقبل
لعل هذا الزبير فقال أما إنه أحرى الرجاء إن ذكر بالله أن يذكر وخرج
طلحة أيضاً ففرج إليهما على حتى اختلعت أعناق دوابهما فقال لعمري لقد
أعدت ما سلاحاً ورجالا إن كنتما أعدت ما عند الله عذراً فاتقيا الله ولا تكونا
كالتى نقضت غزوها من بعد قوة أنكنا ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان

دمي وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكما دمي؟ فقال طلحة : ألبت على
عثمان ، فلعن عليّ قتلة عثمان ثم قال أما يا يعنى ؟ قال بايعتك والسيف على
عنقك ثم ذكر الزبير بأشياء كثيرة يلين بها قلبه وقال أتذكر يوم مررت مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غانم فنظر إلى فضحك وضحكت إليه
فقلت له لا يدع ابن أبي طالب زهوه فقال لك رسول الله صلى الله عليه
وسلم ليس بمزه لتقاتلته وأنت ظالم له فرجع الزبير وهو حالف أنه لا يقاتل
عليها وخصوصاً حينما علم أن عمار بن ياسر مع عليّ وقد قال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم تقتلك الفئة الباغية فكأنه قد شعر بأنه أخطأ في اجتهاده
لأنه يعمل لله ومتى كان العمل لله كان الرجوع إلى الحق أقرب والهداية إلى
الصواب أسهل ، فرجع كل منهم إلى قومه واجتمع لا يشكون في الصلح
وباتوا بأهنا ليلة للعاقبة التي أشرفوا عليها وهنا رأى السبئية قاتلهم الله أن
الوقت قد حان لتنفيذ ما ربههم فخرجوا في الغلس من غير أن يشعر بهم أحد
وقصد مضرم مضرم البصرة وريبعهم ربيعة البصرة وبمنهم يمن البصرة
ووضعوا فيهم السلاح فثار كل قوم في وجوه أصحابهم وسأل طلحة والزبير
عن الخبر فقبل لهما طرقتنا أهل الكوفة ليلا فقال قد علمنا أن عليا غير منته
حتى يسفك الدماء وإنه لن يطاوعنا وسأل عليّ عن الخبر وكان السبئية
قد وضعوا عنده رجلا يخبره إذا سأل فقال له ما شعرنا إلا وقوم منهم
يبتونا فرددناهم فوجدنا القوم على رحل فركبوا وثار الناس فقال عليّ لقد
علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء وأنهما لن يطاوعانا
ثم نادى في الناس أن كفوا وكان من رأى الجميع في تلك الفتنة أن لا يبدؤوا
بقتال يطلبون بذلك الحجة وألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح
ولا يستحلوا سلباً ولا يرزوا بالبصرة سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً فجاء كعب
ابن سور قاضى البصرة إلى أم المؤمنين وقال لها أدركي الناس قد أبى القوم
إلا القتال لعل الله أن يصلح بك فركبت بعد أن ألبسوا هم دجها الأذراع

ثم سارت ووقفت بحيث تسمع ضوضاء القتال أما الزبير فإنه ترك القوم يقتلون ورجع فنبهه رجل يعرف بابن جرموز وقتله غدرأ وهو يصلي بوادي السباع ولم يقاتل جيش البصرة إلا قليلا ثم هزم فمروا في هزيمتهم على أم المؤمنين راكبة هو دجها فأطافوا بجملها وقالت لسكرتير بن سور تقدم إلى هؤلاء القوم بالمصحف وادعهم إلى كتاب الله فرماه بعض السبئية بسهم قتله ورموا هودج أم المؤمنين بالنبل فجعلت تنادى البقية البقية يا بني .
الله اذكروا الله والحساب ولا يابون إلا لإقداما فخرضت جيش البصرة على القتال حينما رأت أهل الكوفة يريدون هو دجها وهنا كانت حميتهم العظمى لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن هنا محيص عن القتال لأنه كاسيل إذا أتى لا يردو أمسك بخطام الجمل كثير من أرباب الشجاعة من قريش وغيرهم فقتل دونه نحو السبعين من قريش وعدد عظيم من غيرهم ومن قتل دونه محمد بن طلحة وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد واشتد أهل الكوفة على الجمل لأنهم رأوا أن البصريين لا ينزومون مادام واقفا فرماه كثير منهم وكل من رماه قتل فلما رأى على شدة الأمر وكثرة القتلى من المسلمين قال اعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا عنه والذي دعاه إلى هذا الأمر الحذر على أم المؤمنين أن تصاب من كثرة النبل الذي سدد لهو دجها فقطعوا ساق الجمل ثم اجتمع القعقاع بن عمرو وزفر بن الحارث على قطع بطان الجمل وحمل الهودج وإنه مثل القنفذ من كثرة السهام وعند ذلك انهزم أهل البصرة فنأدى على ألا لا تبغوا مدبرأ ولا تجمروا على جريح ولا تدخلوا دورأ وأمر بحمل الهودج من بين القتلى وأمر محمد بن أبي بكر أن يضرب عليه قبة وقال أنظر هل وصل إليها شيء من جراحة فوجدها بحمد الله سلبمة لم تصب بشيء ثم جاءها على فقال كيف أنت يا أمه قالت بخير يغفر الله لك قال ولك وظهرت آثار الكدر على أمير المؤمنين من هذا الحادث الجلل الذي لم يكن فيه مأرب وكذلك على السيدة أم المؤمنين فإنها كانت تود

الصلح ولم يجر ماجرى إلا رغما عن الجميع وكان على يتمثل بعد انتهاء الموقعة
بقول الشاعر :

إليك أشكو عجرى وجرى ومعشر نفسى على بصرى
قتلت منهم مضرى بمضرى شفيت نفسى وقتلت معشرى

ثم أمر أن تنزل أم المؤمنين فى دار خلف بن عبد الله الخزاعى على
صفية بنت الحارث بن أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وأذن
فى دفن القتلى ثم أطاف عليهم فلما رأى كعب بن سور قال زعمتم أنه خرج
معهم السفهاء وهذا قد ترون ولما أتى على طلحة قال لهفى عليك أبامحمد
إن الله وإننا إليه راجعون والله لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى وأنت
واقه كما قال الشاعر :

فى كان يدنيه الغنى من صديقه إذ ما هو استغنى ويبعده الفقر
وصلى على القتلى من أهل البصرة وأهل الكوفة وبعث ما كان فى العسكر
من الأسلاب إلى مسجد البصرة وقال من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً
فى الخزائن عليه سمة السلطان ثم دخل على البصرة فبايعه أهلها وولى عليها
عبد الله بن عباس وجعل على الخراج زياد بن أبى سفيان ثم بلغه أن رجلاً
قال حزيت عنا أمانا عقوقنا وقال الآخر يا أمى توبى فأمر بكل منهما أن
يجلد مائة جلدة ثم جهز على أم المؤمنين وسيرها إلى المدينة واختار معها
أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات وسير معها أخاها محمد بن أبى بكر
فلما كان اليوم الذى ارتحلت فيه اجتمع الناس إليها فقالت يا بنى لا يعتب
بعضنا على بعض وإنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين
المرأة وبين أحماها وإنه على معتقى لمن الأخيار فقال على صدقت والله ما بينى
وبينها إلا ذلك وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة وخرجت يوم السبت
غرة رجب من السنة السادسة والثلاثين فتوجهت إلى مكة فجئت ثم رجعت
إلى المدينة والحمد لله .

ورجع على إلى الكوفة التي جعلها مقر خلافته فأرسل جرير بن عبدالله
البحلي إلى معاوية بالشام يدعو إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ويعلمه
باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته فامتنع معاوية حتى تقتل قتلة عثمان
حيث كانوا ثم يختار المسلمون لأنفسهم إماما لأنه رأى أن بيعة على لم تنعقد
لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد في الآفاق ولا تتم البيعة إلا باتفاقهم
ولا تلزم بعقد من تولاهما من غيرهم أو من القليل منهم فجعل رضى الله عنه
القصاص من قتلة عثمان أول واجب على المسلمين والذي يطالب به وليه ثم
اختيار الإمام أمر ثان ولم يكن معاوية يهتم عليا رضى الله عنهما بالمائة
على عثمان حاشا لله بل كان يظن فيه الهوادة عن نصرة عثمان من قاتليه ولقد
كان إذا وجه ملامته إنما كان يوجهها عليه في سكوته فقط كما ذكر ذلك
العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه أما على رضى الله عنه فكان يرى أن
بيعته قد تمت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار
النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وأرجأ الأمر في القصاص من قتلة
عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ مما يجب أن يفعل
وبذلك عد من لم يبايعه خارجا عليه يحمل له قتاله نخرج فعسكر بالأنخيلة وقدم
عليه ابن عباس من البصرة وامتنعوا عليها زيادا ثم قدم طلابه وعبيد
جيوشه قاصدا محاربة أهل الشام لإجبارهم على الدخول فيما دخل فيه الناس
ولما علم بذلك معاوية سار إليه في جيوش الشام فالتقى الجيشان في سهل
صفيين على نهر الفرات شرقي حلب فمكثا يومين ابتدأت بهما المراسلة
فأرسل على بشير بن عمر والأنصارى وسعيد بن قيس الهذلي وشبث بن ربعي
التميمي فقال لهم اتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله والطاعة والجماعة فتوجهوا
إليه فتكلم بشير بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا معاوية إن الدنيا
عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك
عليه وإنى أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة وألا تسفك دماءها بينها

فقال معاوية هلا أوصيت بذلك صاحبك فقال بشير ليس مثلك إن صاحبي أحق البرية بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقراة بالرسول صلى الله عليه وسلم قال فماذا يقول قال يأمر بتقوى الله وأن تعجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك قال معاوية وبتك دم ابن عفان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شيث بن ربيع فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا معاوية قد فهمت ما رددت على بشير إنه والله لا يخفى علينا ما نطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله دونه وربما أوتى الممتنى أمنيته وفوق أمنيته والله مالك في واحدة منهما خير والله إن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً وإن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلى النار فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله؛ فأثرت مقاتله هذه في معاوية أشد التأثير لأنه حمله فيها ما لم يردده فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإن أول ما عرف به سفهك وخفة حبلك أن قطعت على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقة ثم اعترضت بهمداً فيما لا علم لك به فقد كذبت ولوئمت أيها الأعرابي الجاني في كل ما ذكرت ووصفت انصرفوا فليس بيني وبينكم إلا السيف. ومن هنا يفهم أن السفراء بين الأمراء عليهم المدار في الإصلاح والإفساد واقد صدق معاوية فإن شبث بن ربيع كان من أول الخارجين على أمير المؤمنين على فرجع الوفد إلى على وأخبره وكانت الحرب إذاً لا يحصى عنها إذ معاوية يطلب قتلة ابن عمه عثمان ابن عفان وهو أولى الناس بالمطالبة بذلك لأنه وليه و حدود الله لا تؤخر لأى سبب وعلى يريد رده إلى الطاعة والجماعة ثم ينظر في القصاص

من قلة عثمان ومع ذلك كانوا يحذرون أن يلقي جمع أهل الشام جمع أهل
قمرق حذراً من الملاك والاستئصال فيضيع الإسلام ويطمع فيه أعداؤه
فصار على يأمر الرجل ذا النخرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه فيخرج له
معاوية مثله وداموا على ذلك إلى أن أهل عزم السنة السابعة والثلاثين فعقد
على ومعاوية هدنة مدتها شهر طمعا في الصلح واختلفت بينهم الرسل فأرسل
على عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد بن حفصة
فتكلم عدى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإننا أتيناك ندعوك إلى أمر
يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ونحقق به الدماء ونصلح ذات البين إن ابن عمك
أحسن الأمة سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس ولم يبق
أحد غيرك وغير من معك فاحذريا معاوية لا يصيبك وأصحابك مثل يوم
الجل فقال معاوية كأنك إنما جئت مهدداً ولم تأت مصلحاً هيأت يا عدى
لما والله لابن حرب لا يقعق لي بالشدان وإنك والله من المجلبين على عثمان
وإنك من قتلته وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به فقال من مع عدى
أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع ما لا ينفع وأجبتنا
فيما نعم نفعه فطلب معاوية أن يسلم على من معه من قلة عثمان ومن ألب عليه
فقال شبث بن ربعي أيسرك أن تقتل عمار بن ياسر فقال وما يمنعني من ذلك
لو تمكنت من ابن سمية لقتلته بمولى عثمان فقال شبث والله الذي لا إله غيره
لا تصل إليه حتى تندر الهام عن الكواهل وتضيق الأرض والقضاء عليك
فقال معاوية لو كان كذلك لكانت عليك أضيق ثم تفرق القوم بلا فتيحة
وكذلك رجع من بعثهم معاوية إلى على لأنه كان يريد قبل كل شيء مبايعته ثم
ينظر في أمر قلة عثمان ولما انقضى شهر الهدنة أمر على منادياً ينادى يا أهل
الشام يقول لكم أمير المؤمنين قد استدمتكم اتراجعوا الحق وتنبؤوا إليه فلم
تنتهوا عن طغيانكم ولم تجيبوا إلى الحق وإنى قد نبذت إليكم على سواء إن الله
لا يحب الخائنين ثم أوصى أصحابه فقال (لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فأتهم

بحمد الله على حجة وترككم لإيام حجة أخرى فاذا هم متموم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تملوا بقتيل وإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترها ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس) ثم عي جيشه وأمر أمراءه وكذلك فعل معاوية وابتدأ القتال يوم الثلاثاء أول يوم من صفر فخرجت فرقة من أهل العراق ومثلها من أهل الشام واقتلتا طول النهار وهكذا في الأيام التالية له فلما كان مساء الثلاثاء الثامن من صفر خطب على أصحابه فحمد الله وأثنى عليه فقال (الحمد لله الذي لا يرم ما نقضه وما أبرم لم ينقضه الناقضون ولو شاء الله ما اختلف اثنان من خلقه ولا اختلفت الأمة في شيء ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار فنحن بمرآى من ربنا ومسمع فلو شاء عجل الفتنة وكان منه التغيير حتى يكذب الظالم ويعلم الحق أين مصيره ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال والآخرة دار القرار ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، ألا وإنكم لا تقوا القوم غداً فأطيلوا الليلة القيام وأكثروا تلاوة القرآن واسألوا الله النصر والصبر والقوم بالجد والحزم وكونوا صادقين . وأجمع على أمره على ملاقات جيش معاوية بجيشه كله فلما أصبحوا التقى الجيشان فتقاتلوا قتالاً شديداً وانصرفوا عند المساء وكل غير غالب أما في يوم الخميس حاصر صفر فان رحا الحرب دارت بشدة على الطائفتين وظهرت فصاحة النصحاء وبلاغة البلغاء وكل يرى نفسه في طاعة الله فكان أحدهم إذا رأى فرقة ملت القتال رمى عليها بصواعق من لسانه فتعود إليها حميتها وكان للأشتر بن الحارث اليد الطولى فإنه صار يتقدم بمن معه حتى قارب معاوية وكان معاوية يبعدها يقول كدت أنهزم فذكرت قول ابن الأظنابة :

أبت لي عفتي وأبا بلأني وإقداى على البطل المشيح
ولعطاني على المكروه مالى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وقولى كذا جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريجى

فغنى ذلك من الفرار وأحاطت به جيوش الشام وحميت قلوبهم ولم
يهدم عن القتال لإقبال الليل فاستمروا على ما هم عليه ليلة تعد من ليالى
الإسلام المظلمة وأصبحوا وكان الملل والسامة فى جيش الشام أبين ورأى
ذلك معاوية وعمرو بن العاص فقال عمرو ندعهم لكتاب الله أن يكون
حكما بيننا وبينهم فأمر معاوية برفع المصاحف على الرماح ومنادياً يقول
هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لشغور الشام بعد أهل الشام من
لشغور العراق بعد أهل العراق فلما رأها أصحاب على وقد أشرفوا على
الاتصار اختلفوا ففرقة تقول نجيب إلى كتاب الله عز وجل ورئيسهم
الأشعث بن قيس السكندى وفرقة تأبى إلا القتال حتى يتم الأمر لأنهم ظنوا
رفع المصاحف خديعة ورئيسهم الأشعث وكان هذا رأى أمير المؤمنين ولكنه
اتبع رأى مخالفه لكثرتهم فأرسل الأشعث إلى معاوية يسأله عما يريد فتوجه
إليه وقال لأمى شىء رفعت المصاحف فقال لراجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله
فى كتابه تبعثون رجلا ترضونه ونبعث رجلا نرضاه ونأخذ عليهما العهد
أن يعملوا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فماد إلى على
بالخبر فقال الناس رضينا وقبلنا واختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار
أهل العراق أبا موسى الأشعري فحصر عمرو ليكتب الكتاب بين الفريقين
بذلك فكتبوا .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين على فقال
عمرو ليس لنا بأمر فجاه على وقال (هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب
ومعاوية بن أبى سفيان قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية

على أهل الشام ومن معهم أنا نزل على حكم الله وكتابه وألا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله بيننا من فاتحنه إلى غاتمته نحى ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العمود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلبيهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة لا يردانها فى حرب ولا فرقة حتى يقضيا وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه وأن مكان قضيتهما مكان عدل من أهل الكوفة وأهل الشام) وشهد على الكتاب جماعة من جيش على ومثلهم من جيش معاوية وتاريخ الكتاب يوم الأربعاء ثلاثة عشرة بقيت من شهر صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يجتمع الحكمان بدومة الجندل أو بأذرح فى رمضان ثم انفض الناس من هذا المحل المشنوم الذى اجتمع فيه فئتان عظيمتان من المؤمنين يقاتل بعضهم بعضا ولكن الذى يخفف البلية أن الفريقين كانا يريدان الله بعملهما لأن الجميع كانوا يريدون إنفاذ حكمه حسبما اجتهدوا ورأوا ورجع أمير المؤمنين من صفين إلى الكوفة وجيشه فى شقاق واختلاف فريق راض بالتحكيم ظان أنه حاسم للخلاف وجامع لكلية المسلمين وفريق كاره له قائل كيف تحكم فى دين الله الرجال وهؤلاء اعترضوا إخوانهم يقولون ادهنتم فى دين الله وأولئك يقولون فارقتم إمامنا فلما وصل على الكوفة اعزله جماعة من رأوا التحكيم ضلالا وأتوا حروراذ فنزلوا بها فى إثني عشر ألفاً وأمروا على القتال شبت بن ربيعى وعلى الصلاة عبد الله بن السكو اليشكرى والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فبعث إليهم على عبد الله بن عباس وقال له لا تراجمهم حتى آتيتك فلم يصبر عن مكالمتهم وقال ما نقمتم

من أمر الحكيمين وقد أمر الله بهما بين الزوجين (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا هذا لا يكون بالرأى والقياس فان ذلك قد جعله الله حكما للعباد وهذا أمضاه كما أمضى حكم الزاني والسارق فليس للعباد أن ينظروا فيه فقال ابن عباس قال الله تعالى (يحكم به ذو عدل منكم) فقالوا والآخرة كذلك ليس أمر الزوجين والصيد كدماء المسلمين وقد حوا في عدالة عمرو بن العاص وقالوا قد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يرجعوا وجعلتم بينهم المراءعة في الكتف وقد قطعها الله بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلت براءة فخرج لإيهم على ونزل في فسطاط يزيد ابن قيس منهم بعد أن علم أنهم يرجعون إليه في رأيهم فصلى عنده ركعتين وولاه أصبهان والرى ثم خرج لإيهم وهم في مجلس ابن عباس فقال من زعيمكم ؟ قالوا ابن الكوا قال فما هذا الخروج ؟ قالوا الحكومتكم يوم صفين قال قد اشترطت على الحكيمين أن يحيا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن فليس لنا أن نخالف وإن أبا فنحن من حكمهما براء قالوا نخبرنا أنراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء فقال إنا لسنا حكمنا الرجال وإنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال قالوا فلم جعلتم الأجل بينكم قال ليعلم الجاهل ويثبت العالم ولعل الله يصلح في هذه الهدفة هذه الأمة فرجعوا إلى رأيه فقال ادخلوا مصركم رحمكم الله فدخلوا عن آخرهم .

اجتماع الحكيمين

ولما انقضى الأجل وحل رمضان في السنة السابعة والثلاثين أرسل على أبا موسى الأشعري في أربعائة رجل عليهم شريح بن هانيء الحارثي ومعهم عبد الله بن عباس بصلى بهم ويلى أمورهم وأرسل معاوية عمرو بن العاص

في أربعائة من أهل الشام عليهم شرحبيل بن الصمة فاجتمع الفريقان في دومة الجندل وكان معهم عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص ولما اجتمع الحكمان قام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه وذكر الحدث الذي حل بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال يا عمرو هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين جزاه عمرو خيراً وقال إن للكلام أولاً وآخرأ ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله فاجعل ما كان من كلام نتصدر عليه في كتاب يصير إليه أمرنا قال فاكتب فدعا عمرو بصحيفة وكاتب وقال له اكتب فإنك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى تستأمر فيه الآخر فإذا أمرك فاكتب وإذا نهاك فاتته حتى رأينا اكتب .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما تقاضى عليه أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ثم قال عمرو نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه وقد أدى الحق الذي عليه قال أبو موسى اكتب ثم قال في حمر مثل ذلك قال عمرو اكتب (وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضا منهم وأنه كان مؤمناً) قال أبو موسى ليس هذا مما قعدنا له قال عمرو لا بد والله من أن يكون مؤمناً أو كافراً قال أبو موسى اكتب قال عمرو فظالما قتل عثمان أو مظلوما قال أبو موسى بل قتل مظلوماً قال عمرو أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه قال أبو موسى نعم قال عمرو فهل تعلم لعثمان ولها أولى من معاوية قال أبو موسى لا قال عمرو أفليس لمعاوية أن

يطلب قاتله حيثما كان أو يهجز قال أبو موسى بلى قال عمرو للكاتب اكتب وأمره أبو موسى فكتب ثم قال أبو موسى هذا أمر قد حدث في الإسلام وإنما اجتمعنا لله فهل إلى أمر يصلح الله به أمة محمد قال عمرو ما هو قال أبو موسى قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً فهل نخلمهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر قال عمرو أيفعل ذلك عبد الله بن عمر قال نعم إذا حمله الناس على ذلك فعل فقال له عمرو هل لك في سعد قال لا فعد له جماعة وكلهم يأباه أبو موسى ولا يرضى إلا عبد الله بن عمر فأخذ عمرو الصحيفة بعد أن ختما عليها جميعاً ولم يتفق الحكمان على من يوليا أمر هذه الأمة لأن أبا موسى رضى بخلع على معاوية ولم يختر للخلافة إلا عبد الله بن عمر وعمرو بن العاص لم يرضه فافترقا على ذلك ولم يحصل بينهما غير ما كتب في الصحيفة كما حكاه المسعودى في رواية له فاما أبو موسى فإنه استحيا أن يقابل علياً بعد أن أقر على خلمه من الخلافة فلحق بمكة وأما عمرو بن العاص فرأى أن الأمر صار شورى بين المسلمين حسبما سطر في الصحيفة ورضى به كلاهما فتوجه هو وأهل الشام إلى معاوية فبايعوه بالخلافة لأنهم رآه أهلاً لأن يقوم بأعبائها أما أمير المؤمنين على فإنه رأى أن الحكامين لم يفيا بما تعهدا به من الحكم بالقرآن بل اتبع كل منهما هواه فصمم على حرب معاوية مرة أخرى وخطب أصحابه خطبة قال فيها (الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجلل وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمرى ونخلتكم رأى لو كان اقصير أمر ولكن أبيت إلا ما أردتم فكنت أنا وأتم كما قال أخو هوازن .

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشيد إلا ضحى الغد

إلا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهرهما وأحيا ما أمات القرآن واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله فخكا بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للسير إلى الشام وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين) ولكن حال بينه وبين ذلك أن خرج عليه جماعة زعموا أن الحكميم نقص في الدين وهم الذين كانوا اعتزلوه أولا فأرسل إليهم عبد الله بن عباس فلما صار إليهم رحبوا به وأكرموه فرأى منهم جباهاً قرحة لطول السجود وأيديا كثيفات الإبل عليهم قص مرحضة وهم مشمرون فقالوا ما جاء بك يا ابن عباس فقال جنتكم من عند صهر رسول الله وابن عمه وأعلمنا بربه وسنة نبيه قالوا إنا أتينا عظيمين حكمنا الرجال في دين الله فإن تاب كما تبنا ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا فجادلوه وجادلهم وما احتجوا به أن عليا محامد نفسه من إمارة المسلمين وقت كتابة الصحيفة قال ابن عباس ليس ذلك بمزيلها عنه وقد محار رسول الله اسمه من النبوة وقد أخذ على الحكمين ألا يجورا وأن يجورا فعلى أولى من معاوية وغيره قالوا إن معاوية يدعى مثل دعوى على قال فأيهما رأيتموه أولى فولوه قالوا صدقت يا ابن عباس قال ابن عباس متى جار الحكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقرولهما فرجع معه ألفان منهم وبقى الباقيون فصلى بهم صلواتهم ابن الكواو قال متى كانت حرب فرئيسكم شيبك بن ربهى الرباحى وبقوا على ذلك يومين ثم أجمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسى ومضوا إلى النهروان فأصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني فقالوا احفظوا ذمة نبيكم ولقيهم عبد الله بن خباب بن الارت وفي عنقه مصحف ومعه امرأته وهى حامل فقالوا إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك قال ما أحيا القرآن فأحيوه وما أماته فأميتوه فوثب رجل منهم على رطبة فوضعها فى فيه فصاحوا به فلنظما تورعاً وهرض لرجل منهم خنزير

فضربه الرجل فقتله فقالوا هذا فساد في الارض فقال عبد الله بن خباب ما على منكم بأس إنى لمسلم قالوا حدثنا عن أبيك قال سمعت أبي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تسكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يسمى مؤمناً ويصبح كافراً فكن عبد الله المقتول ولا تكن القتائل قالوا فما تقول في أبي بكر وعمر فائني خيراً فقالوا ماتقول في علي قبل التحكيم وفي عثمان ست سنين فائني خيراً فقالوا فما تقول في الحكومة والتحكيم قال أقول إن علياً أعلم بكتاب الله منكم وأشد توكفاً على دينه وأفد بصيرة قالوا إنك لست تتبع الهدى إنك تتبع الرجال على أسمائها ثم قريوه إلى شاطئ النهر فذبجوه وساموا رجلاً نصرانياً بنخلة له فقال هي لكم فقالوا ما كنا نأخذها إلا بئمن فقال ما أعجب هذا تقتلون مثل عبد الله ابن خباب ولا تقبلون منى جنى نخلة فلما بلغ أمير المؤمنين عنهم هذا الفساد صمم على البدء بهم فسار إليهم وقدم لهم قيس بن سعد فقال لهم عباد الله اخرجوا إلينا طلبتكم (قتلة عبد الله بن خباب) ادخلوا في هذا الأمر الذى خرجتم منه وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم فإنكم ركبتم عظيمًا من الأمر تشهدون علينا بالشرك وأسفكون دماء المسلمين وقال لهم أبو أيوب الأنصارى عباد الله إنا وإياكم على الحال الأولى التى كنا عليها ليست بيننا وبينكم فرقة فعلام تقاتلوننا فابى الخوارج إلا ما عزموا عليه وامتنعوا عن تسليم من قتل عبد الله بن خباب فعبي لهم أمير المؤمنين جيشه ونصب أبو أيوب راية الأمان وفاداهم من جاء تحت هذه الراية فهو آمن ومن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم فى سفك دمائكم فانصرف فروة بن نوفل بخمسمائة حتى نزل البندنجين والدسكرة وانصرف جماعة إلى الكوفة وخرج إلى على نحو مائة مسلمين

فبقى مع الخوارج ألفان وثمانمائة لم يلبثوا إلا ضحوة نهار حتى قتلوا ولم ينج منهم إلا ثمانية أشخاص وقتل من أصحاب أمير المؤمنين تسعة ثم أخذ ما فى عسكرهم فأما السلاح والدواب وما شهر عليه فقسم وأما الإمام والعبيد والمتاع فرده على أهله بالكوفة ثم إن الذين كانوا فارقوهم والذين لجنوا إلى راية أبى أيوب ومن كان أقام بالكوفة من الخوارج على الجياد تجمعوا وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم فقام فيهم المستورد أحد كبرائهم وخطبهم حائناً على قتال على فخر جوا إلى النخيلة فأرسل إليهم عبد الله ابن عباس ناصحاً فأبوا فإسار إليهم أمير المؤمنين وطحنهم جميعاً بالنخيلة ولم ينج منهم إلا خمسة منهم المستورد وابن جوين الطائى وابن شريك الأشجعى (ولما) انتهى أمير المؤمنين من الخوارج أمر أصحابه بالتوجه إلى الشام لقتال معاوية ومن معه فقالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونسلت أسنة رماحنا وعادأكثرها قصداً فارجع بنا إلى مصرنا فلنستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا فإنه أقوى لنا على عدونا . ومن هذا يفهم أن القوم قلت عزائمهم فستموا القتال وإذا كانت هذه حال الجيش فلا تستغرب ما آل إليه حال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فان سلطته سارت إلى الورااء كل يوم فى نقصان وهو كل ساعة يحرضهم بما أتاه الله من فصاحة اللسان وبلاغة القول وهم لا يزدادون إلا فتوراً وقليل منهم الذى أخلص له القول والعمل وكثرت عليه الخوارج بحججهم التى اتخذوها وهى أنه حكم الرجال فى دين الله ولا حكم إلا لله وكان فيمن خرج عليه الخريت بن راشد الناجى فى ثلاثمائة من بنى فاجية جاء إليه فقال يا على والله لا أطيع أمرك ولا أصلى خلفك وإنى غداً مفارق لك فقال له إذا تعصى ربك وتدنكت عهدك ولا تضر إلا نفسك خبرنى لم تفعل ذلك ؟ فقال لأنك حكمت وضعفت عن الحق وركنت إلى القوم الذين ظلموا فأنا عليك زار وعليهم ناقم ولكم جميعاً مباين فقال له هلم أدارسك الكتاب

وَنظَرْتُكَ فِي السَّنَنِ وَأَفَاتَحْتُكَ أُمُورًا أَنَا أَعْلَمُ بِهَا مِنْكَ فَلَمَّا لَكَ تَعْرِفُ الْآنَ مَا أَتَتْ لَهُ مِنْكَ قَالَ فَإِنِّي عَائِدٌ إِلَيْكَ قَالَ لَا يَسْتَهْوِينُكَ الشَّيْطَانُ وَلَا يَسْتَخْفِنُكَ الْجَهَالُ وَاللَّهُ لئنِ اسْتَرَشِدْتَنِي وَقَبِلْتَ مِنِّي لِأَهْدِيَنَّكَ سَبِيلَ الرَّشَادِ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُ قَوْلًا بَل سَارَ بَيْنَ مَعَهُ نَحْوُ نَفَرٍ فَأَرْسَلَ وَرَاهِمُ زِيَادُ بْنُ خُضْفَةَ الْبَكْرِيُّ وَقَالَ لَهُ سِرْ حَتَّى تَأْتِيَ دِيرَ أَبِي مُوسَى وَانْتَظِرْ أَمْرِي فَسَارَ زِيَادٌ حَتَّى أَتَى دِيرَ أَبِي مُوسَى وَبَعْدَ مَسِيرِهِ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ قَرْظَةَ بْنِ كَعْبِ الْأَنْصَارِيِّ يُخْبِرُهُ أَنَّ أَصْحَابَ الْخَزِيرَةِ قَتَلُوا رَجُلًا مِنَ الدَّهَاقِينِ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ فَبِعِثَ إِلَى زِيَادٍ أَنْ يَتَّبِعَ آثَارَهُمْ وَيَطْلُبَ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ هَذَا الدَّهَقَانَ ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَيْهِ فَإِنْ أَبَوْا نَاجِزَهُمْ فَسَارَ زِيَادٌ حَتَّى لَحِقَهُمْ بِالْمَذَارِ فَقَالَ زِيَادٌ لِلْخَزِيرَةِ مَا الَّذِي نَقَمْتَ عَلَيَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَيْنَا حَتَّى فَارَقْتَنَا فَقَالَ لَمْ أَرْضَ صَاحِبِكُمْ إِمَامًا وَلَا سِيرَتَكُمْ سِيرَةَ فَرَأَيْتَ أَنْ أَعْتَزَلَ وَأَكُونَ مَعَ مَنْ يَدْعُو إِلَى الشُّورَى فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ وَهَلْ يَجْتَمِعُ النَّاسُ عَلَى رَجُلٍ يَشْبَهُ صَاحِبِكَ الَّذِي فَارَقْتَهُ عَلِيمًا بِاللَّهِ وَسُنَّتَهُ وَكِتَابَهُ مَعَ قَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَابِقَتِهِ بِالْإِسْلَامِ فَقَالَ الْخَزِيرَةُ لَا أَقُولُ فِي ذَلِكَ لَا . قَالَ زِيَادٌ فَفِيمَ قَتَلْتَ الْمُسْلِمَ الَّذِي قَتَلْتَهُ قَالَ لَمْ أَقْتُلْهُ إِنَّمَا قَتَلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِي قَالَ فَادْفَعْتُهُمْ إِلَيْنَا قَالَ مَالِي إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ فَقَاتَلَهُمْ زِيَادٌ إِلَى اللَّيْلِ فَهَرَبَ الْخَزِيرَةُ لَيْلًا وَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ زِيَادٌ رَجَعَ إِلَى الْبَصْرَةِ لِمَدَاوَاةٍ مِنْ مَعَهُ مِنَ الْجَرْحِيِّ وَأَرْسَلَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ الْخَبَرِ فَأَرْسَلَ إِلَى الْخَوَارِجِ مَعْقِلَ بْنِ قَيْسِ الرِّيَّاحِيِّ فِي الْفَيْنِ وَكَتَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ بِالْبَصْرَةِ أَنْ يَمْدَهُ بِالْفَيْنِ مِنْ أَهْلِهِمْ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ ذُو نَجْدَةٍ فَسَارَ مَعْقِلٌ وَحَلَقَهُ مَدَدَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَوَافُوا الْخَوَارِجَ قَرِبَ جَبَلٍ مِنْ جِبَالِ رَاهِمِزٍ فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلَ مِنْ أَصْحَابِ مَعْقِلٍ نَحْوَ السَّبْعِينَ وَانْهَزَمَ الْخَزِيرَةُ بِبَعْضِ أَصْحَابِهِ فَأَمَرَ عَلَى مَعْقِلًا أَنْ يَتَّبِعَهُ فَتَبِعَهُ حَتَّى أَجْهَزَ عَلَى بَقِيَّةٍ مِنْ مَعَهُ وَقَتَلَ الْخَزِيرَةَ (ثُمَّ خَرَجَ) عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْخَوَارِجِ كُلِّهَا أَطْفَأَتْ فِتْنَةٌ قَامَتْ أُخْرَى (أَمَّا) مَعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ مَذَّبُوعٌ بِالْخِلَافَةِ

استقام له الأمر بالشام وكانوا أحسن جند في طاعة الأمراء فأراد أن يجمع كلمة المسلمين على بيعته كما كان يريد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأرسل إلى مصر عمرو بن العاص :

وكان من خبرها أن عليا لما بويح أرسل إليها قيس بن سعد بن عبادة كما قدمنا فبايعه أهلها إلا جماعة منهم اعتزلوا بخزبتا عليهم يزيد بن الحارث الدلجى أعظموا قتل عثمان ودخل معهم مسلمة بن مخلد فكف عنهم قيس لعله أنهم ليسوا بمن يخاف شره فلما علم بذلك أمير المؤمنين كتب إليه يأمره بقتالهم لأن معظم النار من مستصغر الشرر فكتب إليه قيس (أما بعد فقد عجبت لأمرى بقتال قوم كافرين عنك مفرغيك لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فأطعنى يا أمير المؤمنين واكفف عنهم ، فإن رأى تركهم والسلام) فعزله أمير المؤمنين عنها وولاها محمد بن أبي بكر الصديق فلما جاءها قصد المسجد وخطب أهلها فقال (الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا وإياكم كثيراً مما عمى عنه الجاهلون ألا إن أمير المؤمنين ولانى أمركم وعهد إلى ما سمعتم وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب فإن يكن ما ترون من إمارتى وأعمالى طاعة فاحمدوا الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادى وإن رأيتم عاملاً لى عمل بغير الحق فارفعوه إلى وعاتبونى فيه فإنى بذلك أسعد وأنتم جديرون وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته) ثم نزل وبعد شهر من مقدمه أرسل إلى المعتزلين بخزبتا يخبرهم بين الطاعة أو الخروج من مصر فأجابوه إنا لا نفعل فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمرنا فلا تعجل الحربنا فأبى عليهم فامتنعوا وأخذوا حذرهم وكانت حينذاك وقعة صفين قتمت وهم حذرون من محمد فلما حصل التحكيم طعموا فيه ونابدوه فأرسل إليهم سرية لقتالهم فقتلوا رئيسها فأرسل أخرى فقتلوا رئيسها ثم خرج معاوية بن خديج السكونى مطالباً بدم عثمان فلما علم أمير

المؤمنين بذلك رأى أن محمداً لا تمكنه المقاومة فولى على مصر الأشتر
ابن الحارث النخعي وكتب إليه عهداً جمع فيه سياسة الدنيا وصلاح الآخرة
فتوفى في الطريق وشق على محمد بن أبي بكر عزله فأرسل إليه على (أما بعد
فقد بلغني موجودتك من تسميحي الأشر إلى عملك وإن لم أفعل ذلك
إلا ازدياداً لك مني في الجسد ولو نزع ما تحت يدك وليتك ما هو أيسر
عليك مؤنة وأعجب إليك ولاية . إن الرجل الذي كنت وليته أمر مصر
كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن
عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب ، أصبر لعدوك وشم للحرب
وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة
وبه والخوف منه يكتفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك) فكتب إليه محمد
(أما بعد فقد انتهى إلى كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أَرْضَى
برأى أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرفأ بوليه مني وقد خرجت
فمسكرت وأمنت الناس إلا من نصب لنا حرباً وأشهر لنا خلافاً وأنا متبع
أمر أمير المؤمنين وحافظ له والسلام) فلما كانت سنة ثمان وثلاثين أرسل
معاوية عمرو بن العاص في ستة آلاف فسار حتى نزل أداني مصر فجاءه من
خالف على محمد بن أبي بكر وطالب بدم عثمان فاجتمع بهم وكتب إلى محمد
أما بعد فتتح عنى بدمك يا ابن أبي بكر فإنى لا أحب أن يصيبك مني ظفر
إن الناس في هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلوبك فاخرج منها
إني لك من الناصحين) فكتب محمد إلى على بالخبر واستمده فأرسل إليه أن
يضم شيعته إليه ويأمره بالصبر ويعدده بإنفاذ الجيوش إليه فقام محمد في الناس
وندبهم إلى الخروج معه فانتدب له ألفان أمر عليهم كنانة بن بشر فسيرهم
أمامه وتوجه هو بالفين لقتال عمرو فلما التحم كنانة بجيوش الشام ومعهم
معاوية بن خديج من أهل مصر انهزم المصريون وقتل كنانة فلما سمع بذلك

من مع محمد تفرقوا عنه فاختم في أما عمرو فإنه سار حتى نزل القسطنطينة وخرج معاوية بن خديج يطلب محمد بن أبي بكر حتى التقي به فقتله .

ولما بلغ قتله أم المؤمنين عائشة جزعت عليه جزعا شديدا وضمت لإيها أولاده . وبقتل محمد صارت مصر في طاعة معاوية بن أبي سفيان وبايع له أهلها أما المدد الذي أرسله أمير المؤمنين لمساعدة محمد بن أبي بكر فإنه بلغهم وهم في الطريق قتله فرجعوا (وبعد) أن تم لمعاوية أمر مصر سير إلى البصرة عبد الله بن الحضرمي وكان عليها إذ ذلك زياد بن أبي سفيان خليفة لابن عباس فاجتمع إلى ابن الحضرمي جمع كثير من بني تميم كانوا يطلبون بدم عثمان فطلب منهم المساعدة فقام إليه الضحاك بن قيس وكان على شرطة ابن عباس فقال قبح الله ما جئتمنا به وما تدعون إليه نحن الآن مجتمعون على بيعة علي وقد أقال العثرة وعفا عن المسمى أفتأمرنا أن نذتني أسيافنا ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً فقام عبد الله بن خازم السلمي وقال للضحاك اسكت فلست بأهل لأن تتكلم وقال لعبد الله نحن أنصارك وبذك والقول قولك فلما رأى ذلك زياد استجار بالأزد فأجاروه هو وبيت ماله وأرسل إلى علي بالخبر فبعث إليه أعين بن ضبيعة المجاشعي التيمي ليفرق تميم عن ابن الحضرمي فقتل غيلة فلما بلغ ذلك علياً أرسل جارية بن قدامة السعدي فسار إلى البصرة وخطب الأزد وجزاهم عن أمير المؤمنين خيراً وقرأ على أهل البصرة كتاب علي يهددهم ويتوعددهم فيه بحرب أشدهم وقعة الجمل فأجابوه أكثر أهل البصرة فسار إلى ابن الحضرمي وقاتله هو ومن معه حتى هزمه فنبهوه حتى قتل .

ثم صار معاوية يوجه السرايا إلى بلاد أمير المؤمنين ليدخلها في طاعته وسير يزيد ابن شجرة إلى مكة ليحج بالناس ويبايع أهلها على طاعته وكان واليهامن قبل علي فثم بن العباس وليس عنده قوة يقاتل بها فلم يقدم على

قتال فاما ابن شجرة فامن الناس إلا من قاتل وأرسل إلى أبي سعيد الخدرى يخبره أن يأمر قثم ألا يصلى بالناس ولا يصلى أيضاً ابن شجرة ويختار الناس من يصلى فاختروا شيبه بن عثمان فصلى بهم وتم الحج بسلام ولم يحصل إلحاد في الحرم حدرا من وعيده تعالى في قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ وصارت السرايا بعد ذلك تتردد بين الجهتين وكل يريد جمع الكلمة فلم يتيسر لأحدهما ولكن الحجاز واليمن دخل أهلها في طاعة معاوية حينما سير إليهما بسر بن أرطاة العامرى فلم يعد مستمسكا ببيعة أمير المؤمنين إلا العراق وما والاها من بلاد فارس وكلها نار تضطرم بالخلاف والشقاق فريق شيعة على وآخرون خوارج لا يريدون عليا ولا معاوية وفريق منافق يظهر طاعة على وبخفى عداه فلمهم أمير المؤمنين وسُم إمارته عليهم حتى خاطبهم بذلك في كثير من خطبه . وفى السنة الأربعين من الهجرة النبوية أراحه الله من هذا الشقاق المتتابع والخلاف المستعصى فضمه إلى إخوانه من الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وسبب ذلك أنه اجتمع ثلاثة من الخوارج وتذاكروا ما حل بإخوانهم من الخوارج وكرهوا المقام بعدهم فاتفقوا على أن يذهب أحدهم وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادى إلى الكوفة فيقتل عليا ويذهب الثانى وهو البرك بن عبد الله التميمى إلى الشام فيقتل معاوية ويذهب ثالثهم وهو عمرو بن بكر التميمى إلى مصر فيقتل عمرو بن العاص واتفقوا بينهم ليلة ينفذون فيها ما اتفقوا عليه فاما البرك فذهب إلى معاوية وانتظره فى صلاة الصبح فضره بالسيف فوق فى ألبته ولم يمته فأمر به معاوية فقتل وأما عمرو بن بكر فذهب إلى عمرو ولحسن حظه لم يخرج إلى الصلاة فى ذلك اليوم لمرضه فكان يصلى بالناس خارجة بن جبب السهمى فضره الخارجى فقتله ظلماً منه أنه عمرو بخاب ظنه وقبض عليه فقتل وأما عبد الرحمن بن ملجم فقصد الكوفة وانتظر أمير المؤمنين فى صبح الليلة التى اتعد فيها الخوارج وهى ليلة الجمعة سبع

خلون من رمضان فبينما أمير المؤمنين ينادى الناس الصلاة الصلاة إذ ضربه هذا الشقي بسيفه قائلاً الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك فقال علي لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس وأخذوه وقدم جمدة بن هبيرة يصلي بالناس الصبح ثم قال رضى الله عنه النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه كما قتلتى وإن بقيت رأيت فيه رأى يا بنى عبد المطلب لا ألقىنكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن إلا قاتلى انظر يا حسن إن أنا مت من ضربتى هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إيلكم والمثلة ولو بالكلب العقور » ودخل جندب بن عبد الله فقال يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فنباع الحسن فقال ما أمركم ولا أنهاركم أبصر ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما (أوصيكا بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكا ولا تبكيا على شئ. أذوى عنكا وقولا الحق وارحما اليتيم وأعيننا الضائع واصنعا للأخرى وكونا للظالم خصيما وللظالم ناصراً واعملوا بما فى كتاب الله ولا تأخذوا فى الله لومة لائم) ثم نظر إلى محمد الأكبر بن الحنفية فقال له هل حفظت ما أوصيت به أخويك قال نعم قال فأنى أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك وتزين أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما ثم قال للحسن والحسين أوصيكا به فإنه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه وقال للحسن أوصيك أى بنى بتقوى الله وإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة عند محلها وحسن الوضوء فإنه لا صلاة إلا بطهور وأوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتفقه فى الدين والتثبت فى الأمر والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الفواحش ثم لم يزل يذكر الله حتى مات رضى الله عنه فغسله ولداه الحسن والحسين وابن أخيه عبد الله بن جعفر وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قيص وكبر عليه الحسن سبع تكبيرات . ومكث رضى الله عنه

في الخلافة أربع سنين وسبعة أشهر وأياما أراد الله فيها أن يذيق الأمة فيها كأس الضر من الاختلاف عليه لتسكون قد ذاقت الأمرين السراء والضراء والأخوة والشقاق فتختار لنفسها ما يوفقها الله له وقد كان الله سبحانه وتعالى يعلم الأمة المحمدية في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقاب يعجبه جزاء على أعمال لتحذير الأمة من العودة لها كما عاقب بالهجرة في غزوة أحد إذ فشل المسلمون وتنازعوا في الأمر وعصوا الرسول فلم يعد المسلمون بعد ذلك لشيء من هذه الثلاث لعلمهم بأنه يبعدهم عن الله جل ذكره وما داموا كذلك فنصره بعيد عنهم وكذلك في هذه الواقعة أراد الله أن يعاقبهم على ما فعله بعضهم في خليفتهم الذي بايعوه وتهدوا بطاعته ثم نكثوا بيعته وقتلوه ظلماً فعاقبهم الله بهذا العقاب الشديد وأوقع بأسهم بينهم حتى لا يعودوا لتفريق كلمتهم وشق عصا أممهم ، نسأل الله التوفيق .

ولما استشهد على رضى الله عنه بايع أهل الكوفة ابنه الحسن، وأول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة قال له ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال المحلين فقال الحسن على كتاب الله وسنة فيه فانهما يأتیان على كل شرط فبايعه الناس على ذلك .

الحسن

هو الحسن بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد بالمدينة المنورة في السنة الثالثة من الهجرة وكان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عليه السلام يحبه حباً شديداً هو وأخوه الحسين وقال في حق الحسن « اللهم إني أحبه فأحبه وأحبه من يحبه ، وقال فيه كما رواه البخاري في صحيحه « إن إني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين ، ولم يحضر غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم لصغر سنه فقد توفي عليه السلام وقد جاوز سبع السنين ولما فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه العطاء أدخل الحسن في أهل البدر لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن دافع عن عثمان وأبلى في ذلك بلاء حسناً حتى نجاه عثمان رضي الله عنه ، ولما بويع أمير المؤمنين علي كان الحسن معه في جميع مشاهدته ولما قتل علي رضي الله عنه أجمعت شيعة أبيه علي بيعته وله كثير من الأولاد من أمهات شتى لم يعقب منهم إلا إبناه الحسن المثنى وزيداً .

أعماله في الخلافة

لما بويع رضي الله عنه وكان أبوه قد جهز جيشاً لحرب أهل الشام أمر الحسن بخروج هذا الجيش لتتميم ما قد عزم عليه أبوه وسير قيس ابن سعد طليعة له . وليحقق الله سبحانه للحسن ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهمه الرشد فنظر إلى بيعته فرآها ليست كبيعة أبيه فإنها ليست عامة ولكنها قاصرة على شيعتهم من أهل العراق ورأى من جهة أخرى أن جند العراق لا تقوم به دولة لما هو بينهم دائماً من الشقاق

والنزاع والتطلع إلى ما ليس لهم حتى نازعوه بساطاً كان يجلس عليه فراسل معاوية بن أبي سفيان يبذل له الصلح ويشترط عليه شروطاً فأرسل له بصك محتوم ليس فيه كتابة وطلب منه أن يشترط لنفسه ما شاء فكتب فيها الحسن شروطاً أهمها تأمين جيشه وشيعة على كلمهم فقبلها معاوية وقدم إلى العراق فقبله الحسن بجيشه وبايعه بالخلافة هو وجنده وبهذا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين ، وبتسليمه رضى الله عنه انقضى الدور الثاني من دولة الخلفاء الراشدين وهو دور الفتن والشقاق وكان مبدؤه من قيام الثوار على عثمان رضى الله عنه ونهايته تسليم الحسن الخلافة لمعاوية . فتن دامت عشر سنين لو كانت في أمة أخرى لهدمت أركانها وقوضت بنيانها ولكن الله نظر إلى دينه القويم بعين عنايته فألف كلمة أهله وحفظه كما وعد وكنت أود أن أجعل خاتمة الكتاب خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ولكن معنى من ذلك ما منعه العلامة عبد الرحمن بن خلدون حيث قال في خاتمة الجزء الثاني من تاريخه (وقد كان ينبغي أن نلحق دولة معاوية وأخباره بدولة الخلفاء وأخبارهم فهو تأليهم في الفضل والعدالة والصحبة ولا يظفر في ذلك إلى حديث ، الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، فإنه لم يصح والحق أن معاوية في عداد الخلفاء وإنما أخره المؤرخون عنهم لأمرين (الأول) أن الخلافة لمعهده كانت مغالبة لأجل ما قدمناه من العصبية التي حدثت لعصره وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماع فيزوا بين الحالتين فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك ويشبهون بعضهم ببعض وحاشا لله أن يشبه معاوية بأحد من بعده فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المرأونية عن تلاه في المرتبة كذلك وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس ولا يقال إن الملك أدون مرتبة من الخلافة فكيف يكون خليفة ملكاً ؟ (واعلم) أن

الملك الذى يخالف بل يناقى الخلافة هو الجبروتية المعبر عنها بالكسروية التى أنكرها عمر على معاوية حينما رأى ظواهرها وأما الملك الذى هو الغلبة والقهر بالعصية والشوكة فلا يناقى الخلافة ولا النبوة فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهم اثنين وملاكين وكانا على غاية الاستقامة فى دنياهما وعلى طاعة ربهما عز وجل ومعاوية لم يطلب الملك وأهيمته للاستكثار من الدنيا وإنما ساقه أمر العصية بطبعها لما استولى المسلمون على الدول كلها وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عند ما تستفحل العصية وتدعو لطبيعة الملك وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه والقانون فى ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار لا الواهى فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى المسلمين ومن خرجت أفعاله عن ذلك فهو من ملوك الدنيا وإنما سمي خليفة بالمجاز (الأمر الثانى) فى ذكر معاوية مع خلفاء بنى أمية دون الخلفاء الأربعة أنهم كانوا أهل نسب واحد وعظيمهم معاوية فجعل مع أهل نسبه والخلفاء الأولون مختلفو الأنساب فجعلوا فى نمط واحد وألحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحق بهم قريباً فى الفضل والله يحشرنا فى زميرتهم ويرحمنا بالاعتداء بهم . وقد أفردنا نحن لبني أمية وخلفائهم وأخبار دولتهم فى الشام والأندلس كتاباً نفيساً سميناه (الفتوحات الإسلامية فى عهد الدولة الأموية فى الشرق والأندلس) .

الخاتمة

لما كنا قد التزمنا أن نتبع كل دور بنتيجة ما حصل فيه رأينا أن نوفي هنا ما وعدنا به من ذلك فنقول إن لهذا الشقاق الذي حصل والخلاف الذي ألم سببا واحدا به انصدع الجبل وتشتت الشمل وهو قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين رضی الله عنه . نقم عليه الناس إذ ذاك أمورا فعلها فقاموا عليه وحصروه في داره ولم يقبلوا منه إلا أن يخلع نفسه ويدعوه مستندينا على كتاب افتعل وادعى أنه من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل بعضهم وجلد آخرين فلما امتنع من خلع نفسه قتلوه في داره في عاصمة الإسلام ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام البلد الذي يأمن فيه الجاني ويلوذ به الأثم ولم يراعوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة ولا خليفته عهدا . انقسم الناس فيه على ثلاثة أقسام منهم الناكث لبيعته وهم الزعانف الذين لم تستر بصائرهم بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم المقيم على ولائه الذاب عنه وهم أكثر الأمة وغالب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوصار المسلمين ومنهم المقيم على الحياد لا ينصره ولا يخذله فأما الأولون فقد خالفوا سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام وقد قدمنا لك في صدر كتابنا هذا ما قاله عليه السلام في الخروج عن طاعة الإمام ولم يجعل لها سببا إلى الكفر البواح وهو الظاهر الصريح الذي لا تأويل فيه ولم يقل بذلك أحد منهم إلا الغلاة الذين صرحوا بذلك فان كلامهم مردود عليهم من جميع الأمة حتى الشيعة والذي نقموه عليه هو أمور لا تخرج عن حد الشرع وقد قدمناه لك أما الذين أقاموا على ولائه فمنهم المقيم بالمدينة وهؤلاء غلبوا عليها فلم يتمكنوا من المقاومة والذين قاوموا أو ذوا فقتل بعضهم وجرح كثير منهم ومنهم المقيم بالأمصار وهؤلاء خرجوا لنصرته حينما بلغتهم الأخبار

فلم يصلوها إلا وقد قضى الأمر وأما الذين كانوا على الحياد فلم يكونوا يظنون أن الأمر يصل إلى القتل لأنهم رأوا أن عثمان قد صار أسيراً في أيديهم وليس من العادة قتل الأسرى ولو كانوا كفاراً وحاشا لله أن نظن أن علياً والزبير وطلحة كانوا يظنون أن قصد الثائرين قتل عثمان ثم لا يدافعون بأنفسهم عنه حتى يهلكوا أو يخلصوه . أراد الله ما أراد ولا راد لقضائه . قتل عثمان فافترقت الأمة إذ ليس هذا بالأمر الهين حتى يقابل بالخص . فريق ناظم على قتله ويود قبل كل شيء إقامة حد الله والقصاص من قاتليه ثم يجتمع رجال الحل والعقد من الأمة فينتخبون بدله ومن هؤلاء عامة عشيرة عثمان ورأسهم وكبيرهم معاوية بن أبي سفيان أمير الشام وكثير غيره من الصحابة كطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وعمرو بن العاص وغيرهم رضی الله عنهم وفريق رأوا أن الأولى بالمسلمين أن يبدأوا بإقامة خليفة لهم ثم ينفذ حكم الله في القاتلين بعد أن تهدأ الأحوال ولا يتعسر أمر القصاص وتجتمع جنود المسلمين للقعدة على الثائرين ومن هؤلاء علي بن أبي طالب، وكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والفريق الثالث قتلة عثمان يرون بالطبع أنهم أصابوا فيما صنعوا ولا يستحقون قصاصاً . قام المسلمون بالمدينة وفيهم كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوا علياً ليكون خليفة لهم فامتنع كل من ليس على رأيه وقاموا يدعون المسلمين للأخذ بناصرتهم حتى يقيموا حد الله فيمن قتل عثمان فتوجه الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة إلى البصرة للاستعانة بأهلها على القصاص فوافقهم جماعة وخالفتهم آخرون فعدوا . من خالفهم عاصياً مانعاً من إقامة حد الله وأصابوا بعضاً من قتلة عثمان فقتلواهم . أما أمير المؤمنين فعدم خارجين عن طاعته لأنه رأى أن بيعته تمت بمن حضرها فلزمت من لم يحضرها فتوجه إليهم وحاربهم حتى دخلوا في طاعته بعد قتل رؤسائهم وأرجع أم المؤمنين إلى بيتها ثم عزم على حرب معاوية ومن رأى رأيه إن لم يدخلوا في طاعته

كيف يطعمون وقد رزئوا بقتل شيخهم وأمير المؤمنين والقصاص من قتله
أهم الأشياء عندهم فكيف يتركونه أو يؤجلونه وعدوا ذلك عصياناً لله
سبحانه وتعالى وتعطيلاً لحدوده ويتهموا علياً بالهوادة في نصر الخليفة وإبواء
قتلته في جيشه فلما حاربهم حاربوه وظل السيف يعمل في رقاب المسلمين
فلما رأى ذلك معاوية وأصحابه أشاروا على أمير المؤمنين بتحكيم كتاب الله
بينهم فقبل ذلك حينما رأى أكثر جيشه راضين به فحكم كل فريق رجلاً
فهذان الحكمان لم يوفقا للإصلاح بين هاتين الطائفتين العظيمتين ولكنهما
اختارا في صحيفتهما خلع على معاوية ويختار المسلمون لأنفسهم من شاءوا
فعرض كل منهما شخصاً فلم يقبل أحدهما ما عرضه الآخر فافترقا على ذلك .
أنتج هذا التحكيم عند معاوية بن أبي سفيان أملاً عظيماً في تولى خلافة
المسلمين حيث بايعه بها كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
لاعتقادهم فيه الكفاية وحسن السياسة وأنتج في جيش على الاقتراق والشطط
ففريق عده كفراً وضلالة زاعمين أن لا حكم إلا لله وهذا تحكيم للرجال
في أمر الله وفريق استحسنه ؛ فعادى كل فريق الآخر واعتزل من قبحوا
التحكيم علياً فشغل بهم وحاربهم مراراً فقتل كثيراً منهم ونجا آخرون .
تأصل فيهم مذهب الخروج على خلفائهم زاعمين ألا يصلح لها إلا رجل
يدين بعتقدهم فشغلوا الخلفاء حيناً من الدهر وألهمهم في كثير من الأوقات
عن جهاد الأعداء أما شيعة على رضى الله عنه فإنهم رأوا فعل معاوية وطلبه
للخلافة أمراً لإمرأ لأنهم وزنوه بعلى فرأوه مرجوحاً فأرادوا إعادة الكرة
على الشام ولكن الأجل المقدور قضى على حياة أمير المؤمنين فقضى نحبه ولحق
بربه : وجاء السيد ابن السيد فأصلح بين المؤمنين ووجد الكلمة وأزال
الفرقة ولكن الصدور لم تزل تكمن ما فيها من شيعة على لا تزال ترى هذا
الامر في أولاده يطلبونه متى سنحت لهم الفرصة وصارت لهم مذاهب ونحل
قد يعجز القلم عن استقصائها والخوارج لا تزال ترى التحكيم ضلالة ولا ترى

البيعة إلا شورى ولا ينتخب إلا رجلاً على مذهبهم ومعتقدهم وتفرقوا شيعاً كل له مذهب يتبعه ؛ وسنأتى عليها في كتابنا في أخبار الدولة الأموية إن شاء الله ؛ ولا يخفى أن كلامنا على معاوية رضى الله عنهما كان يظن في الآخر الخطأ ومخالفة السنة وإلا لما جاز له قتاله حتى كان أمير المؤمنين على يدعو على معاوية في صلواته وكذلك كان يفعل معاوية (وأما أخبار اللعن فمن أكاذيب التاريخ لأنه لم يقل أحد المتخاصمين بكفر الآخر حتى يجوز له لعنه بل يعتقد أنه مؤمن ولكن عاص وناهيك بما قاله أمير المؤمنين على عن قتلى الفريقين في وقعة صفين والجل وقال العلامة ابن كثير في تاريخه إن خبر اللعن لم يصح) والعجب بعد ذلك من يأتي بعدهم وهو لا يعرف إلا القليل مما حصل لهم ثم هو يتشيع لأحد الفريقين ويبغض الآخر وهذا ليس من الدين في شيء فأولئك قوم اختلفوا في الرأي ولم يتبعوا الهوى بل أرادوا الله بأعمالهم وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تلقوا عنه الدين مباشرة ونقلوه إلينا وقد أجمع المسلمون على توثيقهم وعدالتهم فالخوض بعد ذلك في تضليل بعضهم مما لا يرضى به الله ولا رسول الله صلى الله عليه وسلم والأولى للمسلمين أن يعرفوا أن ما حصل في زمنهم من الخلاف والفرقة أمران لا ينبغي عملهما فيتجنبوهما ويتخذون ذلك درساً في أحوالهم وسياسة دنياهم بدل أن يشغلوا أنفسهم بما لا طائل تحته من تفضيل أحد الأخوين على الآخر وتضليل الثاني منهما . فالتة الله في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو أنفق أحدكم ياقوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدكم ولا نصفية بشهادة نبيكم صلى الله عليه وسلم وإياكم ودجالين وكذا بين من المؤرخين قضت عليهم ظروف زمنهم أن يقبلوا الحقائق ويكذبوا على الله وعلى الأمة الإسلامية فينسبون القبائح لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واشغلوا أنفسهم بتحسين حالكم وطاعة ربكم وها أنا قد نقلت لكم هذا التاريخ الصغير من أوثق المصادر التي يعتقدون بصحتها فليس بعد كتاب الله

سبحانه وتعالى كتاب أوثق من صحيح الإمام البخارى وصحيح الإمام مسلم
الذين نقلنا عنهما كثيراً من أمهات المسائل وبمضا من الأحاديث التي يدخل
تحتها معظم الأمور التي منيت الأمة بها . وليس على الله بعريز أن يؤلف
كلية الأمة ويلم شعنها ويوقفها لما فيه رضاه بمنه وكرمه أسأله سبحانه وتعالى
أن يوفقنا وجميع المسلمين إلى ذلك إنه على ما يشاء قدير .

قال مؤلفه : كان الفراغ من تأليفه خامس رمضان من سنة ١٣١٦ هجرية
بمدينة المنصورة .

(تم بعون الله تعالى)

فهرس الكتاب

صفحة		صفحة
٢٤	كتب أبي بكر إلى المرتدين	٣
٢٦	خبر طليحة	٥
٢٧	خبر مالك بن نويرة	٥
٢٨	مسيلة	٥
٣١	خبر البورين	٥
٣٢	خبر همان	٦
٣٣	أخبار الأسود	٧
٣٥	أخبار كندة	٨
٣٦	أمر العراف	٩
٣٨	وقعة الإبلة	١٠
٣٩	وقعة الثني	١١
٣٩	وقعة الوجلة	١١
٣٩	وقعة اللبس	١٢
٤٠	فتح الحيرة	١٣
٤١	ما بعد الحيرة	١٥
٤١	فتح الانبار	١٥
٤٢	فتح عين التمر	١٧
٤٢	فتح دومة الجندل	١٩
٤٣	وقعة الحصور والحنافس	٢٠
٤٤	وقعة الفراض	٢١
٤٤	صرف خالد إلى الشام	٢٢
٤٤	وقعة بابل	٢٣
		خطبة الكتاب
		المقدمة
		معنى الخلافة
		وجوب إقامة الخليفة
		عدم تعدد الإمام
		صاحب الخلافة
		السرف في تخصيص قريش الخلافة
		شروط الخليفة
		انتخاب الخليفة
		طاعة الإمام
		مخالفة الإمام
		منازلة الإمام
		جزاء المحاربين
		واجبات الإمام
		القسم الاول من الكتاب
		خلافة أبي بكر
		ترجمة أبي بكر
		أعماله في خلافته
		أخبار الردة
		خبر عيس وذبيان
		تسيير الجيوش إلى أهل الردة
		كتاب أبي بكر للأمرء

صفحة	صفحة
فتح الباب ٩١	بده أمر الروم ٤٥
فتح خراسان ٩٢	وقعة اليرموك ٤٨
د فساود لاجبرد ٩٤	وفاة الصديق ٥٠
د كرمان ٩٥	ترجمة عمر ٥٢
د مجستان ٩٥	أمر العراق في عهد عمر ٥٥
د مكران ٩٥	وقعة الجسر ٥٧
د بلاد الشام ٩٧	وقعة القادسية ٦٥
د رمشوق ٩٨	فتح البرس ٧١
د حصص ٩٩	د بابل ٧١
د مصر ١٠٤	د كوثى ٧١
مقام الخلافة ١٠٨	د ساباط ٧٢
الصلاة ١١١	د جلولاء ٧٥
الزكّام ١١٢	د نينوى والموصل ٧٦
الحج ١١٢	د ماسبذان ٧٧
الصوم ١١٣	د هيت ٧٧
القضاء ١١٣	تخطيط الكوفة ٧٧
الفتيا ١١٥	غزو الفرس من البحرين ٧٨
الحدود ١١٦	فتح الأهواز ٧٩
الجهاد ١١٧	إنتفاض الهرمزان ٨٠
بيت المال ١٢١	فتح تستر ٨٢
العلم والتعليم ١٢٣	فتح السوس ٨٢
القرآن ١٢٤	وفود الهرمزان ٨٢
السنة ١٢٦	وقعة نهاوند ٨٤
الفقه ١٢٦	فتح همدان ٨٧
التوحيد ١٢٧	الانسياج في بلاد المعجم ٨٩
الحكمة ١٢٧	فتح أذربيجان ٩٠

صفحة	الكتاب
١٥٤	الخروج على عثمان
١٦٥	مقتل عثمان
١٦٨	خلافة علي
١٦٩	ترجمة علي
١٧٠	أعمال علي
١٨٩	إجتماع الحكمين
٢٠٠	مقتل علي
٢٠٢	خلافة الحسن
٢٠٢	أعماله في خلافته
٢٠٥	الخاتمة
١٣٠	الكتابة
١٣١	لغات الأعاجم
١٣١	الطب
١٣٨	مقتل عمر
١٤٢	ترجمة عثمان
١٤٣	أعمال في خلافته في الكوفة
١٤٧	د د د د البصرة
١٤٩	د د د د الشام
١٥٢	د د د د مصر
١٥٤	القسم الثاني من الكتاب